رواية: أحببت فلسطينيا

الكاتبة: إيمان الرياني

اهداء

عصارة وجع روايتي هذه لا اكثر...
وليدة الالم...وضحية بضعة امل معلق بين الوجود والفناء...
فليكن وجودي بك يا أملي في الوجود...

-ايمان-

"نصيبك في حياتك من حبيبنصيبك في منامك من خيال"**

-المتنبي-

الفصل الاول: لقائـــي بك

"إذا الحب أومأ إليكم فإتبعوه...

حتى وإن كانت مسالكه وعرة وكثيرة المزالق...

وإذا الحب لفّكم بجناحيه فإطمئنوا اليه حتى وإن جرحتكم النصال المخبوءة تحت قوادمه...

وإذا الحب خاطبكم فصدّقوه حتى وإن عبث صوته بأحلامكم كما تعبث ريح الشمال بأزهار الحديقة...

ومثلما يكون الحب لكم تاجا...

يكون لكم صليبا"

- جبران خليل جبران-

-1-

اليوم : الخميس ...الرابع عشر من كانون الثاني/ديسمبر...

"لم يكن احد يهتم لوجودي...ولا لحياتي ...لا لدموعي ولا لاحزاني...انا التي اصطنع الابتسامة كل صباح منذ ان ارفع راسي عن الوسادة في بداية اليوم وحتى اعود فأضعه عليها في نهايته...

اخفي خلف ابتسامتي تلك وجعا يقبض الصدر...كل صباح استفيق دون حماس مني لشيء ما ودون أي اندفاع مني نحو أي شيء ما يجعلني أسعد بأن أحيا ذلك اليوم...

أحيا أياما رتيبة خالية من أي حلاوة...ومن كل معنى...

أياما لا تشبه في شيء حياة فتاة في الثامنة عشر من عمرها مثلي...

اذهب الى الكلية واعود منها كل يوم دون ان افعل شيئا احب فعله واحيانا دون ان اتحدث الى احد طوال اليوم...

أقضي وقتي خلف اسوار تلك الكلية متهربة من الاعين المراقبة لمشيتي وحركاتي وستايلي ولباسي وشكلي واكسسواراتي وشعري...وكأنهم لا ينتظرون مني شيئا سوى ان اشبههم واكون مثلهم.

اقضي وقتا مملا رتيبا...خاليا من المغامرات ..من الضحكات...من المحادثات...اقضي يومي أتهرب من الكلمات الرتيبة البالية المستهلكة من نوع:صباح الخير.اهلا بك.ما أخبارك؟ كيف انت؟ cv؟ اش نحوالك؟لاباس؟والى غير ذلك...

أعيش اياما كلها شبيهة ببعضها لا يوم فيها مميز عن الاخر... اياما عادية عادية جدا ... يمضي اسبوع كامل احيانا دون ان اضحك حتى او ان ابتسم من عمق قلبي...لا شيء جميل عدا القهوة الصباحية الساخنة التي أحتسيها على مهل تحت الشجرة في حديقة الجامعة بمفردي متخفية عن الاعين..

لا شيء جميل عدا القطط التي تجتمع حولي كلما جلست لأتناول سندويتشة فأتقاسم معها نصفها ولا أكتفي منها حتى الشبع ومع ذلك أسعد بأنني أطعمتهم واحاول ايجاد اسماء لهم كي افرّق بينهم...اقضي وقتي بين المكتبة وقاعة القراءة والمشرب ومقعد في الحديقة أجلس عليه بمفردي طوال الوقت...اقضي الوقت اتهرب من الابتسامات الصفراوية ...المحادثات التافهة..الاسئلة المستهلكة واليومية والاعين الجاحظة التي تنظر الي ككائن غريب قادم من كوكب اخر...

أمر بين الجميع ولا اذهب لمشاركة احد بالجلوس...لا اتحدث تقريبا سوى مع صديقتي ملاك شريكتي في غرفة المبيت الذي يبدو للوهلة الاولى التي رأيته فيها أنه مكان مزري غير مؤهل للسكنى...لا للنوم ولا للدراسة فيه...وسوى فتاة اخرى تدعى اشواق عرفتها يوم التسجيل يوم أتيت برفقة والدي من الحمامات كي اقوم بالترسيم هنا دون رغبة مني في القيام بذلك على الاطلاق ...لكن استجابة لطلب والدي لا غير.

لم اكن ابادر بتحية احد...كنت فقط اجيب عمن بادر بذلك ثم اعود لصمتي.

لم اكن أتأقلم مع شيء مما يحيط بي ...تكبّر...غرور...غطرسة...جحود...برود...ثراء فاحش...تصنع...تملّق...تزلّف...وعدم اهتمام...ومداخلات بلا معنى...نقاشات بيزنطية وأحاديث تافهة وعبارات مقززة لا تنمّ عن شيء عدا فقر ثقافي وكبت جنسي وانعدام اخلاقي....

هكذا كنت ارى كل ما حولي... طبعا لم أكن أهتم لتلك المحاضرات التي تستمر طوال ساعة ونصف الساعة والتي لا اتابع حديث الاساتذة خلالها عدا العشرة دقائق الاولى ثم افهم شيئا من الكلمات الصعبة والجمل المنمقة التي تقال امامي...كنت ادهش لحماس الزملاء المندفعين للفهم وطرح الاسئلة ورمي النكت التافهة غير المضحكة خلال المحاضرة وبإنشغال بعضهم الآخر عن الدرس بالأحاديث المتبادلة مع الزملاء المحاذين في الطاولة...وبخروج البعض آخر من المحاضرة ومغادرة القاعة قبل انتهاء الوقت وهو ما كان يقابله الاساتذة بالصمت والقبول احيانا وبملاحظات قاسية وغضب جامح احيانا اخرى.

كان كل ما حولي يثير اعصابي...ويوترني...يثير تعرّقي مع شدة الحرّ في ذلك الشهر "سبتمبر" وفي الايام الاولى منه..لا اشعر بشيء من حولي ولا بداخلي سوى الجوع...والرغبة في الاكل...سوى شدة الحر داخل القاعات وخارجها هذا عدا عن قلة النوم وألم في الرأس لا يفارقني وانعدام القدرة على التركيز على الاطلاق...لا شيء يريحني...لا السكن في المبيت...ولا النوم في غرفة مع فتاة لا أعرفها... ربما من حسن حظي انها من الحمامات مثلي.

لا احبذ الجلوس في "البوفيت" التي اختنق بوجودي فيها لبضع دقائق برائحة السجائر الكثيفة التي تضل لساعات بين اصابع الفتيات والشبان يدخنونها بنشوة عارمة وشراهة غريبة سيجارة تلو الاخرى...ولا الجلوس على احدى مقاعد الحديقة والاستماع الى الاحاديث التافهة وللألفاظ النابية التي تتفوه بها المجموعات التي تحاذيني.

كانت كل الايام متشابهة...

كلها دون استثناء...

وما كان علي سوى ان اعيشها...سوى ان أتأقلم واياها...

كل ذلك كان حتى رأيتك ذات صباح مشمس ذو هواء بارد وشمس ساطعة وسماء صافية !

...

كان يوم الخميس الرابع عشر من ديسمبر حين نزلت من "المترو" برفقة صديقتي سمر التي إلتقيت بها صدفة في طريقي الى الكلية...كنا نتحدث ونمزح سويا ثم دخلنا من الباب الخلفي للكلية أين كنت واقفا تدخن هناك...لم أكن لأتعرف اليك من قبل...لولا تلك الصدفة الجميلة التي اعترضت طريقي وحملتني اليك...كنت مع صديقتي بصدد الدخول الى الكلية من بالباب الخلفي لها...لم أنتبه لوجودك في البداية لكنني وحين التفتت وجدتك قبالتي فشعرت بسعادة غامرة تعتريني وإذا بي ودون أن أهتم لردة فعلك بادرت بتحيتك متحمسة:صباح الخير ! فأجبتني"صباح النور" دون اهتمام...نظرت اليك بتمعن وسألتك مبتسمة: انت صلاح الفلسطيني الي تقرا معانا هنا؟ يحكيو عليك برشا.

فقلت مصافحا اياي بعد ان نظرت الى يدي الممدودة نحوك:أي.

قلت لك: نتشرفو...عجبتك الفاك متاعنا؟

فأومأت برأسك كذبا مبتسما بينما بقيت اصافحك وواصلت قائلة:مرحبا بيك بحذانا.

كنت أتأمل عينيك اللتان تعربان عن كذبك وكرهك لهذه الكلية وانها لا تعجبك... ولا تزال يدي ممسكة بيدك بينما نظرت الي مستغربا وكأنك اردت القول"اسحبي يدك سريعا" فسحبتها بسرعة ووضعتها في جيبي بخجل ورفعت راسي نحوك وقلت بابتسامة عريضة:تقرا معانا appliquée؟

فقلت:fonda!

فانقلبت سحنتي وتغيرت ملامحي وقلت لك سريعا "ربي معاك" فأجبتني بعدم اهتمام "يا عيشك" ثم ذهبت وظننت انك لاحظت ذلك... لست متأكدة...

الغريب في الامر انني أسألك اذا كنت تدرس معنا ام لا وقد شارف النصف الاول من السنة على الانتهاء...ربما كان عدم اهتمامي بكل ما حولي هو سبب ذلك .

أتراك فهمت انني لا احب طلبة الاجازة الاساسية... يبدو انك لاحظت ذلك..على كل لايهم...كنت اكره في طلبة الاجازة الاساسية غرورهم وتكبرهم ونظرتهم المتعالية علينا نحن في الشعبة التطبيقية ورأيهم الخاطئ بأنهم الافضل مستوى وتكوينا منا...لم أكن احب فيهم تصنعهم...

لقد كنا أكثر تواضعا وعفوية منهم...لا أدري ما سبب ذلك بالضبط...لكن على الاقل لم أكن أرى انك مثلهم أو أنك تشبههم...كنت على خلافهم...متواضعا وحقيقا...الى حد تلك اللحظة على الاقل ...

لا أدري ان كانت وجهة نظري ستغير في ما بعد ام لا وان كنت سأكتشف أشياء عكس تلك التي ظننتها ام لا.

كنت اراقبك قبل تلك اللحظة التي صافحتك فيها وقبل ان اكلمك وقبل ان تتلاقى عيوننا باستمرار...

كنت اعرف عنك الكثير دون ان تعرف عني شيئا...كنت ألاحظك...أنتظرك...أتأملك...ابحث عنك وافرح لحظة قدومك ولم تكن تدري...

ربما استغربت قليلا حماسي واندفاعي في تلك اللحظة قبالة الباب الخلفي للكلية(باب دخول الطلبة)لكنك مع ذلك اكتفيت بمبادلتي الابتسامة العريضة نفسها دون أي حماسة او إنجذاب لكن ربما بغرابة...بصراحة...لست أدري ما الذي راودني في تلك اللحظة بالضبط...

لقد تبعثرت..ترددت...ارتبكت..فرحت...اندفعت...وانجذبت لسحر عينيك ...

كان لك عينين لوزيتين جميليتين ينبعث منهما بريق ساحر وسحر خارق للطبيعة...

لا ادري ماذا فعلت بي وقتها بالضبط لكنني ادري انني بقيت اذكرك ولم أقدر على نسيانك بعد تلك اللحظة وواصلت فيما بعد ككل يوم قبل ذلك اليوم...واصلت البحث عنك كلما دخلت الكلية علني احظى برؤيتك عن بعد فقط لا غير دون أن أكلمك أو أن أكرر خطأ إندفعي بتلك الطريقة...لا ادري إن كان ذلك الذي شعرت به وقتها هو الحب أم لا...لكنني ادري انني مازلت اشعر بدفئ يدك وبرودة يدي وتعرقها لحظة إلتقائها بأصابعك..

لا اعلم اذا ما كان الامر قد ازعجك...اذا ما كنت قد شعرت بتلك البرودة وبذلك التعرق أم لا...على كل لا يهم...اظن أنني وقتها بادلتك نفس اللمعة التي كانت في عينيك...كانا جذابين...خارقين...عابرين لكل حدود الحب مخترقين كل قواعد العاطفة....أكان الحب يا ترى؟

لا أدري ان كان بإمكانه ان يصل الينا بهذه السرعة...

الحب دائما يخترقنا فجأة ليتركنا مدهوشين امام سرعة إتيانه الينا بهذه الطريقة...

الحب يبعثرنا يا سيدي انه لا يبقي على شيء فينا كما هو...

يقتحمنا ليقلب كل تفاصيل أعماقنا رأسا على عقب...

أكان الحب يا ترى؟ أكان هو الذي دفع بي لاكلمك ولا افوت الفرصة على نفسي...بينما كان بإمكاني المرور بجانبك دون فعل أي شيء؟

أكان الحب الذي جعلني أشعر بكل تلك السعادة والغبطة لحظة نظرت في عينيك وجعل اصابعي تتعرق التصقت يدي بيدك؟

أكان الحب الذي جعلني لم أنسك أبدا بعد تلك الوهلة القصيرة التي جمعتنا سويا أمام باب الكلية؟

أكان هو الذي جعلني أبحث عنك وأنتظر الفرصة القادمة لفتح حديث معك في كل مرة؟

أكان الحب أم كان الغباء؟"

-2-

كان شيئا اكبر مما توقعته انغام بانتظارها...كان شيئا افخم من احلامها وأبعد من تطلعاتها...تلك الفتاة القوية الصامدة...كم كانت فتاة عظيمة في صمودها أمامي دائما مهما سببت لها من آلام ومتاعب وخيبات...كلما تعاظمت خيباتها كلما اذهلتني بقوتها أكثر...

فتاة تستفزني بمقاومتي بقلم حمرتها...

تتجاوزني دائما بإبتسامتها...

وتدهسني بنسيانها...

لكن رغم كل ذلك لم تكن قوتها هذه تجعلني ألطف معها...بل على العكس تماما كنت السبب دوما في متاعبها...في بكائها وسهرها ودموعها وحيرتها...ككل الناس اللذين يعاتبونني واللذين يكرهونني أويشتمونني بأنبى الالفاظ مدعين أنني السبب في شقائهم وأنني غير لطيف معهم ولم أكتب لهم يوما لحظة سعيدة غافلين عن أنني لست من أكتب سطور حياتهم...

بل مشيئة السماء هي من تفعل وأنا أداة تنفيذ لا غير...متناسين في كل لومهم وتوبيخهم وشتمهم لي أنني كما تسببت لهم في كل آلامهم ودموعهم ...كنت الدافع لفرحهم وابتسامتهم...

وأن السعادة والحزن والفرح والألم والسخط والرضا والغضب والهدوء والعبث والسكينة والفشل والنجاح كلها أنا وأن كل هذه المتناقضات ليست إلا بيدي أنا...

أنا قدرهم...

اوزعها بينهم كما تشاء السماء وتأمر وأنني لا ذنب لي في كل ما يحصل حولهم لأنه ليس بقراري...لكن كل ما يحدث حولهم ولهم هو بإذن مني لا غير...

يظنون أنني أقصد إيذائهم في كل مرة...

يظنون أنني أترصدهم وأنني لا أتعب من إلحاق المتاعب بهم وإيقاعهم في الأذية كل مرة...لكنهم مخطئون...صدقوني أنا أيضا أحتاج الى بعض الراحة في بعض الأحيان...أحتاج أن أبتعد عن معشر البشر...أن أكف عن مهمتي في اللحاق بهم...أن أعتزل هذا العمل وأعتني بنفسي قليلا...

لكن أظن أنني لا أقدر على ذلك...

فكل أحد منا قد كلّف بمهمة محددة في هذه الدنيا...

وأنا كلّفت باللحاق ببني البشر...كي أخط بقلمي قصة حياة كل واحد منهم...لذا فإنني أنتقل من أحدهم إلى آخر حاملا بجعبتي قصصا كثيرة....كم تشابهت قصصهم وكم تكررت مشاهد تعبهم ودموعهم وإستسلامهم إزائي مرات ومرات....قلما رأيت أحدهم يصمد بوجهي حتى الرمق الاخير من حياته...مع أني أدرك صعوبة ذلك...ولكنني عرفت العديدين منهم...اولئك اللذين ينالون لقب العظماء...

بعد أن يكونوا قد تخطوا كل المراحل في مواجهتي...فيحققون فوزا ساحقا علي...بعضهم أصبحت أسماءهم مشهورة بين البشر...والبعض الآخر بقيت أسماءهم في الخفاء...لكنّ النقطة المشتركة بينهم هي تغلّبهم على كل المطبّات التي وضعتها بطريقهم....

وكانت أنغام من هؤلاء....لقد كانت المسافة بيني وبين هذه الفتاة قصيرة جدا....فبعض البشر احافظ على المسافة بيني وإياهم والبعض الاخر كتبت لهم الأذية....فلا أقدر على تركهم إلا بإيلامهم...وبصنع العقبات في طريقهم كل مرة...

كانت أنغام فتاة خارجة عن كل التوقعات...

قوية...محاربة...صبورة....عنيدة...حاولت اخضاعها مرات عدة ولم تكن تصبو إلي...

توالت خيباتها وخساراتها وأحزانها...

وكان كل ما يلحق بها من صنع يدي...

لكنني هذه المرة كنت مختلفا معها عما سبق...

إخترت الذهاب إليها في ثوب جديد....حاولت جعلها تودّع كل ما عانته في السابق بحياة اخرى تدرك فيها معنى الحب والصبر والتضحية...ولاعلمها كيف تتقن ردات الفعل الصائبة تجاه كل ما يحصل حولها...لأعلمها ان مصائر البشر تكون بين أيديهم في بعض الأحيان دون أن يروها...كانت فتاة طموحة...تسعى لكتابة قدرها بيديها...وتأبى الخضوع...ولكنها لم تدر أنها لا يمكنها القيام بذلك بمفردها في كل الاحوال...

لقد خلق البشر لأكتبهم لا يكتبوني...

كان علي أن أتدخل في كل مرة بينها وبين ذلك الذي وقع عليه قلبها...كي تكتب قصتها...

كانت أيامها رتيبة ومملة...كل يوم من حياتها يشبه الآخر...كانت مصرة على كسر هذا الروتين لكنها لم تكن لتنجح في ذلك بدون مساعدة مني...

في المرة الاولى دفعتها أمام باب الكلية...أما هذه المرة فكانت في مكتبة الكلية...

-3-

التوقيت: منتصف شهر يناير وبعد بداية الدروس والعودة الى المبيت والى الروتين اليومي المعتاد.

كانت العطلة الشتائية قد انتهت وانتهى معها السداسي الاول من السنة بعد أن أتمت انغام تقديم فروض المواد الاساسية في الاسبوع الاول من السنة ...

كان يوما مشمسا...مشرقا...حارا في شهر شتوي بإمتياز..لم تكن ترغب في بقائها في الكلية لكنها كانت مجبرة على ذلك....لم تكن مخيرة في شيء مما تقوم به منذ اول يوم لها في تلك الكلية...

منتصف الظهيرة...جالسة في قاعة القراءة في الطابق الثاني من المكتبة التي تتوسط باحة الكلية...الى طاولة خشبية مستطيلة الشكل حذو النافذة تنظر الى السماء حينا والى روايتها الفرنسية " Notre dame de paris" للكاتب الفرنسي "فيكتور هيغو" حينا اخر....كانت تشعر بجوع شديد لأنها لا تحبذ نوع السندويتشات الذي يقدمه "المشرب" في الكلية ولم يكن بإمكانها ان تغادر الكلية او تعود الى سكنها الجامعي لان الحصة المسائية لم تنتهي بعد...

بقيت على ذلك الحال مجبرة تشغل نفسها بقراءة الرواية بينما تعالى ضجيج الطلبة من حولها وهم يتحاورون حول مواضيع شتى ويجتهدون في تلخيص المحاضرات وحل التمارين في كراس الدروس المسيّرة لحظة دخل هو برفقة فتاة ترتدي معطفا اسودا وجلس الى الطاولة الثالثة يمينا قبالتها تماما ودون ان ينزع قبعته الصوفية السوداء من على رأسه ...

وضع كتبه وأوراقه على الطاولة وسحب الكرسي وجلس بهدوء دون أن يصدر أي صوت بينما سحبت الفتاة الكرسي بطريقة أصدرت صوتا مزعجا وسط القاعة التي علت فيها وشوشات الجالسين المنشغلين بالاحاديث عن الدراسة...

كانت انغام تحاول استراق السمع الى احاديثه مع تلك الفتاة التي حجبت عنها رؤيته فلم تتمكن من الاستماع الى شيء...بعد دقائق قالت له الفتاة"دقيقة ذاهبة الى الحمام" فقال "باهي" ثم تركت كرسيها وغادرت فبقيت انغام وجها لوجه معه...

كانت تنظر اليه تارة وتضع عينيها في روايتها تارة اخرى...كانت سعيدة قبالته...كانت ترمقه بشغف وتنتظر ان يرفع رأسه تجاهها ليلحظ وجودها واكنه لم يفعل...كان علي ان ادفع بها اليه كي تبدأ الحكاية...فلا يمكن لأي قصة ان تبدأ لولاي انا ...لولا القدر...

مرت دقائق وهي تفكر في شيء ما تقوم به لتلفت انتباهه اليها وهو منغمس في اوراقه يقرأها بصعوبة ويحاول تفسيرها...تظاهرت برغبتها في التدخين...فذهبت لاحدى زميلاتها في الصف وقالت لها:

"ياسمين هل لي بسيجارة منك ارجوك؟"

"طبعا عزيزتي تفضلي"

اخذت السيجارة وجلست الى الطاولة متظاهرة بالبحث عن الولاعة وعدم ايجادها ثم اتجهت الى طاولته وقالت:

- عفوا صديقي.

رفع رأسه متفاجئا وقد أفسدت عليه هدوءه فقال:

- تفضلي خيتو.
- هل أجد عندك ولاعة لاشعال سيجارتي؟
- طبعا عندي.

ادخل يده في جيبه واخرج الولاعة وناولها اياها فصافحته والولاعة بين يديهما ضغط على يدها بقوة وهما يتأملان بعضهما إبتسمت اليه قائلة:

- هل تذكرتني؟
- بلى،التقينا مرة امام باب الكلية.
- اجل اظن انني لم اقل لك عن اسمي وقتها
- لا أظن
- انا انغام
- نتشرفوا بيك
- وبيك ياعيشك ! اراك تقرأ نصوصا بالفرنسية هل تتقنها؟
- انني ادرسها في معهد تعليم اللغات "بورقيبةschool" قصد تعلمها لكي لا اجد صعوبة في الدراسة هنا..فكما تعلمين اللغة الفرنسية عندكم هنا مهمة جدا وهناك عدة مواد تدرّس بالفرنسي.
- اجل محق انها ليست صعبة ان كنت حازما في تعلمها واصررت على اتقانها ستنجح على كل اذا احتجت ان تفهم شيئا او اردت مساعدة في أي شيء كان انا جاهزة اعرف انني ادرس اجازة تطبيقية لكن لا اظن اننا اقل منكم في المستوى الدراسي فنحن كذلك مجتهدون ومتميزين متى احتجت شيئا انا جاهزة.
- شكرا جزيلا لك هذا من لطفك.

انغام فتاة خجولة وانطوائية...ينقصها بعض الاندفاع الضروري كي تصل الى ما تصبو اليه...لذا كان علي ان ابعث فيها الجرأة من حين الى اخر...

كان علي أن ادفع بها في كل مرة لكسر قسم ما من هذا الحاجز الذي يمنعها من تنفيذ ما تخطط له بالطريقة التي تحب...

"أتيت إلي وقتها لا ادري متى تحديدا ومن أين بالضبط..لكنني ادري انك كنت مختلفة عن الكل..كنت استثنائية بكل المقاييس...شيء ما كان يجذبني اليك...شيء ما يشعرني بأنك لا تشبهين في شيء فتيات تلك الكلية...كنت متميزة بكل المقاييس...بكل ما فيك...فتاة بسيطة القلب..تلقائية الطبع...خفيفة الظل...حلوة الروح...كان لديك ابتسامة ساحرة تخطف القلوب...كنت قوية...مغرية...غامضة.. مستفزة...فاتنة...دخلت حياتي او بالاحرى قلبي دون استئذان ولكنني ابيت الاعتراف الى ان فعلت انت ذلك بمفردك."

جمعتنا الصدفة مرة في شهر فبراير...

كنا في المكتبة ....كنت أتأملك بينما كنت مشغولا عني...ثم ومن دون سابق انذار تركت كرسيك وطاولتك التي تحلق حولها الجميع واتيت الي.... لا ادري أي شيء دفع بك الى هذا...

تظاهرت بالانشغال بقرائتي الكتاب بينما اقتربت مني رويدا وقلت بصوت منخفض:

عفوا يا انسة!

تظاهرت برفع رأسي متفاجئة وقلت:

من؟ صلاح؟ اهلا بك.

انغام.

اجل أنا هي.

كيف أنت

الحمدلله وانت؟

فقلت باللهجة التونسية : لاباس عيشك....انغام لم لا تأتين للجلوس معنا؟

لا شكرا لا أريد الجلوس مع اناس لا يحبذونني.

ما هذا الذي تقولينه ؟وكيف حكمت انهم لا يحبذونك؟

أشعر بذلك...من لا يحبك يصرح بذلك لكن ليس بالكلمات... النظرات تفضح كل شيء...انني أقرأ ذلك في عيونهم...

لا أحد هنا يحب الآخر...قلوب باردة ومشاعر مثلجة.. برود وتصنع ونفاق ونميمة وغيبة واغتياب واحاديث من خلف الظهر.. شيء مقزز...لا أحبذ مواضيعهم التي لا تنم الا عن كبت وجهل وحقد وفراغ انظر اليهم عيونهم تقول كل شيء لكن افواههم تقول شيئا اخر ...انا حين انظر الى عيون

شخص ما اعرف جيدا ماذا يشعر تجاهي وبماذا يفكر وبماذا يرغب وماذا يريد ان يقول حتى لو لم يفعل...انت مثلا بامكاني ان اعرف بماذا تفكر وبماذا ترغب لمجرد نظرة مني لعينيك.

حقا ؟ بماذا تراني افكر؟

انظر الي....أنت الآن تتمنى لو لم تكن هنا في هذه المكتبة وعلى هذا الكرسي تجلس بجانبي لتلخص القانون الدستوري...وتتمنى لو انك في هذه اللحظة وفي طقس جميل كهذا لو كنت برفقة اصدقائك ورفاقك المحببين طلبة المنار تجلسون في إحدى المقاهي لتناول قهوة لذيذة ونارجيلة وتتبادلون الاحاديث عن الدوري الاسباني اليس كذلك؟

هل انت متأكدة انك تقرئين عيناي بشكل صحيح ؟

طبعا لماذا؟

لأن كل اللذين ترينهم حولك هنا في المكتبة يفكرون في هذا ويتمنون الجلوس في إحدى المقاهي مع اصدقائهم عوضاً عن بقائهم هنا طوال الوقت.

بلى أعلم ذلك لكنني اتقن قراءة العيون ورأيت ذلك في عينيك.

كاذبة

لماذا؟

لانك لو اتقنت قراءة عيناي لايقنت أنني...

حسنا أنا الآن علي ان أعود الى المبيت تأخرت سأرتاح قليلا لأنني صحوت باكرا جدا ثم سأطبخ شيئا للعشاء لأن شريكتي في الغرفة لا تجيد الطبخ.

لكن....

لا بأس أعلم انك لم تكمل حديثك...لكن علي ان اذهب...سنتحدث في الغد...باي.

ولكن الصدفة الاجمل التي رتبتها أنت باتقان...كانت يوم عدت الى البيت فوجدت ورقة منك الي...

كان يوم خميس الساعة السادسة مساء ...حين عدت الى البيت...فتحت حقيبتي فوجدت فيها ورقة قد طبع عليها صورة شفاه محمرة وكأنها بأحمر الشفاه قد رسمت...وقد كتبت عليها ابيات شعرية

"وقد زعموا ان المحب اذا دنا يمل

وان النأي يشفي من الوجد

لكل تداوينا فلم يشفى ما بنا

على ذاك قرب الدار خير من البعد"

ثم كتب تحتها:

اتراك تعلم كم من لحظة لا تمر في اليوم إلا لك وبك...

اتراك تعلم يا عزيزي أو يا صديقي لا أدري بالضبط بايها علي مناداتك كم من الايام مرت على اللقاء الأول والأخير الذي كان بيننا دون أن اتمكن من نسيانك حتى اللحظة...

اتدري يا عزيزي كم من المرات احببتك... وكم منها تذكرتك.. كم مرة بحثت عنك..كم مرة اشتقتك....كم مرة اشتهيتك...كم مرة كتبتك....كم مرة عانقتك..كم مرة قبلتك....كم مرة اشتممت ريحك....كم مرة شعرت بك...كم مرة تخيلتك...كم مرة سرت بجانبك دون أن أسير حقا...كم مرة بعثت برسالة اليك...كم مرة ضحكنا...كم مرة بكينا.

كم مرة افترقنا والتقينا دون أن نلتقي ...منذ تلك الوهلة القصيرة التي صافحتك فيها وتركت قلبي عندك ومضيت...

اتراك تعلم كم من محادثة وهمية خلقت بيننا...وكم مرة التقينا دون أن نلتقي.... وكم مرة قلت لك فيها احبك دون أن تسمع مني حقا تلك الكلمة...

فهل تراك ستقرأ كلماتي هذه يوما؟

ارجوك اقرأها ففي قرائتك لحروفي هذه شفاء لي من وباء كئيب يدعى الشوق!

وحين التقينا تحدثنا بشأن ذلك...لا ادري ما الذي كان يدفعني الى الشعور بأنك من رميت بتلك الورقة في محفظتي..لا ادري حقا ما الذي جعل شكي يتجه اليك انت من دون بقية الفتيات...كنت صريحة معي في حديثك ولم تنكري شيئا مما فعلته.

قلت لك بعد ان اجلستك جانبي:

اخبريني اولا.

ماذا؟

لماذا تلاحقيننني هكذا؟ اتتعمدين قربي؟

لا لست أفعل ....انها صدفة لا غير.

لا ليست كذلك...كلما ذهبت إلى مكان ما اجدك فيه ما قصتك؟ هيا اجيبي بسرعة.

اتصدق ان قلت لك اشعر بالامان بقربك؟

بهذه السهولة؟

اجل ولماذا تستغرب؟!

لست اعرفك منذ زمن طويل لم تشعري بالامان بقربك من احد لا تعرفينه جيدا ولم تتعرفي إليه إلا منذ وقت قريب؟! كيف يمكن ذلك؟

وهل يستشيرنا الحب قبل ان يطرق القلب؟ لست اظن ذلك.

الحب؟ اذن أنت من دسست هذه الورقة في محفظتي؟

اجل أنا من فعل ذلك...لا شيء يدفعني لانكر...هل اخطأت في ذلك؟!

كيف تفعلين هذا؟! لم فعلته؟!

ولم تفعل أي فتاة ذلك برأيك؟! أريد قربك...هل لديك مانع؟

اجل طبعا عندي مانع ...ومن أنت كي تمنحي نفسك شرعية قربي بهذه السهولة؟

ولم لا امنح نفسي ؟ ما المانع من ذلك؟لم تجعل من كل شيء جميل شيئا صعبا ومستحيلا...لم كل هذه العقبات التي تضعها في طريقك كي تمنع نفسك من اللحظات الجميلة؟ هل ستقف بوجه الحياة ان أرادت هي ان تسخى عليك بايام جميلة؟

لا لن اسمح لها بذلك ولن اسمح لك بأن تواصلي لعبتك المضحكة هذه.

ولم هذا؟

لأن سخائها هذا سيكون جميلا لكن مؤقتا لن يكون طويلا سينتهي بسرعة الضوء وسيضمحل كالبرق ويترك خلفه ذكريات جميلة لكن قليل محطما وروحا منهكة...ارجوك انغام لست أريد الحب ولست ارغب في الدخول في علاقات عاطفية...أنت فتاة جميلة ورقيقة لا يمكنني رفضك لكن لا يمكنني ان أقوم بشيء لا أرغب فيه لا تجبريني ...لا أريد أن تخذلي أو تعتبري هذا تجريحا مني.

ألا تخاف ان تندم؟

سأندم على ماذا هلا اجبتني بحق السماء؟!

ستندم حين تقضي بقية حياتك وحيدا.

مش رايح بندم على اشي ايزا مركضتش ورا بنت.

وعلاش تسميه ركض؟

اسمعي يا عزيزتي....يوسف سجن لاجل بنت ...القصير قتل لاجل بنت...روميو انتحر بسبب بنت ولست القايمة طويلة...وعاوزتيني امن نفسي لبنت؟

أريد أن افهم شيئا واحداً لا غير...لماذا هذه النظرة السوداوية للمرأة؟ اعرف انك لا تحبذ بنات هذه الكلية ولكن هل رأيتني شبيهة بهن؟

لا أنا احترمك ...أنت فتاة جيدة وخلوقة ومحترمة.

اسمعني دعنا من هذه المجاملات اعتبرني ايناس.

من ايناس؟

ايناس اختك... اعتبرني ك ايناس اقصد كأختك.

وكيف عرفت اسم اختي؟

اه؟ رأيت اسمها على موقع التواصل الاجتماعي فعرفت أنها اختك.

ضحكت وقلت: تتجسسين علي وتعرفين افراد عائلتي كذلك؟

فقلت:اجل ولماذا سأخجل من قول ذلك..اعرف اصدقائك الفلسطينيين الذين يدرسون في المنار وهم اصدقائي على موقع التواصل الاجتماعي.

حين عدت الى البيت كتبت إليك على ورقة وضعتها في محفظتك في الغد: تسألني لماذا احبك؟ انها روحي التي احبتك يا سيدي ...هذه الروح الوحيدة التي تتقوق لمن يعانقها لينسيها انفرادها ويشعرها بتفردهاروح تائهة....وحيدة في أرض عليها مليارات من البشر... وفي مدينة الملايين...وفي حي مكتظ...وفي بيت مليء بأفراد أسرتي...لا انيس لوحدتي هذه عدا تفكيري الذي يأخذني ويعيدني الى خيالاتي المعتادة مئات المرات في اليوم....ولكنك لست الخيال بل الحقيقة... فانك ان وافقت سأكون شاكرة لك مودتك وقربك...وان أبيت فإن ذلك لن يمنع من الابقاء على صداقتنا محفوظة بيننا..لا تخشى شيئا...فانني لن اذكرك بهذا الامر مطلقا بعد ذلك.

-4-

مر الشتاء واتى شهر نيسان...
عدنا من عطلة شهر اذار المطولة...كانت جحيما بالنسبة لي...لم أراك طوال تلك العطلة...ولم أغادر الحمامات مطلقا....
كان كل شيء رتيبا مملا في غيابك...كل شيء من حولي يتوق الى حضورك..كم تصنع بهجتي... كم تصبح الدنيا اجمل حين ارى كل ما حولي من خلالك..وكم يرق قلبي حين يسقط نظري على عينيك...

لكن لم اكن اقدر على ان اخبرك بذلك...ليس بي جرأة تمكنني من ذلك...

كان اليوم الاخير قبل فترة المراجعة...غادرنا الكلية سويا واخذنا طريق محطة المترو سيرا على الاقدام...قلت لك:

ليس لدي رغبة في العودة الى المبيت ولا بي شوق الى الدراسة...كرهت حياتي اليومية...كرهت التفاصيل اليومية المكررة التي اعيشها...اعود كل مساء الى تلك الغرفة الضيقة الظلماء فأجلس طوال المساء للدراسة برفقة شريكتي في الغرفة...انها تحاول جادة التقرب الي بملاطفتي ولكنني لا املك مزاجا يسمح لي بالتواصل مع الاخرين...لا اشعر بالراحة الا بقربك انت..معك احاول تناسي الروتين الممل الذي يجتاح حياتي منذ دخولي هنا.

جيد اذا اتصلي بي كلما رغبت.

طبعا سأفعل

حقا؟ ماذا تظنينني يافتاة ؟هل انا وسيلة للترفيه عن نفسك ام ماذا؟

لا لست اقصد ذلك

ماذا تقصدين اذا اتستبلهيننني ؟

ما بك هل قلت شيئا في غير محله ؟

اخفتك اليس كذلك؟ ... كنت امزح لا تغضبي.

ارعبتني...الله لا يوفقك يا زلمة.

ضحكت وقلت هيا نركب لقد جاء المترو... في المترو صادفنا ذلك الرجل بشوش الوجه جميل الروح..بائع المحارم والعلكة مناديا بصوته المعتاد وكلماته المحفوظة عن ظهر قلب من كل ركاب المترو رقم 2 (هيا استناو يا الولاد...بميتين مشوار...بميتين شينغوم... شنوة رايك في التشكيلة) قلت له ممازحا اياه:فما ريزو والا لا؟ فأجابك ضاحكا: الريزو طالع والحمدلله...اللهم صل عالنبي....ايا خليني نتقدم.

بعد دقائق لم اشعر بمرورها بفعل الاحاديث المختلفة التي تبادلناها اثناء سير المترو...نزلنا في محطة الباساج والشوفير ينادي: terminus ....اخر محطة...اخر محطة..المترو في اتجاه اريانة.

جلسنا في "مقهى تونس" في شارع الحبيب بورقيبة...كان امامك كوب قهوة express زجاجي...بينما كنت استمتع ببرودة كأس الليموناضة الذي اشتريته ببعض المال الذي كان معي..قلت لك:

يمككني ان اجزم حقا انها كانت اصعب سنة دراسية في حياتي....وانني كنت مدللة في ايام الثانوية وفي بيتنا...لا يمكن ان انسى كل المعاناة التي عشتها وتعايشت معها هذه السنة وكل الاشياء الجديدة التي اكتشفتها في هذا البلد...والتي عرفتها عن هذه العاصمة المرهقة..التي اتعبت كل روادها..وجعلت من شقائهم خبزهم اليومي..كنت احاول وسط كل هذا صناعة ذكريات جميلة لا اكثر ولا اقل... لكن قدري لم يساورني سوى بالدموع والخيبات والشقاء...لا ان انني سانجح هذه السنة...ربما لا يهمني هذا بقدر ما تهمني الطريقة التي ابحث من خلالها عن اقناع والداي برسوبي...كيف سأفعل لست ادري..

لا تفكري بهذا من يدري ربما تنجحين....انا كذلك لم اتحصل على العلامة الكاملة في السداسي الاول لكن لا بأس ما تزال امامنا الدورة التكميلية.

لم تخبرني ...ماذا عنك؟هل هذه السنة الاولى لك في تونس؟

لا ليست كذلك انني هنا منذ سنة وهذه السنة الثانية...اخذت وقتا طويلا للتأقلم هنا...ولتحضير اوراقي وللتمكن من التسجيل في جامعة من جامعات تونس...لكن لا شيء كان مؤهقا اكثر من اتقان اللغة الفرنسية لتسهيل التعامل مع الناس...تعرفين ان اللغة الفرنسية هنا هي الثانية بعد العربية وهي مستعملة بكثرة حتى في لهجتكم اليومية.

اجل اعلم.

لذا اضطررت للدراسة في بورقيبة school في شارع الحرية وفي معهد اللغة الفرنسية في شارع باريس.

اذا اصبحت تعرف شوارع العاصمة جيدا.

اجل اعرفها جيدا...شوارع تونس سهلة الحفظ...ما رأيك ان نتجه الى الكوليزيه ونشاهد فيلما ما تزال الرابعة سنغادر عند السادسة لا تقلقي لن تتأخري عن سكنك الجامعي..

لا مانع هيا...لا تقلق بشأن المبيت انه يغلق عند الثامنة.

-5-

مر كل ما تبقى من السداسي الثاني من هذه السنة الدراسية سريعا جدا...

كانت الايام والليالي تتوالى...وعطل ايام الاسبوع تتالى...والغدو والرواح بين العاصمة والحمامات لا ينتهي...وانغام تنتظر الصيف...تنتظر العودة الى البيت...والاهل والجيران...والبحر والسهر وتأمل الشروق...لم يكن يزعجها مطلقا انها سترسب وتتخلص من زملاء لا ترغب بهم...كانت فكرة التخلص منهم تريحها بينما كانت فكرة تقبل اهلها للامر تسيطر على عقلها طوال الوقت..

مرت عطلة المراجعة وهي في بيتها في الحمامات تهرب من اوراقها الى النوم ومن دروسها الى الشارع ومن اصرار والديها الى البحر صباحا والسهر على الشاطئ ليلا...

لم تكن الدورة الاولى سهلة ولا يوم النتيجة كذلك ابدا...كانت مدركة مسبقا امر تأجلها الى الدورة التكميلية...قضت ايام الامتحانات في المبيت تذاكر مع شريكة غرفتها او في احدى المقاهي مع زميلاتها...كل المقاهي جلست فيهم لاجل المراجعة...ومع ذلك كانت تدرك انها لن تتدارك بهذه السهولة...

كان يوم النتيجة يوما حارا ...لم اكن اخبأ لانغام يوما جميلا ولم اكن قد حضرت لها فترة حلوة في قادم الايام ... بل كانت ايامها القريبة التي ستحياها صعبة جدا ...ولم يكن لها الخيار عدا ان احيانا وان تمر بها ...كنت قدرها...ولا احد يختار قدره!

لم توفق انغام في الاجتياز للصف الثاني...

ولم يوفق صلاح كذلك ...

غادرت الكلية مكسورة...مهزومة...ركبت السيارة دون أن تتبادل الحديث مع أحد ...

عادت إلى الحمامات وعيونها باكية ...خجلة ...نادمة ...لا تقوى على الكلام...

كم كانت تحتاج من التبريرات لتقنع اهلها بأنها لم تكن على ما يرام طوال السنة كي تنجح...وانها لم تكن مستعدة للتأقلم في ذلك المكان ولا لدراسة تلك المواد التي لا تفهمها ولا لحضور تلك المحاضرات ..أي شيء كان سيقنعهم واي كلام كان سيطفئ نارا متأججة بداخلها...كنت قدرها وكان عليها ان تقبل بي بأي شكل كنت وبأي طريقة جئت ...شاءت أم ابت...أنا من يرسم حياة الجميع ويخطها بيده... لم يكن لاحد ان يعترض عما افعله به...

لم يكن بيدها حيلة...ولم تكن قوية الى هذا الحد...لم تتقبل الأمر بسهولة...كانت بحاجة إلى شيء تهرب إليه...كان البحر سبيلها الوحيد إلى ذلك...

انعزلت عن عائلتها وجيرانها واصدقائها واخذت من البحر صديقا وحيدا لها...كانت بحاجة إلى بعض من الراحة وكثير من النسيان...

كان الصيف فصلا طويلا ثقيل الظل...مقيت الحضور... لم تحبذه يوما...وكما الكثيرين...كانت تعاني من فوبيا الصيف ...لولا انها كانت تختلف عن اولئك قليلا بشيء ايجابي...هو سكنها بجانب البحر...

كانت تتجه إليه صباحا ومساء وليلا وفجرا...تحدثه وتركن إليه وترتمي به محاولة التناسي والتصبر ... تذهب اليه لتتأمل الناس ...الكل يأتي الى هنا هاربا من الحر تاركا الحياة بكل مآسيها وتعاستها خلفه

ليتعرض الى أشعة الشمس ويرتمي في المياه...ويستلقي بجسده مفترشا الرمال متلحفا السماء...
مر الصيف بكل ما فيه... لعب ولهو وشجار مع اختها...
كلمات قليلة جدا وتكاد تكون معدومة مع والدها... حوارات مطولة حول النجاح والفشل والصمود والشجاعة والاقدام والعمل والجد والصبر والحب والتأقلم والتميز مع والدته...ايام رتيبة وصباحات مملة وليال متشابهة وامسيات حارة خالية من النوم مليئة بالسهر والضجر...

" اخاف الصيف...لا اقصد مجيء الصيف في حد ذاته انما اخاف نفسي وما تصبح عليه حين قدوم هذا الفصل الجامح الذي يأخذ بطريقه كل شيء جميل بداخلي ... ثمة دراسة تقول أن مزاجنا في الصيف يصبح حادا اكثر وثابتا أقل... بحيث يصعب علينا ان نسيطر عليه فلا نقدر على التحكم به ولا ندرس ردود افعالنا قبل ان نقوم بها... ربما بذلك يمكننا ان نفسر اعصابنا المتعبة وعقولنا المرهقة من شدة التفكير الذي ينتابنا في هذا الفصل من السنة....ويمكننا ان نبرّر إنفلات الامور من قبضتنا وعدم قدرتنا على احكام السيطرة على ما يحدث حولنا ...ويمكننا ان نفهم مزاجنا المتقلب الذي يتغير كل لحظة واخرى...

هو فصل مزاجي بإمتياز يجعلنا أشبه به على عكس كل الفصول الاخرى يلبسنا ثوب جنونه...ينقل لنا عدوى حرارته ...فنهرب من أجسادنا الحارة مثله كل يوم الى شيء ما ينسينا حره وصعوبة التأقلم معه....

يمكنني ان اعترف صراحة أنني أكره الصيف...اكره بهجة لياليه المزيفة التي لا تشبه اعماقنا...فنحاول التشبه بها ونتصنع السعادة والانطلاق...

وكسل صباحاته وقيلولته المضجرة التي لا يراودني فيها النوم كما الجميع...و ضجر مساءاته الكئيبة وغروبه الطويل المحزن...

يمكنني ان اعترف حقا أنني لا أحبذ حركة الاجرام ودوران الكواكب في هذا الفصل فلا اتوافق مع ابراجه ولا استحسن بطئ حركة الشمس فيه و طول غروبها ووحشية اشعتها التي تشعرني بأنني احترق ببطئ او اتعرض للشواء...

...

يمكنني ان اعترف حقا انه فصل لا يشبهني بشيء ولا اشبهه في شيء...اقضيه هاربة من جسدي...من ذاكرتي...من افكاري التي تحاصرني ومن ذهني الذي سيقضي علي كل لحظة بصور لا أرغب في رؤيتها وذكريات لا أحبذ استرجاعها...

اقضيه وحيدة وسط الملايين... أبحث عن شيء ما يملأ فراغي كي اعتزل تفكيري المجهد وانسى أو اتناسى وحدتي وسهري وسهادي بلا انيس ولا مؤنس....أظن أنني أشبه الجميع في ذلك نوعا ما والا فلم أرى كل هؤلاء من حولي يهربون من بيوتهم وعقولهم واجسادهم الى الشوارع والنزل والملاهي والشطآن لولا انهم يحاولون تناسي مللله والتأقلم مع طول أيامه والانسجام مع اوقاته التي تتخلها رتابة رهيبة؟

فالاغنياء يهربون من كل هذا الى جميع وسائل الترفيه متناسين اموالهم الطائلة التي تذهب فداء تحسين مزاجهم دون اهتمام منهم... والاخرون يحاولون البحث عن عمل كمورد للمال الذي يحتاجونه أو البحث عن وسائل ترفيه تتناسب دخلهم وتتلائم مع فقرهم وحاجتهم... في الصيف تظهر جلية الفوارق الاجتماعية بين الناس... فيتذكر البعض خصاصتهم واحتياجهم الذي يمنعهم من العيش كما يرغبون بينما لا يمتلك البعض الآخر الوقت لكي يتذكروا ثرائهم الفاحش الذي انعم به الله عليهم دون تقديرهم قيمته فيواصلون متعتهم وفجورهم بلا مبالاة...

ووسط كل هذا نظل نبحث عن شيء يصنع معنى للوقت الذي يمر من حياتنا دون عودة فهل لنا قضاء هذا الفصل لولا انتظارنا الدائم لقدوم الفرج بمجيء الخريف؟

كان شهر أب شهرا ماطرا... أتى ليمحو كل ما كان من حر وتعب وارق وسهر وضجر وملل في الشهرين الماضيين..
أتى بالخير والفرج...والدفئ والامل...بدأ وكأنه يتشبه بتشرين وكانه يحاول أن يكون مماثلا له...

-6-

بدأ العام الدراسي...
كان يوما حارا....
ركبت في الصباح الباكر برفقة والدها للعاصمة لاجل التسجيل ...كانت صامتة طوال الطريق واجمة تتأمل سلسلة الجبال التي تطوق ولاية نابل وتربطها بولاية تونس...وبعد أن دخلت السيارة الى العاصمة بدأت تنظر إليها بشغف شديد وتطل من النافذة لترى ساعة شارع الحبيب بورقيبة ومحطة ال TGM وطريق المرسى والبحيرة وحلق الوادي ....انعطفت السيارة يمينا الى حي الخضراء ثم انعطف الى اليمين بإتجاه الحي الرياضي ومن ثم الى 10 ديسمبر...
بدأت أرى سور تلك الكلية يقترب...
كنت أجر نفسي مجبرة الى الطريق ...لم تكن بي رغبة للعودة الى هناك ولا الى الذهاب إلى المبيت ....

لم يكن لي حنين الى رؤية جدرانها ولا الى الالتقاء بأناسها...
لم يكن بي شوق إليها ولا الى أحد من الزملاء...
لم اكن أطيق العودة الى ايامي المعتادة هناك ولا الى روتيني الممل فيها وبين اسوارها...
ذلك المعتقل المقيت الذي يشعرني الدخول إليه برعب شديد اسعى الى اخفائه كل لحظة بجهد جهيد...
ذلك القرف الذي احياه كل يوم ...والهواء الذي استنشقه كل وهلة...والذي يكاد يخنقني...ويقتلني كل لحظة...
تلك المذبحة التي اعدمت بين جدرانها كل احلامي وامالي واجمل اوقاتي واحلى الفترات من عمري ...
عدت ليس كما هم ولا مثلهم...لا بحماستهم...ولا بسعادتهم ...عدت مجبرة...

هكذا أنا في كل خطوة قمت بها في حياتي...كنت مجبرة على كل شيء...شيء ما يدفعني ان احيا بالطريقة التي يريدها والداي لا التي اريدها انا...
شيء ما جعلهما يعيشان حياتي عوضاً عني...لا ادري اذا ما كنا قد اتينا الى هذه الدنيا عن خسارة قد تعرض لها كلاهما... ولا ادري اذا ما كانا يعتبران مجيئنا الى هذه الدنيا تعويضا لهما عن خساراتهم السابقة واحلامهم الضائعة...
لكن شيء ما يدفع بهما الى جعلنا نضيع احلامنا تلبية لرغباتهم ونضيع امالنا وسط السعي لارضائهم...
شيء ما يجعل حياتنا خالية من الحياة...شيء ما يجعل من الخيال اروع ما يمكن ان يحصل لنا في هذه الحياة...
ابتدأ العام الدراسي وبدأ كل شيء معه من جديد...
لم يكن علي فعل شيء عدا التأقلم وتقبل الأمر...
قال لي أبي:
هل انتظرك هنا حتى تأتين؟ام انزل برفقتك؟

بلى انتظرني هنا لن أتأخر.
ذهبت إلى هناك...وكنت أبحث عن شيء بارد لاشربه فدخلت على الفور المشرب كي أشتري علبة عصير بارد وقارورة مياه ثم دخلت الى القاعة المخصصة للتسجيل ...كان شعورا يراودني للمرة الاولى بأنني بقيت في الصف نفسه سنتين متتاليتين...
كنت هاربة من كل أحد اعرفه...عمرت الاوراق اللازمة كلها وأخذت ورقة اعداد السنة الفائتة ورحلت بسرعة فائقة دون التحدث الى أحد عدا تلك السيدة وذلك العون الإداري اللذين قاما بتقديم الاوراق لي...
بعدها عدت الى الحمامات وحين كان اليوم الدراسي الأول نمت الليلة في غرفة المبيت مع فتاة غريبة لا اعرفها ولم يكن بي فضول للتعرف عليها ...ولا لخلق احاديث اعتيادية بالية...كانت تعرفني بنفسها...وتتحدث الي عن تجربتها في البكالوريا والتوجيه الجامعي والمبيت...اظنها كانت الليلة الاولى لها هنا...أما عني فلم اكن معها ابدا...حتى اني لا اذكر مما قالته طوال الليل شيئا عدا انها من سوسة واسمها سرور...حسدت هذه الفتاة على اسمها الجميل هذا....كان اسما مناسبا لها فهي كثيرة الضحك دائمة الابتسام ..تبعث البهجة اينما حلت...كم كنت بحاجة إلى شيء من السرور في تلك اللحظة...

تسائلت وقتها هل حقا اسمائنا تشبهنا؟ هل تليق بنا هذه الاسماء التي اختاروها لنا دون ان يكون لنا أي دور في اختيار أسماء ستلاحقنا وستلتصق بنا حد الممات...أو بعده...

هل يليق بي حقا هذا الاسم الذي منحوني اياه والذي يوحي لكل من يستمع اليه بالطرب والبهجة والسرور...كم تنقصني كل هذه الاشياء...وكم اشعر بالحاجة اليها..

-7-

كان صباح يوم اثنين..

كان اول يوم من اسبوع جديد...

عادة ما يكون اليوم الاتعس لدي واليوم الاكثر كراهية عندي من بين بقية ايام الاسبوع...

اتيت الى الكلية متعبة بعد ليلة لم انم طوالها بعد ان تعودت النوم في بيتنا فلم يراودني النعاس في غرفة المبيت...

انتهت المحاضرة..
غادر الجميع القاعة للذهاب إلى المشرب ما عدا عن بعض الطلبة اللذين جلسوا لتبادل الأحاديث على مقاعدهم..

وجدت احدى الصديقات الجديدات على المقعد فجلست حذوها...

كان يبدو عليها من هيئتها وطريقة تعاملها مع ما حولها انها تشبهني تماما عندما اتيت الى هنا منذ سنة...فقد كانت مذهولة مصابة بالدهشة في كل ما حولها...كان كل شيء بالنسبة اليها غريبا وغير مألوف ... وكان كل حديثها عن العلاقات...الناس...الطلبة والاساتذة والعقليات....والمعاناة....المبيت والنقل والمواصلات....حتى انها بكلماتها اعادت لذاكرتي صورتي وما كنت عليه في بداية السنة الفارطة..

في ذلك الوقت كنت اظن انني بمفردي اعيش كل هذا...وان كل ما يحصل بداخلي بسبب لؤمي وطبعي الحاد...ولكنني اكتشفت هذا العام مع هؤلاء اللذين قدموا الى هنا للتو...ان الامر يتكرر مع كل من يدخل الى هنا....

كم تبدو تعيسة تفاصيل الحياة الجامعية في هذا البلد...وكم عليك ان تمتلك من الصبر والقوة والحدة والتجلد ورباطة الجأش والقدرة على التحمل كي تطيقها وتتمكن من مواصلتها...

أي راحة أوهمونا بها؟ واي رفاه اقنعونا اننا سنصبح فيه اذا تجاوزنا مرحلة البكالوريا بالنجاح؟

أي وهم كنا نصدقه كالاغبياء؟

لم أرغب في اخافة تلك الفتاة من واقع الحياة الجامعية خلف اسوار هذه الكلية او هذا المعقل... تركت لها الفرصة لتستكشف بمفردها ما لم تعرفه بعد...عن العلاقات ..عن العقليات..وعن طريقة التفكير هنا.. وعن طبيعة العلاقات ايضا...فلكل وجهة نظره...ولعلها لا ترى الامور كما اراها انا...

وبينما انا بجانبها نادتها احدى صديقاتها فتركت الكرسي وغادرت بينما اتت صديقتي جيهان التي رسبت مثلي هذه السنة وجلست بجانبي لتبدأ بسؤالي عن حالي ...اجبتها دون تفكير في ما اقول:

الا يبدو حالي جليا على ملامحي...مذ دخلت الى هنا...لم اعرف شيئا عدا الشعور بالجوع وقلة النوم... عدا الروتين اليومي وتكرار اليوم نفسه...عدا التوتر والرتابة والملل والالم النفسي والجسماني... الحياة الجامعية في تونس عبارة عن فترة تعذيب مطولة لا تدري ما تكون نتيجتها... واي اثار ستحملها في جسمك وروحك حتى انتهائها...تعبت كل شيء...تعبت المصاريف اليومية التي لا تنتهي... والغدو والرواح بين الحمامات والعاصمة مع كل نهاية اسبوع..والنوم في غرفة المبيت التي لا تبدو مكانا مناسبا للنوم ولا للدراسة ولا حتى لقضاء حاجة بشرية فيها...

اطبخ بمفردي وادرس بمفردي واقضي الوقت في المكتبة لتلخيص الدروس وبقية الوقت من الليل في الغرفة لحفظها وفهمها وقراءة كراس الدروس المسيرة وانجاز تمارينه...حتى حين ارغب في شرب شيء بارد في هذا الحر...لا برّاد لدي... وحين ارغب في اخذ حمام ساخن في البرد يكون الماء باردا حتى اني اسخنه في طنجرة على القدر... اشتاق الى طبخ امي...والسهر مع اختي والخروج برفقة ابي والاستماع الى حكاياته... حقا انك لا تعرف قيمة عائلتك الا بعد الابتعاد عنهم وترك بيتك...ولا تعرف معنى الجوع وقلة النوم الا اذا جربت الدراسة الجامعية...اعلم انها تفاصيل لا تعني شيئا امام النجاح ولكنني تعبت.

احمدي الله يا انغام...صديقيني رغم ظروف المبيت المزرية...لكنك اهون حالا مني ومن كل من يعيش معاناة المواصلات اليومية ...تعلمين انني اجيء الى هنا كل يوم من منطقة المروج ولكي اصل الى هنا أركب ثلاثة متروهات في المجيء والعودة...وكي اصل الى هنا الساعة الثامنة علي ان انهض الساعة الخامسة واركب المترو عند السادسة وحين اغادر من هنا السادسة مساء اصل الى البيت في الثامنة ليلا منهكة من التعب والتحمل...

هذا عدا عن انني ان لم اجلب معي اكلا من البيت فانني لن اكل شيئا طوال اليوم...فالمشرب هنا ليس فيه سندويتشات واكل...وليس لدينا مطعم لا داخل الكلية ولا خارجها... صديقيني الوقت الذي اقضيه في المواصلات اطول من وقت المحاضرة نفسها...لقد اثر هذا على مردوديتي ودراستي حتى رسبت...للاسف....لم ارسب ولو لمرة في حياتي لانني لم اكن اركب المواصلات كي اصل الى المعهد...لقد كان المعهد في حيّنا وقريبا من بيتنا..حتى انني كنت اغادر سريري قبل نصف ساعة من بدأ الدرس وأصل بكل سهولة.

وانا كذلك ...كم كانت مرحلة الثانوية ممتعة ومريحة.

الحمدلله بكل الاحوال....هيا لنذهب ستبدأ المحاضرة..سننجح هذه السنة باذن الله ولن نكرر اخطائنا السابقة.

ربتت صديقتي على كتفي ومضينا سويا الى قاعة الدرس.

بعد انتهاء اخر فروض ال DSوقدوم نهاية الاسبوع ...تركت قاعة الامتحان بعد ساعة ونصف كاملة...وجلسا سويا على مقعد من مقاعد الحديقة يتبادلان شتى الأحاديث

قالت له: الحمدلله ها قد انتهى آخر فرض ...لم يبقى بحوزتنا لهذا السداسي سوى فروض يناير ...أما عني فانني لن اعيد سوى مادتين من المواد الأساسية لا غير.

وأنا كذلك .

ما رأيك ان ادعوك لاحتساء قهوة .

في المشرب؟ حسنا هيا لنذهب .

اي مشرب؟! ألم تمل من هذه الجدران؟ قصدت ما رأيك ان أذهب واياك الى السنتر قبل ونحتسي قهوة في المدينة العتيقة .

وهل تعرفين المدينة العتيقة جيدا؟

طبعا ألم اخبرك؟ صحيح أنني أقطن في مدينة الحمامات لكن والداي ليسا من هناك وأنا لم اولد فيها .
حقا؟! الست أصيلة الحمامات؟

لا ان أبي من مدينة باب سويقة ولدي بيت جدي هناك إلى حد هذه اللحظة وامي دمشقية وأنا واختي الصغيرة احلام ولدنا في دمشق لأن أبي تزوج والدتي هناك وعشنا هناك جميعا الى حين بداية الحرب حينها تركنا سوريا وقدمنا الى هنا ...اطمئن لن نضيع أنا اعرف العاصمة جيدا أنني اعيش في تونس منذ كان عمري 12 عاما .

انك لم تخبريني بهذا من قبل

لم يكن هناك فرصة مناسبة لتعلم بهذا...

هيا لنذهب سأريك السراجين وقبر الجندي المجهول وباب منارة وباب بنات ونهج العروسة وصباط الظلام وبير الحجار ونهج الباشا وباب سويقة ونهج القعادين الذي عاش فيه جدي من والدي ونهج الكبدة الذي ولد فيه ...سأريك باب العلوج... فيه وزارة التربية ووزارة الشؤون الدينية في باب بنات ووزارة المالية وقصر الحكومة والمدرسة الصادقية في ساحة القصبة انهم غير بعيدون مطلقا عن كلية 9 افريل تدرس فيها إحدى قريباتي "ابنة عمتي" على فكرة عمتي انتيمتي حدثتك عنها انها تعيش في المرسى cube.... بيتها على الشاطئ وفيه اسطوح فيه مشهد جميل جداً بإمكانك رؤية البحر عن قرب منه....عمتي هذه هي صديقتي المقربة على فكرة.

ولماذا تقطن في المرسى وليس الحمامات كوالدك؟ اخوها يعني .

لأنها تزوجت رجلا من هناك فتركت باب سويقة أي بيت جدي وسكنت هناك ...أما عن والدي فقد قلت لك سابقا بعد عودتنا من الشام واستقرارنا هنا قرر والدي العمل في الحمامات لذلك قرر أن نسكن هناك. المشكلة ان والدي ظن ان قطاع السياحة في تونس مازال كما كان في سابق عهده لكنه فوجئ بتغييره وتدهوره نتيجة الازمة في تونس ...لقد واجهنا صعوبات عديدة وعشنا اياما عصيبة لكن الحمدلله هو الآن مدير نزل بفضل حسن استغلاله لأمواله وحصانة رأيه وحكمته....

في المرة القادمة سأخذك الى بيت عمتي حين نذهب الى المرسى .

وصلا الى محطة 10 ديسمبر وجلسا على مقعد من مقاعدها لانتظار قدوم المترو للذهاب إلى العاصمة قالت له :انشالله ما يوخرش المترو .

لا تقلقي ان تأخر فإنك لن تملي برفقتي .

وهل لديك شك؟ !

طبعا لا يا عزيزتي

اي دخيلو المتواضع يخرب بيت غرورك يا زلمة ...التفتت يسارا لترى إن كان قد جاء المترو أم ليس بعد ...فإذا ببائع المحارم الورقية والعلكة المشهور يأتي مناديا بكلماته المعتادة:

ارفع راسك...عالمية....ياوليدي....هيا تقدم ....ال2... eme mitonاقترب منهما فنظر إليها بابتسامته المشرقة المعتادة وقال لها: وينك يا طفلة .

هاني الحمدلله لاباس اش عاملة في القراية لاباس الحمدلله مسلكينها .

هذا صديقك الفلسطيني اعرفه! لاباس قادد روحك؟! كيفاش لقيت القراية في تونس؟ رد بالك راهي صعيبة .

الحمدلله تمام .

ايا باهي اسمع رد بالك عليها بنتنا راهي .

اطمن متفكرش بعيوني

ايا انستو خليني نتقدم شنوا رايكم في التشكيلة؟ !قالا سويا: عالميا .

والجواب صحيح ايا استناو يا الاولاد .

توقف المترو القادم من العاصمة بإتجاه اريانة فذهب راكضا إليه وركبه .

قالت انغام لصلاح: يا له من رجل طيب انه هكذا دوما....بشوش ضاحك...لا يمل من تكرار كلماته المعتادة ليبيع بضاعته... ركاب المترو رقم 2 حفظوا كلماته عن ظهر قلب...ها قد جاء المترو هيا أسرع لنركب.

7كانون الاول/ديسمبر

بعثت لها اريج برسالة الى الهاتف كتبت لها فيها:" اننا في مقهى الخطاب عالباب الحقي بنا سريعا فأجابتها مسرعة ببهجة شديدة بدت على ملامحها"انتظروني لا تغادروا المقهى انا قادمة"

غادرت المبيت الجامعي واوقفت تاكسي أخذتها الى محطة ال TGM حيث نزلت مسرعة تستعجل خطاها نحو "باب بحر" مرورا بشارع "الحبيب بورقيبة" دخلت الى نهج جامع الزيتونة "سوق النحاس" بعد ان عبرت بجانب نافورة المياه التي رشتها بالرذاذ على قميصها البنفسجي المصنوع من الصوف وبنطالها الجينز وقد طارت من حولها الحمامات الملونة المتحلقة حول المياه تلتقط الحبوب المتناثرة ارضا...مرت بمحلات النحاس والتحف ومقهى العلي ومقهى السور في نهج جامع الزيتونة ومن ثم عبرت محلات بيع المقروض وسوق اللفة ثم انعطفت يسارا نحو سوق البركة ودخلت المقهى من تلك الفتحة الصغيرة التي في الحائط ثم ذهبت يمينا نحو المقصورة الاقرب الى المدخل التي سمعت من خلالها صوت احاديث رفاقها وضحكاتهم احنت رأسها ودخلت فصر خ الجميع مبتسمين لها:HAPPY BIRTHDAY انغام.

ضحكت واضعة يدها على فمها دون ان تقدر على تصديق ما تراه.

"لا منصدقش Impossible هذا الكل ليا؟

قال بلال :"وموش برشا عليك يا احلى انغام.كل عام وانتي حية بخير."

قالت: يا عيشك

قالت اريج:كل من نادر ومهدي واشواق ودلال...ثمة ام وانتي حية بخير انغام

- يا عيشك روجة

قالت ملاك:كل عام حية بخير عزيزتي العاقبة ل100سنة

يا عيشك ملوكة وقبلها نادر ومهدي واشواق ودلال...ثم كان دور صلاح وقفت امامه مبتسمة وقالت:

- متأكدة انك صاحب هذه الفكرة وانك من اخبر هم انه يوم ميلادي...اليس كذلك.
- مبلا حزرتي يا شاطرة.
- أي لكن يا عمي مفيش حدا بيعرفك زيي...عنجد شكرا صلاح...شكرا ليكم الكل وعيشكم...فرحتوني عللخر...ما اجمل الديكور وهذه البالونات الملونة.
- دخل النادل بطبق عليه قالب مرطبات مغطى بالشكولاطة وحوافه بالكريمة البيضاء تتوسطه زهرة وردية كتب من تحتها كل عام وانت بخير انغام وقد اشتعلت شموعها وسط تصفيق الحاضرين وصراخهم فابتسمت وقالت:غير مقعول ما اجمله من قالب حقا شكرا جزيلا احرجتموني

قالت ملاك: هيا بلا ثرثرة اطفئي الشموع بسرعة كي نأكل لم اعد اطيق الانتظار

- على عيني

اطفأت شموع وسط تصفيقهم ثم امسكت بالسكين وقالت:هيا اياديكم.

وضعوا ايديهم على يدها وقطعت قالب الحلوى ثم ناولت كلا منهم قطعة منها...وبعد دقائق سلموها هدايا مغلفة بأغلفة مزينة ومغلقة بأرشطة ملونة...ثم قالوا لها:

- انغام عزيزتي هذه الهدايا لك.

اخذت تفتحها واحدة واحدة وشكرت كلا منهم على تقديمهم لهذه الهدايا بينما لم يقدم لها صلاح شيئا التفتت اليه وسألته: وانت صلاح اليس لديك هدية الي ؟ فقال مبتسما: انا من امنت قالب المرطبات فلا داعي لهدية فقالت: لا مشكلة صدقوني وجودكم حولي في هذه اللحظة اجمل هدية.

بعد الاحتفال غادروا جميعا المقهى وتفرق كل منهم مسرعا بالعودة الى بيته او مبيته وبقي صلاح بمفرده برفقة انغام بعد ان اقترح عليها ان يمشي برفقتها في ازقة المدينة العتيقة

قالت له ببهجة:لا يمكنك ان تتخيل مدى سعادتي بهذا اليوم هذه المرة الاولى التي اقضي فيها يوم ميلادي برفقة اصدقاء يحضرون لي مفاجأة في مكان جميل كهذا وعزيز علي مثله...بس بتعرف شي انا عتبانة عليك هاه

- انا؟ عشان ايش؟
- عشان ايش ؟عامل حالك مو دريان ما عشان الهدية....بس يلا سيدي مو مشكلة ايزا بتجي للحقيقة وجودك جنبي احلا هدية بعمري.
- ومي نقلك مش قايملك هدية؟ انا قلت هيك بس عشان الشباب ميعرفوش ايش هديتي الك لانها خاصة شوي بس انا مستحيل يمرق هماليوم وما فرحك فيه بشي انتي غالية عقلبي.
- وايش الهدية؟
- تفضلي
- قدم لها هدية في غلاف مزركش مغلفة بشريط زهري اللون همت بفتحها فوجدته كتابا برتقالي اللون...قالت:ياي كتاب يا الله شو حلو.
- بعرفك بتحبي الكتب والروايات كتير عشان هيك اخترت تكون الهدية كتاب
- "ماذا يعني ان تحب امرأة تونسية...معاذ جهاد" (ضحكت بشدة واضعة يدها على فاهها كعادتها عندما تضحك) ولماذا اخترت هذا العنوان دون غيره؟
- اقرئيه وستعرفين لن اجيبك على شيء الكتاب نفسه هو من سيجيبك
- يعني شو يعني انك تحب مرا تونسية؟ يعني راح تجن ما عندا تفسير تاني(ثم ضحكت بشدة) مش عارفة ايش بدي قلك
- متقوليش اشي اهم شي عندي تقري الكتاب
- اكيد راح بقراه وبشغف كتير كبير
- يلا نمشي
- احنا وين هلقيت؟
- احنا في نهج الباشا سنخرج على نهج الحفصية وننعطف على زنقة سيدي محرز ثم نمر عبر باب سويقة ونذهب الى محطة الباساج بعد عبور نهج علي البلهوان.

كان الجو ماطرا والسحب ملبدة متلاصقة في عنان السماء الرمادية تذرف بعض الرذاذ من حسن الى آخر ...ثم تعود لتظهر الشمس ثم تختفي من جديد فيسود لون السماء مجددا ...

وصل الى المبيت سيرا على الاقدام بعد أن توقف بسيارة الاجرة على بعد امتار قليلة منه...ثم اتصل بها بينما كانت تغط في نوم عميق...أخذت التليفون من تحت الوسادة... وقالت بتكاسل دون أن تنظر الى اسم المتصل :الو

- الو انغام

- صلاح؟

- هاقد وصلت الى المبيت وأنا انتظرك أمامه هيا تعالي لنذهب .

- حسنا دقيقتين وسأكون امامك عن اذنك

- لحظة !

- ماذا؟

- ما به صوتك؟ هل مازلت نائمة؟

- لا لا لست كذلك انني أضع اللمسات الاخيرة وسأنزل حالا .

نهضت مسرعة نحو الحمام فغسلت وجهها واسنانها وصففت شعرها سريعا ولبست ثوبها وتعطرت وغادرت مسرعة بعد أن حملت حقيبة يدها التي فيها عطرها وحمرتها وهاتفها وبعض النقود لا غير...

نزلت الدرج ركضا بعد أن كان قد اتصل بها مرتين اخريين....قالت لها منظفة البناية : صباح الخير يا ابنتي !

صباح النور خالتي هنية! كيف حالك؟

الحمدلله انار الله دربك لا تركضي الأرض مبللة انتبهي من الانزلاق !

لا تقلقي سأكون بخير! اعانك الله .

غادرت المبيت ونظرت يمينا الى الطريق العام فلم تجده ثم نظرت شمالا فرأته واقفا على بعد امتار قليلة بانتظارها ذهبت إليه خلسة ووقفت وراءه صارخة في اذنه :صلاح ! فارتعد والتفت إليها متفاجئا

فقالت :صباح الخير والورد والفل والياسمين صديقي العزيز !

- قولي يا صباح الكسل والنوم لعند الظهر يعني لو مصحيتكيش بتلفوني كنتي حتصحي عند الظهر وتكملي عطول .

- أنا اسفة حقا كنت نائمة حين اتصلت بي لقد سهرت البارحة برفقة صديقتي في الغرفة نشاهد فيلما رومانسيا على ال mbc max ولم ننم حتى انتهى في ساعة متأخرة من الليل .

- ألم تذهب صديقتك الى حصة القانون الجبائي؟

- بلى ذهبت لأنني حين نهضت لم اجدها في الغرفة .

- جيد اذا اخبريها ان تعطيك ما كتبوه كي تعطيني اياه .

- اطمئن سأفعل...هيا لننطلق.

- لم تقولي لي ما اسم الفيلم الذي سهرت تشاهدينه برفقة صديقتك .

- ساخبرك لاحقا اخبرني اولا الى أي اتجاه نحن ذاهبون؟

- الى المدينة العتيقة.

- ماذا؟ الان؟

- اجل.

- أليست بعيدة؟

- لا سنذهب الى محطة اريانة ومن هناك نجلس على كرسيين في المترو حتى نصل الى الباساج ثم نذهب سيرا على الاقدام لباب بحر ومن هناك سنتجه الى مقهى الخطاب عالباب سأعزمك على فطور صباح لذيذ هناك .

- ياه كم اشتقت الى القهوة(direct) هناك مع قطعة كرواسون ساخنة في هذا البرد .

- ها انت ستتناولينها برفقتي اليوم.

- ياااي جميل ! ثم ماذا؟

- ثم يذهب الى درج جامع الزيتونة ونجلس .

- لا انه مبلل ألا ترى الامطار؟

- اجل اظن ذلك اذن سأذهب لتناول صحفة لبلابي في أي محل من المحلات .

- حسنا موافقة لكن علي الا أتأخر صلاح.

- لماذا؟

- انه اليوم الأخير قبل بداية العطلة...اليوم سيغلق المبيت على الساعة السادسة مساء اذا علي ان أعود عصرا وتجمع بقية اغراضي قبل العودة الى الحمامات .

- حسنا هل معك مطرية لقد بدأت الامطار أظن أننا سنبتل .

- لحسن الحظ بقيت في حقيبتي منذ البارحة ولم اخرجها .

فتحت المطرية واحتمت من مياه الامطار واياه وواصلا سيرهما على الاقدام وكتفيهما متلاصقين ضمها بيده إليه وقال :اي صدفة هذه؟ كلما نجتمع سويا ونقرر السير تلحق بنا المطر وتبللنا .

- ولماذا لا تقول تهطل المطر وتسعدنا...يال هذا الجو الرومانسي كم أعشقه ! ما أجمل السير تحت المطر برفقة من تحب !

- ماذا؟ !

- اقصد برفقة أعز اصدقائك .

- هيا تعالي لنجلس بانتظار المترو .

- يا ويلي المقعد بارد الا نقف؟

- لا لا سنتعب دعنا جالسين .

اغلقت المطرية ونثرتها من المياه ثم وضعها بجانبها ...قال: اذا انه اخر يوم لك في العاصمة .

- اجل سأشتاق لاريانة والمنزه والمدينة العتيقة و centre villeوشوارع العاصمة المزدانة بخيوط الشمس صباحا والمرصعة بالاضواء ليلا وسأشتاق لصديقاتي ولك كثيرا أتعرف ؟ سأشتاق لاصدقائك كذلك انهم لطيفين .

- والكلية؟

- ماذا؟ أي كلية؟ طبعا لن اشتاق إليها ولا لقاعاتها أو حديقتها أو درجها المتعب أو مكتبتها الشيقة أو دهاليزها المخيفة المظلمة التي تسودها العتمة منذ الساعة الرابعة مساء ولن اشتاق الى المشرب وقهوته المرة ولا للاستيقاظ الساعة السابعة كل يوم ولا الى الكتابة ولا الى الدفاتر أو الاساتذة ولا الى الكتب والمراجع... والجوع والتعب والارهاق..

- لكن هذه الكلية جمعتني بك ربما وجودنا فيها يتعبنا لكنها خلف اسوارها نلتقي لو لم ندرس أنا وأنت هناك لما التقينا .

- اجل أعلم ذلك ....لكن لا ادري لم رغم هذا لا يمكنني ان أحب ذلك المكان...او بالاحرى المعقل الذي دفننا فيه اجمل فترة من حياتنا...انسيت أننا نسينا ان نحيا منذ أن دخلنا تلك الكلية نسينا الحياة الاجتماعية والعاطفية والشخصية ...نسينا عائلاتنا واصدقائنا والاهتمام بانفسنا وكل شيء ...نسينا حتى النظر في المرآة.... ألا ترى شحوب وجوهنا ونحول اجسامنا؟

- لا بأس تحلي بالصبر يا عزيزتي.

-11-

كم لبث الحب بيننا لست اذكر...

عدنا مجددا بعد غياب قصير ما اطوله !

انا وانت ومطر وشتاء ومحادثة ليلية متأخرة غير مبالية بالوقت...

اظننا قد كسرنا قوانين الشتاء هذه المرة يا صديقي...فقد اصبحنا نسهر الليل بطوله نتبادل الاحاديث الطويلة...كان شتاء قاسيا ...شديد البرودة لذا كنا نتجنب صباحاته الباردة وننهض في لياليه الدافئة محاولين تناسي صقيعه وجموده...

كم يشبهنا هذا الليل...وكم يشبهنا هذا الشهر في ثباته ...في صبره وتجلده وتحمله واصراره على البقاء...

انه الرمق الاخير من السنة...سندخل بعد ايام سنة جديدة ستشهد نجاحنا بعد عناء طويل وصبر شديد.

عطلة ديسمبر /الكريسماس

صباحا...رن هاتفها فاجابت: الو

قال: اتصلت بك صباحا عدة مرات ولم تجيبي أين كنت؟

لم اكن في البيت كنت في سوق نابل أتسوق مع والدتي ومن ثم ذهبت إلى المغازة العامة هنا في الحمامات لأشتري بعض الشوكولا وبعض الزينة لارصع بها شجرة الصنبور في زاوية البيت .

والله ستذهبين عقلي يا فتاة !

لماذا؟

تذهبين إلى جامع الزيتونة للصلاة ثم تزينين شجرة عيد الميلاد وتحتفين بالكريسماس؟! بأي شيء تراك تؤمنين؟

ألم اقل لك ان لا أحد بامكانه ان يفهمني ...لم تفهم طريقتي في الحياة بعد رغم كل الوقت الذي قضيناه سويا....اسمعني جيدا أنا أحب هذا اليوم وهذا الإحتفال لا لأنني أحب التشبه بالمسيحيين ولا من باب التقليد ...انني فقط أحب ان أتذكر الشام عبر هذه الزينة التي أضعها في البيت...حين كنت صغيرة كنت كل ديسمبر اجوب شوارع الشام مع والداي وتكون دمشق مغطاة بالابيض ومرصعة بالزينة الجميلة والاضواء التي تبعث على الدفئ...انه الحنين لا غير .

حسنا فهمت لا تنزعجي عزيزتي أنا لست ألومك ...افعلي ما يحلو لك فقط كوني سعيدة بوقتك! اسمعي حين تصلين الى البيت افتحي مكالمة الفيديو بالميسنجر أريد رؤيتك .

حسنا سأفعل .

عادت إلى البيت...وضعت اللوازم التي اشترتها في المطبخ لأمها...دخلت الى غرفتها وجلست على سريرها وفتحت مكالمة الفيديو واخذها يريها غرفته بكل تفاصيلها وهو يدور حول نفسه واقفا في المكان ذاته قالت له بشغف كبير :اشتقت الى رؤية اغراضك واشيائك ...الى كتبك المبعثرة وثيابك المكدسة والى علم فلسطين .

وأنا؟

مابك؟

ألم تشتاقي الي؟ اقصد الم تشتاقي الى شعري المجعد .

ضحكت وقالت: انه اكثر شيء اشتقت إليه فيك .

جميل.

وماذا عنك؟ ألا تشعر بالحنين الي؟

طبعاً ولو! ومن اتصل بصاحبه؟ !

محق صدقني اشعر شوق شديد اليك والى كل الأصدقاء ولكنني لم اقدر على المجيء الى العاصمة لم يكن بإمكاني الكذب على والدتي بحجة المذاكرة مع صديقاتي لأنها تعرف انني أحبذ المذاكرة لوحدي...اظن أنني فتاة لا يمكنها المخاطرة..

اذا كنت لا استحق المخاطرة فلا تتعبي نفسك من اجل اختلاق لقاء بيننا بكل الأحوال سننتظر نهاية العطلة والعودة الى الكلية.
لا تغضب صلاح لم اكن اقصد هذا...لكنني لا أحبذ الكذب على والدتي من اجلك.
ولماذا لا تصارحينها بالحقيقة؟
اي حقيقة؟ تقصد ان أقول لها أنني اتية الى العاصمة لاجل رؤيتك ؟ لا هل تمزح؟
ولم لا؟
فكرة جميلة تخيل ان ادخل عليها في المطبخ وبكل بساطة أقول لها أنا ذاهبة للقاء أحد زملائي كي نجوب شوارع العاصمة سويا واحدثه عن سوريا ويحدثني عن فلسطين.
ألم تقولي لي ان امك دمشقية وأن الدمشقيين هم أكثر من يقدرون الحب ويتقنونه؟
اجل لكنهم محافظون اقصد ان امي محافظة ولن تقبل بهذا.
عزيزتي اننا لم نعد في زمن يختار فيه اباؤنا وامهاتنا من سنتزوج اذا فالخيارات أمامنا متعددة وعلينا ان نعرف الكثيرات وان تعرفن الكثيرين كي نصل الى الشريك الملائم لنا في الحياة.
عزيزي أنت لست في اوروبا...ربما جيلنا يفكر بهذه الطريقة لكن جيلهم ليس كذلك اذا لا تنتظر منهم ان يأخذوا الأمور بصفة عادية.
اذا ما الحل لكي اراك؟
الحل ان تنتظر حتى نهاية الاسبوع أي دخول العام القادم.
هل تسخرين مني؟
ضحكت قائلة: هيا لا تغضب صلاح...سنلتقي في اول ايام الامتحان صدقني لا يمكنني المجيء الآن.
حسنا سأنتظر.

أدرس جيداً.
وأنت أيضاً وتنتبهي لنفسك...كل عام وأنت بخير..باي.

-12-

انتهت المحاضرة ...كانت بصدد مغادرة القاعة مع زميلاتها اللاتي اقترحت الذهاب إلى المشرب لشرب قهوة ساخنة... في الباب المواجه للحديقة رأته يجلس برفقة زملائه في الدائرة التي تتوسط الساحة.... قالت : فتيات لقد نسيت شيئا مهما اسبقنني وسألحق بكن....ثم تركتهن وتظاهرت بالذهاب الى المكتبة وبعد تأكدها من دخولهن البوڤيت اتجهت نحو كرسيه حيث كان يجلس بمعطفه الأسود ويدخن وسط الجالسين من حوله...دخلت بينهم وقالت بابتسامة مرحبا صلاح كيف انت!

نظر إليها بابتسامته العريضة كالعادة:

يا هلا بانغام.

كيف أنت صديقي؟

الحمدلله شنحوالك؟

أنا بخير.

اريدك في شيء.

حسنا ...عن اذنكم شباب.

ما بك انغام ؟ بأي شيء تريدينني؟

لا شيء اشتقت اليك لا غير مارأيك ان نجلس سويا في المكتبة؟!

حسنا هيا.

وضعت الكتب الى جانبها على الطاولة وأخذت تتأمله بينما وضع دفاتره قبالته واخذ يقرأها.

رفع رأسه فوجدها تتأمله:

صلاح لم تقل لي ماذا ستختار حين ننجح؟ هل ستدرس القانون العام أم الخاص؟

اظن أنني سأدرس القانون العام.

حقا ؟! وأنا كذلك...ولم تريده؟

أقول لنفسي احيانا لماذا لا أعمل في السفارة الفلسطينية في تونس بعد اتمام دراستي بما أنني فلسطيني فبأمكاني ان تمثل دولتي هنا.

جيد فكرة جميلة! هذا أفضل من المحاماة... جيد ان تمثل بلادك في العالم.

اجل أريد ذلك...هذا اكثر ما يشغلني...لذلك أريد ان أدرس القانون العام.

أنا أريد أن أحصل على اجازة في القانون العام ثم على ماجستير في العلاقات الدولية.

جميل...سأسعد كثيرا لو أننا ندرس سنة أخرى سويا.

حقا؟ ولم ستسعد.

انت صديقة ظريفة وحلوة وصادقة ونقية من الداخل.

هل أنا كل هؤلاء؟!

اجل ولم لا.... صدقيني أنت انقى بنات هذه الكلية.

حقا؟ وكيف ذلك؟
انت واضحة ..غير متكلفة ولا منافقة.
عزيزي المشكلة ليست في بنات هذه الكلية...انها تركيبة شعب بأكمله..هل تعرف تلك القولة الشهيرة لابن خلدون "اذا دخلت افريقية وافق أو نافق أو هاجر البلاد"
لا لم اسمعها من قبل.
اذا عليك ان تتقن كيف تعيش اذا أتيت الى هذه البلاد.... ثم ان الطبقة البورجوازية هكذا يعيشون...بالابتسامات الصفراء...بالكلمات بالباردة...بالنفاق والكذب والخداع والمجاملات....

هكذا يمضي اليوم وتبقى علاقاتهم في سلام واستقرار...كم كرهت هذا المكان...يكفيني الرسوب ...

لست أملك وقتا للعلاقات الاجتماعية الفاشلة ...احمد الله انك هنا... أنت النقاء وسط كل هذا التصنع...يسعدني وجودك... انه يضفي التوازن على حياتي المتأرجحة بين التعاسة والفشل.
هل وجودي يفعل كل هذا بك؟
اجل.

-13-

كان الربيع مختلفا هذه السنة...

بإمكاني القول انه كان افضل من ربيع السنة الماضية بالنسبة لها..كانت احسن حالا بالقرب اليه...

مرت عطلة شهر اذار .. كان شهر نيسان شهرا للامل والحب بإمتياز... اضحت الحديقة جميلة جدا ...اخضر اخضرارا واكثر ورودا واكثر جمالا وكأنها كانت على اتم الاستعداد للقاء الربيع الذي يصنع بهجتها.... كنت جالسا على كرسي في الحديقة بينما ذهبت أنا الى الباب الأزرق الخلفي للمكتبة والذي كانت القطة بية تخبئ اولادها خلفه في كل مرة تلد بالإضافة إلى انه كان مكان نومها في كل ليلة...أخذت اداعبها واداعب اولادها الصغار ...كانوا جميلين جدا... بجمالها أو اكثر...

كنت تناديني فقلت لك : انتظر لحظة سآتي ...تركت ذاك الصغير من يدي واتيت اليك ركضا

وقلت: لقد ولدت بية وانجبت أربع قطط صغار جميلين ما اجملهم وما أجمل الربيع ...انه أجمل ربيع اعيشه في حياتي.

لماذا؟

لا ادري ربما لأن القدر كتب لي ان يكون ربيعي هذا هو الأجمل في حياتي.

لم تفهمي قصدي....كنت أرمي الى التساؤل ما الذي جعله منه ربيعك الاجمل؟

انه قلبي.

قلبك؟ وكيف ذلك؟!

قلبي يرفرف يا صلاح....انه يغمرني بشعور جميل جداً لا اكاد أطيق احتماله بين ضلوعي انه اقوى من قدرتي على التحمل....اشعر ان شيئا ما يجعل ايامي هذه سعيدة على غير العادة ..ليست كالايام الرتيبة المعتادة التي كنت احياها سابقا.

ما الامر؟

لا ادري لا أريد ان افسد سعادتي بالاسئلة ...أريد ان اعيشها لا غير.

-14-

سلّمت انغام ورقة الامتحان الى المراقب ووقعت على خروجها ثم غادرت القاعة..اغلقت الباب واتجهت الى الكرسي المقابل في الحديقة وجلست تنتظر...بعد دقائق رأته يغلق الباب فنادته ليأتي ...قالت له:

- كيف كان الفحص؟
- جيد
- أي موضوع اخترت؟
- الموضوع الاول
- حقا؟وانا ايضا
- ايمتين راح ننجح ونصير تخرج ونرتاح
- يلا هانت يا غالي ما ضل شي ...انت صايم؟
- نعم صايم
- وانا كمان صايمة
- هل ستذهبين الى المبيت ؟
- لا لا اريد العودة الى البيت ثم انه يوم غد السبت وليس لدينا فحص انا سأذهب للتسكع قليلا للأقصر الوقت حتى اذان المغرب
- هل ستذهبين بمفردك؟
- لا اعلم..ربما انتظر احداهن لتأتي معي.
- وماذا اذا قلت لك انني سارافقك هل تقبلين؟
- اجل طبعا يال هذا الخبر هيا اسرع لنأخذ المترو رقم 2 ثم نذهب من الباساج الى ال TGM ونأخذ القطار
- لا لن تتعبي من مترو لمترو
- ماذا تقصد؟ كيف سنذهب اذا لم نركب المترو؟
- من جميل الصدف ربما انني اكتريت سيارة لمدة يومين اليوم صباحا لانني اتفقت مع الشباب للذهاب في رحلة خارد العاصمة غدا للافطار بعيدا عن البيت
- جميل

هيا فلنذهب غادرا الكلية واتجها نحو السيارة المركونة قرب محطة الحافلات...فتح الباب وركب وصعدت بجانبه ...التفت اليها مبتسما:

- الى اين تريدين الذهاب؟
- اشعر انني ارغب في رؤية البحر...ما رأيك ان نذهب للمرسى؟ ونجلس على الشاطئ حتى الغروب؟

حاضر لنذهب الى المرسى اذا اتجه الى طريق المرسى مسرعا مركز النظر امامه بينما كانت هي ترمقه مبتسمة بشغف قالت له:

انت ليش عم تعمل هيك كرمالي؟ التفت اليها مستغربا:

- ايش عم اعمل ما فهمت
- ليش عطول عم تلبيلي طلباتي وعم تحب تسعدني؟انا كل هالقد بعنيلك كتير؟
- والله انتي غالية كتير وغير هيك انتي غيرهن كلن بالنسبة الي
- شلون يعني غيرهن كلن
- هل تريدين الحقيقة؟
- طبعا وهل اريد الكذب؟
- انت الوحيد من بين كل من عرفتهن في حياتي التي اقتحمتني وحولت ايامي اليالية الى مرح وسعادة وانشراح انت انستني غربتي ووحدتي هنا وجعلتني اعيش في وطن احبه لم يعد يمثل لي ارضا بعيدة عني لا اعرفها انت قربتني من فلسطين انت اسعدتني ودللتني وانا ممتن لك صدقيني انت اغلى فتاة على قلبي واقربهن الى في تلك الكلية برمتها
- هلق انا عملت فيك كل هالشي؟
- مو انتي بدك الصراحة؟
- طبعا الصراحة لكن بدي الكزب ؟
- انت وحدك من اقتحمتمني وكنت منذ زمن طويل ابحث عمن تقتحمني وتدخل الى حياتي دون استئذان دون سابق انذار فتملأ وقتي الذي طغى عليه الجمود والفراغ اعترف انك الربيع وحدك من لونت حياتي
- جميل
- الا تصدقينني؟
- بلى لكنك فاجأتني بكلامك هذا
- لماذا؟
- لانني اراك دوما مع بنات كثيرات لا يمكنني عدّهن من كثرتهن
- وهل هذا يعني ان لكثرة عددهن علي ان احبهن؟
- لا لكن على الاقل تحب واحدة منهن
- وهل هذا بالضرورة؟
- لا طبعا لم اقل ذلك
- لكنني لم اتعرف اليك منذ فترة طويلة حتى اقدر على فعل كل هذا
- وها قد قدرت انت قوية ولكنك لا تملكين ثقة كافية للاعتراف بذلك

صمتت ونظرت اليه مليا ثم تأرجحت على الكرسي فخفضت رأسها ومدت قدميها واخذت وضعية مريحة تنظر اليها وابتسم وساد بينهما الصمت تحت سقف السيارة بعد دقائق وصلا الى مدينة المرسى ...قالت له:

- هل تعرف الطريق الى البحر ام ادلّك؟
- بلى اعرفه لقد اتيت الى هذه المدينة مرات عدة
- جيد انا لدي عمة تعيش هنا
- حقا؟ جميل

نزل الى المنحدر المؤدي الى االشاطئ وركن السيارة الى الرصيف فنزلت مسرعة وقفزت من على السور المنخفض الذي امامها وتوغلت في الرمال ركضا ووقفت على حافة الماء بعد ان نزعت

حذاءها وتركت الامواج تتلاحق لتقبيل قدميها...لحق بها ثم وقف حذوها وهو ينظر الى الافق الممتد خلف المياه قالت له:

- كم اشتقت لرؤية البحر اخيرا نحن خارج اسوار ذلك السجن
- أي سجن؟
- وهل هناك سجن اخر غير الكلية ؟

وضحك طويلا بينما بقيت هي تنظر اليه بلهفة ....اخذت بالضحك مثله فقال:

- تحررنا اخيرا هيا اجلسي
- اتعلم اشعر بسعادة عارمة منذ اشهرلم اجلس امام البحر حتى عندما اعود في كل نهاية اسبوع الى الحمامات لا اجد الوقت الكافي كي اذهب الى الشاطئ او اقضي وقتا هناك حتى اصبحت اشعر بالضيق ...اشعر بالاختناق كلما قضيت وقتا طويلا لا ارى فيه البحر او لا اجلس قبالته كم اشتقت اليه.
- دوما نشعر بالاختناق كلما ابتعدنا عن المكان الذي نحبه ونحس في كنفه بالراحة انت لم تجربي الاغتراب ماذا لو بقيتثلاث سنوات لم تري اهلك ولم تجوبي شوارع مدينتك؟
- سلامة قلبك حبيبي صدقني حاسة فيك انا بختنق كل اسبوع ما برجع فيه على بيتي او بشوف فيه اهلي بس الحمدلله عندك رفقات حلوين بتتصبر فيون بتعرف شو؟ كتير ظريف رفيقك لي عرفتني عليه المرة الماضية
- اتقصدين صديقي انس الذي جاء معي الى الكلية في المرة الماضية
- اجل اظنه هو لا اذكر اسمه
- بلى هو انس اصدقائي الفلسطينيين اللذين يقيمون برفقتي في تونس جميلون نحن هنا نحاول ان نكون اسرة واحدة ان نكون اهلا لبعضنا كي ننسى اننا تركنا خلفنا اهلنا بعيدا عنا ....كتب على ابناء ارضنا ان يبقوا لاجئين اينما حلوا
- تذكرني برواية جميلة قرأتها
- ما اسمها؟
- انها رماد الشرق

اخذت الكتاب من حقيبتها وارته اياه

- ارأيت هذا المجلد؟ انه الجزء الاول اكملته منذ مدة مقدمته جميلة جدا تحكي عن قصة حب بين موسيقي وفتاته اراد ان يؤلف معزوفة تجسد احداث الشرق في المائة عام الاخيرة بين الثورة العربية الكبرى واحداث عام 2011 وكانت هي برفقته لمساعدته لكن قبل كل ذلك ارادت ميترا الاحتفاء بعيد ميلاد حبيبها "جاز" فأخذته الى مطعم ارجنتيني في نيويورك ورقصت واياه التانغو...يقول الكاتب:"كانت مثل نجمة في سماء واسعة لباسها الاحمر وكعبها الطويل زادا من شموخها وحضورها مدت له يدها اليمنى فاحتضنها في عمق يده اليسرى كعصفور هارب وعندما قبضت قليلا بيدها اليسرى على ذراعه الايمن كان يمد هو كفه مفتوحة عن اخرها على ظهرها العاري سحبها قليلا نحوه عطرها الساخر يورث حالة من الرعشة والدوخة شعر بها قريبة منه اكثر من أي زمن مضى كانت دائما تنزلق من كفه بين اصابعه كالضوء الهارب كالشعر كالكلمات "...ثم اخذ يصف رقصتها معه فيقول"ترتمي باتجاهه كالورقة ثم تلتصق به

بعنف وجها لوجه العين في العين وفمها يكاد يلامس شفتيه...تلتفت قليلا صوب اليمين وكأنها ترفض ان تستسلم للشهوة التي غزت جسدها تتمنعى بنظرة عينيه الحادتين تلتفت نحو الضوء وتغرق في تداخلاتها واشعاعاتها يشد على خصرها يتذكر قسوة كارمن ويتبعثر شعرها وراءها كشلالات لا متناهية تبرق بالاف التموجات التي كانت تتناغم مع الموسيقى المنبعثة بشكل مضخم من رواية المطعم..ثم يكمل الكاتب فيقول"اليد في اليد والعين في العين والفم يكاد يلامس شفتيها تتوحد بجاز الى درجة احس بانضغاط نهديها على صدره وسمع دقات قلبها التي كانت تتسارع بقوة كبيرة ثم التصقت بكامل جسده وتداخلت سيقانهما عندما اشتعلت الاضواء من جديد أشرق وجهها بالنور وامتلأت عيناها بالرغبة الحية والاشواق وشوشت في اذنه كانت ممتلئة به...سألته:ما رأيك؟"فلم يجد حبيبها ميترا ما يقوله أتدري ماذا قالت لها؟...اجاب صلاح: ماذا؟ فواصلت انغام القراءة""هل تعرف كم احبك؟ولكنك طبعا لا تعرف ! ثم قالت:احبك ولا ادري كم يلزمني من الوقت لكي اعرف ان لك عالمك الذي علي ان اتعود : عليه عندما يسرقك مني لك مزاجك الذي احب جنونه ولكنه يؤذيني كم يلزمني من الوقت لاشبع منك اذن؟"فقال لها هل بقي ما اطلبه؟ قالت:طبعا اطلبني انا !"

قال صلاح: الله الله ما هذه القصة الجميلة اكملي.

"ثم تغني له سنة حلوة يا جميل فيسألها: ميترا ماذا فعلت بي؟فتجيبه:هذه طريقتي للاحتفاء بك حبيبي كل سنة وانت رائع وشامخ...ثم ترفع صوتها وتقول للحضور:اسمحوا لي ان اكون انانية قليلا قلبي يخفق الان لحبيبي جاز الذي عجنته نيويورك بحبها وحريتها وجنونها ومائها وجسورها وحرائقها مسكون بهذه المدينة."ويقول الكاتب ايضا:"ثم رفعت يدها وكأنها تطلب من الحضور الصمت الكلي الصمت الذي يشبه الموت او دهشة اكتشاف الحياة الاولى وضعت القبضة على الكمان ثم سحبت بهدوء وبحركة انسيابية تكاد لا تسمع على الخيط الاول فخرج الصوت نقيا وصافيا وعذبا تحركت اصابعها قليلا لتضغط اكثر على الخيط تحرره من ترده وبدا كأن للحزن لونا وصوتا وحياة ثم بدأ يتداخل على ريتم هادئ يستدعي بحنينه حياة مضت في البحث عن انكسار الروح"

كان صلاح يتابعها بتأمل :ثم ماذا اكملي

- ثم بعد العزف يغادران المطعم نحو البحر وامام تمثال الحرية تقول له ميترا:"كم اشتهي الا اتكلم فيجيبها: امام رعشة الاشياء الجميلة كل شيء حي يتكلم فينا حواسنا اجسادنا غيابنا اكلي عن المكان ذاكرتنا المتعبة الاكثر عجزا في هذه الحالات هو اللسان لا يجد لغته الاعتيادية فتقول له:ياه يا جاز ما اجمل قلبك ماذا افعل لكي تبقى دوما هنا؟ هنا بالضبط حيث لا ينافسك الا الشوق المتزايد اليك والحنين زالحب الذي يرتعش كلما سمع اسمك هل تتصور مكانك بالضبط في؟ يواصل الكاتب:"تكمشت ودخلت اكثر داخل المعطف الخشن كقطة بينما كانت اصداء الاناشيد الغيغورية القادمة من إليس آيلند تملاها وتخترقها بقوة ذاكرتها عندما التفت جاز نحو اضواء إليس آيلند الخضراء التي تتداخل مع لون البحر وكتل الضباب التي تغمرها بان له وجهها صافيا كحرير القدس" ثم تقول هي"هنا بالضبط حيث لا حياة الا انت" ثم حاولت ان تغفو على صدره وهما في انتظار اولى علامات فجر نيويورك.
- كم هي رائعة هذه القصة
- صدقني لم اتعلق في حياتي كلها بكتاب كتعلقي بهذا الكتاب ..لقد ابدع الكاتب في الحديث عن دمشق مدينة قلبي وعن احزانها وسوادها الذي الذي ارتدته ايام شنق خيرة شبابها على يد الاتراك بأمر من جمال باشا ايام الثورة العربية الكبرى.

- ولمن هذا الكتاب؟
- انه للجزائري العظيم واسيني الاعرج حقا لقد ابدع في هذا العمل المؤلف من جزئين جزءه الاول يتحدث فيه عن دمشق والثاني عن القدس لكن للامانة فإن الحزء الاول احلى.
- والله؟ ! لا انا بتوقع انو الثاني احلى لانو عم يحكي عن بلدي.
- أي هاد رأيك انت بس انت ليش تارك فلسطين وجاي على تونس؟اتعرف انني لو ما صارت الحرب بسوريا لكنت الان في كلية من كليات دمشق وانت تركت فلسطين واتيت الى هنا اليس لديكم كليات حقوق هناك؟حقا انت مجنون !
- ربما اتيت الى هنا لاجلك كي اعرفك
- كي تعرفني؟
- اجل فإن لم آتي الى هنا لما كنت تعرفت اليك اليس هذا لوحده سبب كاف يجعلني اتي الى تونس؟
- لا اظنه كذلك...لانني لا اشبه الفلسطينيات في شيء لا اظن انك ستجد في الفتاة التي تحلم بها والتي تحمل معك القضية بقية حياتها وتعيش مسكونة بحارات القدس ولوز حيفا وبرتقال ارحيا وشواطئ غزة
- لم افهم
- يعني بالقلم نشرح مارح تصحى الصبح وتسمع مني "ايش حالك اليوم يا حصتي فيقٌ"
- ماشي

وقف غاضبا واخذ ينفض ما علق ببنطاله من حبيبات رمل واتجه نحو السيارة ثم وقف جامدا دون ان يتحرك على الاطلاق...بقيت تنظر اليه عن بعد ثم ذهبت اليه وضعت يدها اليسرى على كتفه الايمن وقالت له:"شو بك ؟ عصبت؟"

جاءها دون ان يلتفت اليها

"لم اطلب اليك ان تشبهي احدا "

ثم التفت اليها ووضع وجهها بين يديه وداعب خديها بأنامله وابتسم لها قائلا"كوني انت فقط وساحبك دوما"

قالت له" لم اكن اريدك ان تغضب...خلص امرك على راسي يا تاج راسي يلا نروح بقا"

"لوين"

"مابقا كتير ليأذن المغرب لازم نروح نلحق عشي طاولة بشي مطعم"

"الى أي مطعم سنذهب؟"

"هناك مطعم في المنزه السادس يدعى "دار فاطمة" ما رأيك ان آخذك اليه؟ انه يقدم افطارا كاملا يوميا في رمضان للصائمين يعني انك ستشعر وكأنك تجلس الى المائدة في بيتك وتتناول طبخ والدتك ما رأيك؟"

"جيد"

"اذن سأقود السيارة لانني من يعرف الطريق"

ناولها المفاتيح وقال"تفضلي"

ركبت السيارة وغادرت واياه باتجاه المنزه...كان الطريق الى المطعم خاليا من السيارات و المارة وكل المحلات قد اغلقت وبدت المدينة وكأنها خالية من السكان وكأن الناس جميعا قد غادروها ...

زادت في سرعة السيارة حتى بدت وكأنها تطير فوق الارض ولا تطأها ...

غربت الشمس والكل كان مهرولا نحو المساجد والجوامع للصلاة او مسرعا بالعودة الى البيت ...

وصلت الى المطعم وتوقفت ثم التفتت اليه مبتسمة :"مارأيك؟"

- لم ارى شيئا بعد
- اعلم لكن ما انطباعك من الخارج؟
- يبدو مطعما جميلا لكنه يبدو كذلك باهضا هل ترانا نقدر على الافطار هنا؟

- طبعا لا تقلق من ناحية المال ابدا حسبت حساب ذلك هيا بنا

دخلا سويا من الباب البلوري الذي فتح تلقائيا بمجرد اقترابهما ...

تراجع خطوة الى الوراء ليسمح لها بالدخول وقال مبتسما :

- تفضلي يا اميرة
- شكرا يا اميري

انتقيا الطاولة اليمنى قبالة الواجهة البلورية المطلة على سلات متعددة من النباتات الخضراء والزهور الملونة ...

جاء النادل يسألهماعن طلبهما

فطلبت انغام "الشربة"و"المعكرونة"و"السلطة المشوية"و"الصحن التونسي"و"سلطة الخضراوات"....

حين ارتفع صوت اذان المغرب مد صلاح يداه واخذ بالدعاء "اللهم بك امنت ولك صمت وعلى رزقك افطرت وعليك توكلت واليك انبت ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الاجر انشاء اللله" ثم اخذ كل منهما الكأس البلوري الممتلأ بالماء امامه وشرب ...

نظرت مبتسمة وقالت"صحة شريبتك صديقي انشاالله يعجبك الافطار معايا"

قال"تهنى لو مايعجبنيش ماجيتش" اخذت تمرة من الصحن قبالتها وقالت له"كل هذه من يدي" ففتح فاهه بينما ادخلتها في فمه وهي تنظر الى شفتيه الرقيقتين ...

بينما اتى النادل بوعائين مملوئين بالحساء فسحبت يديها سريعا وقالت له"شكرا جزيلا سلمت يداك" قال"صحة شريبتكم صيام مقبول وشاهية طيبة"

فقالا"يعطيك الصحة يا عيشك" واخذا يتناولان وجبة الافطار اكلة تلو الاكلة وبعد ان افرغا كل الصحون التي كانت امامهما ولم يتركا فيها شيئا من الاكل نظر اليها قائلا"الم تلاحظي؟ "

قالت "ماذا؟"

"لم نترك شيئا في الصحون سيقول اصحاب المطعم اننا شرهين وجائعين"

قالت"على العكس سيشكروننا لاننا وفرنا عليهم رمي الطعام في الزبالة وارجعنا اليهم صحونا نظيفة لا يحتاجون لغسلها"

فضحك بشدة وقال"محقة لم افكر في هذا"

وضعت يديها تحت ذقنها بعد ان مسحت شفتيها المبللتين بالمنديل الابيض ووضعت امامها تحت الصحن قائلة "والان؟"

قال"والان ماذا؟"

قالت"الحمدلله اكلنا وشبعنا"

قال "ونعم الكريم"

قالت"ماذا عن القهوة؟ اين تريد ان نشربها انبقى هنا؟ هذا المطعم يقدم مشروبات وحلويات ويحيي سهرات رمضانية بامكاننا ان نبقى هنا حتى وقت السحور فما رأيك القرار لك"

قال"بصراحة افضل ان نغادر"

قالت"وانا افضل ذلك ايضا ساذهب لادفع الحساب"

قال"انتظري لحظة" .....سحب النقود باصبعيه ونظر اليها قائلا"هذا ما املك من نقود سأدفع نصف المبلغ وانت ادفعي النصف الاخر ألا تحبين العدل وتريدين ان تكوني عادلة؟ خذي هذه الاموال كي تكون قسمة ضيزى"

قالت "احب ان اكون كذلك لكنني انا من استضفتك على هذه المائدة ولن اقبل بذلك"

قال"ولكن الفاتورة باهضة كي تدفعي لوحدك"

قالت"ولكنك ضيفي والضيف لا يدفع مالا"

قال"لن اقبل بإكمال السهرة برفقتك ان لم تأخذيها هذا نصف المبلغ اكملي النصف "

قالت"صلاح"
قال"انغام خذي"
"حسنا كما تشاء"

ذهبت نحو آلة الدفع التي جلس امامها احد عمال المطعم مبتسما ومرحبا وداعيا اياها للعودة من جديد شكرته واتجهت نحو الحمام يمينا وخرجت بعد دقيقتين وقد اصلحت تسريحتها واعادت حمرتها ورتبت هندامها وكثفت عطرها الذي بدا ريحه في تخاليج صدره منذ اقتربت الى الطاولة ومرت يدها نحوه ليغادرا ركبا السيارة سويا وانطلقت به صامتة سأله:

- لم تقولي لي الى اين تأخذينني ؟ اين سنواصل السهرة؟
- لن تعرف حتى نصل الى هناك
- ولكن قولي لي
- لا الان استمتع بالطريق وبعد قليل سترى

بعد فترة قصيرة وبعد ان إمتلا الطريق بالسيارات واكتظ بالمترجلين المتجهين نحو المقاهي او نحو المساجد لصلاة التراويح لاحظ انها وصلت الى قلب العاصمة واخذت الاتجاه نحوساحة القصبة قال:

- هل ستأخذينني الى المدينة؟
- وكيف عرفت؟
- عزيزتي انا اعيش هنا منذ 3 سنوات تخالينني لا اعرف الطرقات والانهج؟
- حسنا برافو ها قد علمت بصراحة انا لا احب مكانا اخر في الدنيا مثلما احب المدينة العتيقة ولذلك ارغب دوما في ان اذهب اليها مع كل اللذين احبهم
- وهل انا منهم؟
- من؟
- اللذين تحبينهم؟

قالت مبتسمة:خبيث !انت قريب من القلبوحياتك

وصلت بالسيارة الى كلية العلوم الانسانية 9 افريل وركنت السيارة في المأوى المخصص وقالت :

- هيا يا عزيزي ستشرب الليلة احلى قهوة عربية ذقتها في حياتك كلها.
- انتبهي هذا الطريق خطر
- لا تقلق انا متعودة عليه امسك يدي

قطعا الطريق وأخذا بالنزول في المنحدر نحو ساحة القصبة وعبرا قصر الحكومة ووزارة المالية ثم دخلا نهج سيدي بن عروس واتجها نحو سوق الصوف وسوق اللفة ودخلا سوق النحاس ثم انعطفا يمينا وسط محلات بيع المقروض التي داهمهما فيها البائعون بقطعة المقروض يمينا ويسارا كعادتهم مع كل العابرين ثم انعطفا يمينا وجلسا في "مقهى الياسمين" القريبة من "قهوة العنبة"العتيقة واحتسيا فنجانين من القهوة العربية بينما طلب هو "النرجيلة" اخذت انغام الرشفة الاولى من الفنجان الابيض الصغير الذي انبعثت منه رائحة الزهر العبقة ثم قالت له مبتسمة :

- متى سننام الليلة بعد هذه القهوة؟
- عادي غدا السبت ولا فحوص لدينا
- اتعلم؟رائحة النرجيلة لعبت بعقلي هل لي بنفس صغير؟
- طبعا عزيزتي

اخذت نفسا عميقا ونفثته في الهواء بعد ان رفعت رأسها عاليا وكررت العملية مرتين ثم سعلت بشدة وقالت"خذ لم اعد اتحمل"

قال:صحة صحة سلامتك.

قالت:على قلبك ثم ابتسمت واضعة يدها على كتفه وقالت:اقترب

اقترب بأذنه من فمها ليستمع اليها وسط صخب اغاني المالوف التي تنبعث من المقهى قالت بهمس:

اتعلم انني الان اعيش احلى لحظات حياتي بجانبك ؟

حدق في عينيها وقال:

- وانا ايضا بتعرفي انو انتي بنت قعدتها حلوة وحكاياتا ظراف

- عنجد؟ شكرا من ذوقك.

وبعد ساعة من الجلوس في المقهى غادرا واقترحت انغام ان يجوب ازقة المدينة حتى السحور فوافق دخلا في انهج عديدة منها المضيئة والمظلمة تعثرت قدمه في حجر صغير قرب جامع الزيتونة قالت له:

- شو بك؟ شو كيّفت لحتى ما بقا عم تشوف قدامك من الزهزهة؟

(ضحك بشدة وقال):كيّفت بس مش من الاركيلة.

- لكن؟
- من القعدة معك
- اطمئن ستنسى رائحة الاركيلة وربما تنسى انني بجانبك ايضا
- لماذا؟
- لانك لن تشم عدا رائحة الياسمين والعنبر في الانهج التي سنعبرها سنأكل في طريقنا شيء للسحور ثم نعود لاريانة.
- حسنا موافق امسكي بيدي
- انها اجمل ليلة رمضانية في حياتي.

-16-

كان ظهر يوم السبت لحظة أفاقت على صوت رنة هاتفها وقالت"الو" دون ان ترى اسم المتصل فإذا به صوت امها قالت مندهشة:

- ماما؟ صباح الخير !
- هلق صباح الخير؟
- انا اسفة ماما سهرت مبارحه عم ذاكر لهيك ما صحيت
- عم تزاكري ما؟انتي ما بتستحي على دمك والا شو؟
- ليش؟
- ماقلتيلي بعد الفحص يوم الجمعة راح اركب فورا عالحمامات ومرق الويكاند معكن؟ ليش ضليتي في اريانة؟
- والله ما بعرف هيك صار معي لانو اغلب البنات ما رجعو على بيوت اهاليهن وضلو هون فأنا حبيت ضل معن لنذاكر سوا بتعرفي لسا في عنا فحصين يووم التنين والاربعاء
- ماشي كملي فحصك هلق بعدين حسابك على كزبك على امك
- ماما انا ما كزبت
- موفقة ادرسي منيح هاه باي

ماما اغلقت والدتها الهاتف بوجهها فاستغربت قائلة :

- ما بها؟ ماذا فعلت لها؟
- غادرت السرير الى الحمام ووقفت امام المرآة تربط شعرها ثم فتحت الحنفية وضربت وجهها بالماء عدة مرات ثم اخذت المنشفة من على يمينها وجففت وجهها وبمجرد دخولها الغرفة رن هاتفها امسكت به ونظرت الى الاسم"صلاح" ترجددت في الاجابة ثم قالت بزهو:
- لك يسعدلي هاليوم
- كيفك اليوم؟
- انت لي كيفك من بعد سهرة مبارح؟ لم يمضي في حياتي كلها قط كيوم البارحة بعد ان ظننت انني سأقدم الفحص واعود الى البيت لانام ولكنك فاجأتني بيوم جميل جدا احمد الله انني التقيتك
- تمام
- اعتذر انني اتعبتك لقد مشيت كثيرا في ازقتها وانهجها
- بالعكس استمتعت
- جميل المهم انك فرحت واستمتع
- طبعا قعدتك حلوة
- شكرا
- اتدرين لم اتصلت بك؟
- لا اخبرني
- في الحقيقة كنت متفقا مع اصدقائي على سهرة سويا اليوم لكنني اردت ان نقضي سهرة اخرى سويا كليلة البارحة واكون انا من يدعوك ما رأيك؟

- ارغب في ذلك لكن هل ستترك اصدقاءك لاجلي؟لا اريدك ان تفعل ذلك اذا كنت قد اتفقت معهم على سهرة فلا تتركهم لاجلي
- لا انا لن افعل ذلك بالاحرى قد اخبرتهم واعتذرت اليهم بحجة انني لم اؤمن سيارة المهم الان هل انت موافقة ؟
- نعم لكن ألن تحدث مشكلة؟
- لا لا عليك لا تقلقي من هالناحية
- صلاح احذر لا اريدك ان تغضب رفاقك من اجلي انا من ناحية وهم من ناحية اخرى لا تولي اهمية لاحدنا على حساب الاخبر بالنهاية انت عرفتهم قبلي
- ما هذا الذي تقولينه من قال لك ان هذا سيفضيهم ان كنت لا ترغبين قولي ذلك بصراحة والا فسأسحب انا طلبي جتى اريحك من التفكير
- لماذا غضبت ؟ خلاص انا موافقة
- حسنا سأمر على بيتك الليلة عند الثامنة والنصف أي بعد ساعة من الافطار هل يناسبك ذلك؟
- جيد جدا ستجدني في انتظارك

بعث لها بقبلة حارة من بين شفتيه ثم اغلق الخط....

شعرت بخفقان يسري في جسدها ورعشة تجتاح عروقها وتجعل بدنها يتعرق كإمرأة انهت للتو ممارسة الحب على سرير الزوجية!

لم تكد تصدق لوهلة أنه من اتصل بها واراد أن يقضي السهرة برفقتها ويترك رفاقه اللذين اكترى السيارة من اجلهم وهي التي خافت البارحة أن تطلب إليه مرافقتها الى البحر!

اي رجل هو؟

اتراه كان ينتظرها أم أنه يطيعها لينسى غربته لا اكثر! ويملأ وحدته وفراغ وقته ورتابة أيامه؟

اي طريق يسلكه تجاهها!

"حاذري يا انغام حاذري أن تصدقي نفسك قبل الوقت المطلوب" ...

كانت الثامنة والنصف وقد جهزت نفسها للقائه واسلمت نفسها للانتظار...

جلست على الكنابيه وساعة الحائط الدائرية الفاخرة قبالته تشير الثامنة وتسع وعشرون دقيقة ....اخذت تعد الثواني وقلبها يخفق حماسة وخوفا وارتباكا اين تراه يريد أن يشعر برفقتها؟!

توقف أمام البناية وضغط على المنبه الصوتي السيارة مرتين ...قفزت من الكنابيه نحو النافذه وأبعدت الستار الابيض الشفاف ونظرت مليا إلى واجهة البناية فرأت السيارة واقفة قبالتها...

تناولت حقيبة يدها البيضاء واحكمت اغلاق الباب الخشبي والآخر الحديدي جيدا ونزلت مسرعة ...

بدت له قادمة من باب البناية وقد تأنقت في فستانها الازرق المليء بالأزهار والورود الملونة وشعرها الكستنائي المجعد وقد وضعت حقيبتها على كتفها الأيمن وبدت اكثر طولا بحذائها ذو الكعب العالي الابيض اللون!

نظر إليها بشغف بدا على عينيه اللوزيتين بوضوح شديد!

فتحت باب السيارة وصعدت بجانبه وقالت له

"مساءالخير" دون أن تلتفت إليه فبقي ينظر إليها باستغراب

"شو مافي بوسة؟"

تأملت عينيه ففتح الضوء الذي في سقف السيارة قائلا"اريد رؤية عينيك الجميلتين اتعلمين كم تبدين جميلة بالكحل والحمرة ؟! لماذا لم تريني هذا الجمال في الكلية ؟!"

"لا احد في الكلية يستحق أن يراه أما عنك فبإمكانك ذلك فقط خارج أسوار الكلية"

"امرك يا خانوم وشو مشان البوسة؟"

"بلاها هلق بتخرب حمرتي وبيصير خدك احمر"

"ماشي براحتك"

"ماقلتلي وين راح تاخذني"

"راح تعرفي من الطريق"

غادر البناية واتجه نحو الطريق السريعة باتجاه الشمال بعد أن غادر المنزه السادس قالت له" ستأخذني الى المرسى؟"

"لا ليس هناك لكن الى مكان قريب جدا وأحبه كثيرا"

"سيدي بوسعيد؟"

"اجل"

"وانا احبه"

وصلا بعد قرابة الساعة وبعد طريق طويل ومكتضّ بالسيارات ونزلا بعد أن أوقف السيارة على الرصيف وامسك بيدها قائلا:

امسكي بي ولا تتركي يدي حتى نصل إلى المقهى.

لا تخف لن اهرب لا داعي لذلك ....قل لي الى اي مقهى سنذهب!

سنذهب الى القهوى العالية

"حقا؟"

"اجل الا تحبينها؟

لا انها جميلة بس اكيد معجوقة بكتير ناس وبريحة الاراكيل والدخان بعدين صغيرة وديقة ومافيا منظر حلو.

اقترحي مكانا اخر

أقترح مقهى بابا عزيزي المحاذية للسوق السياحي

اين هي؟

امسك بيدي وستعرف بعد حين.

قطعا الطريق مشيا على الاقدام بمحاذاة الجامع ثم صعدا مشيا إلى حديقة مقهى الدلاجي وصعدا الدرج ثم انعطفا يمينا نحو المقهى

قال وقد نظر إلى يساره مستغربا من الزحمة التي بدت فيها حتى أنه لم يستطع فرز كرسي فارغ من بين الكراسي الزرقاء المحجوزة جميعها قال "هل هذه هي؟"

قالت "أجل هذه هي... معي ستجد مكانا حتما لا تقلق"

ذهبا باتجاهها ثم جلسا في الزاوية اليمنى بالقرب من رجل وامرأة يحتسيان الشاي قالت له انظر امامك اترى هذه اللوحة من الأضواء عن بعد ما اجملها نقاط ضوء صغيره تتحرك اتعلم ماهي؟"

"ماهي ؟"

"انها السيارات التي في طريق قرطاج تبدو جلية من هنا "

"اجل اراها ....لم اظن أن المقهى بهذا الجمال "

قل لي الان هل اعجبك المكان؟"

"رائع اتعلمين؟"

قطع كلامه النادل الذي وقف أمامه بصرامة وقال بابتسامة خفيفة : "مرحبا بيكم وصحة شريبتكم "

قالت انغام يا عيشك كأسي شاي من فضلك

قال صلاح :وشيشة لو سمحت

قال النادل وهو يكتب على دفتره الصغير:حاضر

قال لها اني ارى كل هذا الضوء في عينيك ...عيناك بجمال هذا المشهد أو اجمل.

قالت: يا عيشك

قال:"انت حقا لا تدركين قيمة جمالك! اتعلمين انك قادرة على جعل اي احد يتعرف اليك يتعلق بك بسهولة تامة ؟ انت خبيرة في فعل ذلك"

"حقا؟ وكيف ذلك؟"

"لا أدري انت صاحبة السر ووحدك من تعرفين كيف تفعلين ذلك"

"صدقني لم يكن هدفي يوما ان اجعل أحدا يتعلق بي.... اتعلم ماهي امنيتي الوحيدة في هذا العالم؟"

"ماهي؟"

جاء النادل قائلا:تفضلا

قالا سويا:شكرا

ثم استطردت هي فقالت: اتمنى ان اعرف كيف اجعل الحظ يتعلق بي

ثم ضحكت مصفقة بيدها ورافعة قدمها اليمنى كعادتها دوما عندما تضحك فابتسم إليها متأملا عينيها:

يكفيك حظا أن تكوني بهذا الجمال

قالت:ربما انا جميلة فقد قرأت مرة منشورا على فيسبوك كتب فيه من "علامات الجمال أن يكون هاتفك ناقص شحن وحظك عاثر وأرقك مزمن على طول جوعان وعلى طول نايم"

ثم عادت فضحكت مصفقة بيدها ورافعة قدمها ثم وضعت يدها على فمها وشعرت انها كانت عفوية فوق القيمة :انشالله مايطردونا من القهوة اليوم ويبهدلونا قدام الناس.

" اضحكي بهذه الطريقة مرة أخرى وسنطرد بإذن الله."

تنهدت وقالت: "صدقني لم افرح يوما في حياتي كالناس ولا بشيء اريده.....صدقني لا حظ لي في الدراسة ولا في العمل ولا في الحب ولا حتى في الاصدقاء...كل صديقة اعرفها جيدا واتقرب إليها واؤمنها على اسراري واحبها من قلبي حتى اظن انها صارت صديقة حقيقية لي ...اندهش فجأة بأنني كنت مخدوعة بها وأن كل ما رأيته منها هو نفاق وخداع ...مشكلتي انني اتعلق بمن اعرفهم بسرعة ...لقد جرحت وخذلت كثيرا ونضجت وحاولت أن ادفع عني هذه الصفة السيئة ولذلك أصبحت أتجنب العلاقات والناس والمحادثات وحتى الكلمات اليومية الرتيبة البالية الروتينية بيني وبينهم ....لست مستعدة لاشخاص خطأ اكثر من هذا ....يكفي حقا فالقائمة لم تعد تحتمل أكثر من هذا."

"صدقيني كل ما تعانينه هذا هو لشدة جمالك كما قلت لك فالجميلون عادة لم يعطوا حظا للاسف فالله يعطينا شيئا على حساب شيء آخر دوما."

"جميلة؟ هناك فتيات اجمل مني"

" قصدت جمال الروح كروحك ليس هناك ارواح جميلة! صدقيني كل فتاة ستعرفك ستغار منك من اناقتك من ذوقك من كلماتك من اغرائك من حضورك من علمك من تفكيرك وثقافتك وحتى من جمال روحك وكل فتاة تغار من أخرى ليس باستطاعتها أن تبقى برفقتها لذلك تغادر سريعا ان الشعور بالنقص امامك قد تملكها والفتيات انانيات لا يطقن رؤية من هو افضل منهن"

"ما قصتك انت؟ منذ قليل قلت لي بامكان اي احد يعرفك أن يتعلق بك ببساطة والان تقول لي بامكان اي فتاة تصادفك أن تغار منك وتشعر بنقصها امامك؟انت تنمي في الشعور بالغرور! من انا ؟ في النهاية لست الا امرأة عادية تتمنى السعادة والسلام لا اكثر!"

"ربما يكون من يحلم بمنحك إياه قريبا منك جدا ....هناك كثيرون من حولنا يرغبون بنا دون درايتنا ويحلمون باسعادنا ونحن في غفلة عنهم ....هذا طبيعي فإما اننا منشغلون عنهم بحب غيرهم أو أنهم لم يجرؤوا على اقتحامنا وملأ فراغنا ولم يسعوا لأخذ مكان ما في حياتنا"

"انني احلم برؤية واحد فقط من هؤلاء اللذين تتحدث عنهم صدقني ....لا احد يهتم لامرنا ...نحن نقع ونقف ونبكي ونخاف ونحترق بمفردنا دون علم أحد او سؤال أحد عنا؟ بالله قلي على شو بدنا نكون ممنونين؟ عشنا كل لحظاتنا لوحدنا على ماذا سنشكرهم! لم يكن لهم وجود بتاتا "

"وانا؟ ماكانليش وجود؟ قوليلي؟"

نظرت اليه بابتسامة وقالت

"لا تخجلني"

"جاوبيني"

"احسن شي نتفرج عالنجوم ونسمع صوت الليل"

هبت نسمة باردة جعلت خصلات شعرها تتطاير أمام عينيها وجعلتها ترتعش بقشعريرة سرت في جسدها من رأسها حتى قدميها.

قالت وقد أمسكت ذراعيها بكفيها:اتعلم شيئا اشتهي الجلوس على البحر ماذا؟

البحر في طقس كهذا؟ الجو يبرد هيا فلنذهب الى السيارة مللت البقاء هنا

دفعا الحساب ثم نزلا في المنحدر حتى وصلا إلى السيارة وركباها قالت له"انطلق"

فالتفت إليها قائلا "هل حقا تريدين الذهاب الى البحر؟

اجل اتمنى ذلك لكن لا بأس سنذهب في المرة القادمة

ادار مفتاح السيارة وانطلق بها لينعطف يمينا نحو طريق العاصمة ثم إذا به ينعطف نحو الشمال.

قالت : ما بك؟ الى اين تأخذني؟

ستذهبين الى البحر الان لا داعي للتأجيل

"غير معقول! يا لك من مجنون !"

قال:وهل يمكن لمجنونة الا ان تكون لمجنون يشبهها

نزل سريعا إلى طريق الميناء المظلم الذي لم يكن يضيئه سوى فوانيس الرصيف البيضاء التي يتمشى على وقع ضوئها بضع عشاق أوقف السيارة وقال

هيا انزلي

نزلت بصمت مبتسمة وقد غمرتها سعادة هادئة لم تشعر بمثلها من قبل

وقفت امام المياه التي انعكس عليها نور القمر وأخذت تتأمل الموجات المتتالية التي طغى صوتها على المكان ووشوشات المارة...

اغلق السيارة وانزل قميصه بكلتا يديه وهو ينظر إليها شاردة الذهن امام المياه

جاءها من الخلف ووضع يده اليمنى ببطئ على خصرها المنحني والمشدود ارتعشت والتفتت إليه بدا وجهه قبالتها وعلى يسار وجهها تماما ...

اخذ بالاقتراب من شفتيها فانسحبت الى الخلف ...

قال:الا تشعرين بالبرد في هذا الجو أمام البحر اخاف عليك أن تمرضي لكن نزولا عند رغبتك وافقتك على المجيء إلى هنا

انني لا أخشى شيئا برفقتك حتى المرض والموت

"سلامتك بعيد الشر"

"متى اعود الى الحمامات حتى اذهب الى البحر كل يوم مللت البقاء في العاصمة ومللت الدراسة والمذاكرة! احتاج ان أتذكر أنني بشر ولست آلة خلقت للعمل والكد"

"احمدي الله ....انت ستعودين إلى أهلك وبيتك وبحرك اما عني فسأبقى الصائفة بطولها بمفردي"

"لست بمفردك اصدقاؤك اللذين تركتهم الليلة من اجلي وأغلقت هاتفك طوال السهرة كي لا يزعجوك هم أهلك هنا في تونس هيا اذهب واعتذر إليهم حالا قبل أن ينتقموا منك ويتركوك طوال الصائفة بمفردك"

"اراك أصبحت تحبين اصدقائي اكثر مني ما السر في ذلك؟"

"لاشيء سوى اني اريدك ان تبقى محبوبا من الجميع لا اريد لأحد أن يغضب منك ويتركك احاول أن اعلمك الدبلوماسية فأنت لا تتقن شيئا سوى إفساد علاقاتك بالجميع"

"لاجلك انت انا على استعداد لافسد علاقتي بالجميع"
ضحكت رافعة رأسها وماتزال يداها متشابكتان"وكيف ذلك؟"
"لا اعلم المهم انني سأفعل من اجلك كل شيء لأكون برفقتك ولنقضي اطول وقت معا"
"ياعيني انا سعيدة الحظ"
وضع يده على كتفها الأيمن وقال"هيا فلنتمشى قليلا حتى نصل إلى المقهى المقابل ثم نعود ونغادر"
"طيب"
"اتعلمين؟لو لم نكن في شهر رمضان المبارك وكلانا صائم وعلينا أن نتناول السحور لكنت سأبقى برفقتك حتى الرابعة صباحا ممددين على الرمل نتأمل البحر"
"ولماذا حتى الرابعة؟"
"كي نرى شروق الشمس سويا"
ولايزالان كذلك حتى شعر القطرات المطر تنزل على رأسيهما قالت مستغربة:
"غير معقول لقد بدأ المطر في الهطول هيا فلنعد سريعا"
"ما المشكلة في ذلك؟ دعينا نكمل طريقنا ونتمشى تحت المطر لعلها تطهرنا من الذنوب أيزعجك أن تتبللي؟"
"لا ابدا بالعكس احب شعور التبلل بالمطر....القطرات تنزل دافئة على جسدي وتشعرني برغبة في الارتماء في البحر"
"الان وهي تمطر؟"
"اجل... اجمل مافي الدنيا السباحة وهي تمطر.... قطرات المطر ستجعل المياه دافئة"
"صحيح ارأيت كيف نرغب في ذلك دون أن نمتلك الجرأة على القيام به فعلا مازلنا جبناء لم نمتلك القدرة بعد على الذهاب نحو احلامنا بشجاعة لتحقيقها"
"لا نمتلك جنونا كافيا لنستمتع بالحياة ....الحياة لا يستمتع بها إلا المجانين"
"ارأيت البرق الذي لاح خلف البحر الان"
"اجل رأيته وشعرت أنني في لحظة الشروق"

كان رفاقه الشباب مجتمعون في بيت انس يشربون مشروبات غازية ويأكلون الشيبس ويتشاركون تدخين نارجيلة واحدة في ما بينهم.... بينما ضغط على زر الجرس متحمسا

قال أنس لعنان راكلا إياه على قدمه
"هيا اذهب وافتح الباب بسرعة يا كسول
"ولماذا لا تذهب انت الا تراني ابعد ؟
قال عنان لاحمد :سيهزمني هذا الوحش يخرب بيتك لا لا تفعلها
قال أحمد:غووول
عنان:لعنك الله يا....الدنيا رمضان ولا يمكنني شتمك نيالك.
كرر صلاح رن الجرس ثلاث مرات ولم يفتح أحد فنادى بصوته"يلا يا شباب وينكو افتحوا الله يلعنكم
قال محمد:هاه هذا صلاح هل نفتح له؟
انس:لا انا لن افعل ذلك فهو لا يستحق
احمد:انا من رأيك الأفضل أن نتركه واقفا أمام الباب حتى الصباح كي يعرف قيمة رفاقه في المرة القادمة فلا يعدنا بسهرة في السيارة لليلتين ثم يغلق هاتفه ويختفي فجأة ماذا يظن نفسه
انس:معك حق دعوه يقف أمام الباب حتى الصباح كي يعتبر.

قال وسيم: فلنجعله عبرة لمن يعتبر يكذب علينا ويدعي انه لم يقدر على كراء السيارة ثم يذهب ويسهر مع البنات تفو عليه.

قال محمد:ما بالكم ماذا حصل لكم هذا صديقكم مهما فعل سيبقى كذلك ما بكم؟ انا سأذهب وافتح له.

انس:اذهب انت امّا عنا فلن نتحدث معه ابدا اسمعوا شباب لا احد منكم يرد عليه اذا تكلم.

ذهب محمد وفتح الباب صامتا ثم ابتعد وعاد فجلس على الكنابيه فدخل صلاح متحمسا وقال:

"شلونكم يالربع انا جيتكم يلا راح بنولعها الليلة ونطلع نشرب قهوة ونسهر للصبح"

فلاذ الجميع بالصمت قال مستغربا:

"ايش فيكو مالكو يا جماعة الخير ما بتردوش علي انا بحكي معاكم مش مع الحيط"

فصمت الجميع من جديد متجنبين النظر اليه اشار اليهم بيده وقال:
"هاي انني اتحدث اليكم ما بكم ماذا جرى لكم يا ملاعين؟هيا ردوا بسرعة والا لعنتكم هذه الليلة"
قال محمد: "نحنا ما بقاش راح نحكيك والله يا صلاح"
ثم تدخل انس:"والله احنا اخذين على خاطرنامنك كتير مين فاكر حالك ولاك ملعون"
"هل تفعلون هذا لاجل ليلة البارحة؟"
قال عنان "لم تكتفي بأنك لم تفي بوعدك لا بل وتكذب ايضا وتظننا اغبياء اتفقنا منذ بداية الاسبوع اننا يومي الجمعة والسبت ليلا
سنخرج جميعا سويا بالسيارة التي ستكتريها حضرتك فإذا بك تكذب علينا مدعيا انك لم تفعل ولكنك فعلت لكن ذهبت مع صديقاتك"
ماذا تهذون أي صديقات؟"
انس:"نهذي؟ نحن نعرفك جيدا لم تصبح صديقنا البارحة افهمت؟ نحن رفاق عمر"

احمد:لماذا فعلت هذا ؟ اهذه الصداقة؟والله تتحمل مسؤوليتك احنا مبقاش راح نحكي معاك خلاص راحت عليك.

محمد:خلاص يا شباب هذا يكفي معليش سنسامحه هذه المرة

انس:سامحه لوحدك لن نفعل حتى يعرف قيمة اصدقائه ولا يفضل البنات عليهم في المرة القادمة.
محمد:خلاص انس ايش عم تحكي.
نظر اليهم صلاح بغضب ثم قال:ماشي شباب
واتجه نحو الباب واغلقه بقوة بينما لحق به محمد مناديا اياه:صلاح !صلاح !انتظر !

نظر اليه من فوق وهو ينزل الدرج مسرعا:

صلاح عد الى هنا كنا نمزح معك ثم عاد الى البيت وقال مستغربا:

"ما بكم ماذا حصل لكم مهما حصل صلاح يبقى صديقنا ثم ماذا فعل؟ أيستحق كل هذا لاجل شيء تافه؟ أي جريمة اقترفها حتى تحتقروه هكذا لقد نزل غاضبا.

قال انس:خليه يتربى يستاهل تعال خود نفس اركيلة.

....
مر يومان وكان الاربعاء اخر ايام الامتحانات!..

تركت الورقة وغادرت القاعة واتجهت الليه بينما كان واقفا مع ملاك ومنى وحمزة يتحدثون عن الامتحان قفزت بينهم وقالت:"واخيرا اصبحنا احرارا وكسرنا اغلال الامتحانات التي جعلتنا عبيدا !"ثم زغردت بأعلى صوتها في الساحة فإلتفت الجميع نحوها قالوا:اخفضي صوتك يا حمقاء !الكلية برمتها التفتت نحوك !

قالت:وما المشكلة في ذلك اليس من حقي ان اعبر عن سعادتي من التفت الي سأرمي اليه بابتسامة " قالوا:"امجنونة خبئي هذه الفرحة الى يوم النتيجة" "لا لا اقدر هذا اليوم بالنسبة لي اهم من يوم النتيجة فأنا سأنجح في كل الاحوال في السنة القادمة سأكون انا وصلاح في الصف الثاني بلا شك اما عنكم فستصبحون في التخرج ولن تنظروا الينا او تعرفوننا بعد نجاحكم"

قالت منى:"ماذا تقولين يا مجنونة نحن اصدقاء دوما نجحنا او رسبنا لا يفسد للود قضية"
"أي انشاءالله سنرى مع الايام هيا صلاح"
"الى اين؟" "هيا واسكت"

جلست على الكرسي الاسمنتي الابيض وسط الحديقة واجلسته وقالت:لم تقل لي كيف كانت الامتحانات؟هل تشعر بأنك قدمتها بشكل جيد؟"

"اجل سأنجح حتما باذن الله"

"جيد الحمدلله اننا قد اكملنا الدراسة وارتاحت ضمائرنا الميتة"

ثم ضحكت رافعة قدمها ومصفقة بيدها وتأملت السماء قائلة:أتعلم ما اجمل شيء في مساءات رمضان؟"

"ماهو؟"

"فسحة على قدميك في الcentre ville ما رأيك ان نذهب ونتمشى حتى نتعب ونعود ادراجنا قبل المغرب"

"وماذا عن عشائك؟متى ستطبخين؟"

"لا تقلق لدي اكل كاف من البارحة هيا لنذهب"

"موافق"

غادرا الكلية ومشيا رويدا نحو المحطة واذا بالمترو يجيء مسرعا فصرخت ممسكة بيده:

"هيا اسرع جاء المترو لنركب "

فركضا حتى ركبا فيه ونزلا في محطة الباساج ومشيا نحو باب سويقة بعد ان عبرا حديقة الباساج وصلا الى دائرة باب سويقة قرب مركز الامن فقالت:

أرأيت هذا المركب التجاري اعرف طريقا مختصرا من هناك سنخرج منه على باب بحر عبورا بسوق سيدي محرز ونهج الحفصية"

"حسنا موافق لكن هل لي بطلب صغير منك"

"طبعا من عينيا ياواد"

"اريد الدخول الى زاوية سيدي محرز وقراءة الفاتحة"

"حسنا هيا فلنذهب"

نزلت من الدرج واستدارت يسارا نحو المرقد ثم اشترت شمعتين ودخلت الى البهو المؤدي الى ساحة البيت ثم طرقت واياه على الباب الاخضر اللون يسارا ودخلت الى المقام وتوقفت بجانبه امام قبر الولي الصالح بعد ان نزعا حذائيهما امام الباب ورمت ببضعة شموع مع بعض النقود ثم قرآ الفاتحة وغادرا قالت له:للأسف نحن صيام ولا نستطيع شرب قليل من الماء من البئر سنعود في الافطار وسأذيقك اياه انها مياه لذيذة جدا

"لنا عودة باذن الله"

عبرا السوق الضيقة وانعطفا يسارا بعد الوصول الى سوق الغرانا ثم اتجها نحو نهج ال....وخرجا على نهج المنجي سليم قالت له:من هنا سنذهب الى باب بحر ونجلس هناك لنرتاح قليلا"

"جيد لقد تعبت"

"سلامتك يا عزيزي اظن انك خدعت بمن قال لك ان تونس صغيرة"

ضحك قائلا:"حقا لقد اكتشفت عكس ذلك شوارعها وانهجها عديدة ولا تنتهي فسحتك فيها الا وقد اخذ منك التعب مأخذا عظيما"

وصلا الى باب بحر واجتلسا كرسيا عموميا هناك للراحة...

كان المكان مليئا ومزدحما بالسيارات والناس وقد غلب عليه ضجيج الاحاديث المختلطة وصراخ الاطفال اللذين يركضون في الساحة نحو النافورة ليتبللوا واصوات منبهات السيارات وأولان الباعة التي يأتي صداها من نهج "باب الجزيرة"

قالت له:"لقد اشتيهت ان اتبلل مثل هؤلاء الاطفال تعال نقترب من النافورة حتى نبتل برذاذ الماء"
"اتشعرين بالحر؟"

"اجل"

امسك بيده واوقفته "هيا فلنذهب"

ركضت نحو المياه ومدت يديها لتبتل بالرذاذ تبلل فستانها وخصلات شعرها تطايرت الحمامات من حولها فرمت اليها ببعض الحبوب على الارض ثم عبرا سويا شارع بورقيبة ووصلا الى اين ركبا سيارة اجرة للعودة الى اريانة ...

حين وصلا...توقفت السيارة امام محطة 10 ديسمبر ونزلا...

قالت:ما رأيك ان ارافقك حتى تصل الى البيت؟

- ألن تتأخري؟
- لا لا تهتم سنمشي سيرا على الاقدام حتى نصل الى بيتم قرب محطة الاستقلال ومن هناك سأركب في المترو للعودة.
- يبدو انك لا تملين السير والكلام
- خلاص اذا مللتني فسأعود ادراجي الى بيتي ولا داعي لهذا.
- لا يا غبية لم افعل انت لا تملين هيا نمشي.
- اتعلم شيئا؟
- ماذا؟
- لقد امرني اهلي بالعودة الى الحمامات يوم انتهاء الامتحانات ولكنني لا ارغب في ذلك لثقد قررت البقاء هنا من اجلك
- من اجلي؟
- اجل اريد ان نلتقي دوما في ايام شهر رمضان وفي سهراته كي نجوب سويا الشوارع ونتحدث طويلا
- جميل يسعدني ذلك.

كانت نائمة على الكنابيه في الصالون والتلفاز ما يزال مفتوحا بعد ان غلبها النعاس قبالته استفاقت على صوت رنين هاتفها واذا بها ترى رقم والدتها.

قالت:"خير انشالله ما بها تتصل بي في هذا الصباح الباكر؟"

اجابت قائلة:صباح الخير يا امي كيف حالك؟

- كيف حالي؟ ألعنك صباحا ومساء
- تلعنينني اعوذ بالله ولماذا؟ ماذا فعلت؟.
- ماذا فعلت وتسألينني بكل وقاحة انغام اليوم أي ايام الاسبوع.
- انه السبت لماذا؟
- ومنذ متى انهيت الامتحانات؟
- منذ يوم الاربعاء.
- أليس لديك بيت لتعودي اليه؟

- لكن
- لكن ماذا؟ ماذا بقيت تفعلين كل هذا الوقت ف البيت الذي اكتراه والدك لاجلك؟لقد اوصيتك ان تعودي الى الحمامات ...ألم اقل لك يوم الخميس صباحا تحزمين امتعتك وتأتين؟
- امي ارجوك لحظة واحدة فقط ارجوك سأخبرك ماذا حدث معي لي صديقة اسمها ملاك تعرفينها انها من الحمامات مثلي
- ما بها ملاك؟
- لقد شعرت انها لم تقدم فحوصها جيدا فنصحتها ان نبقى هذه الايام هنا سويا في البيت كي نفهم سويا بعض الاشياء لذلك بقيت عندها هنا في البيت منذ يوم الخميس وبقينا ندرس ليلا نهارا وسنعود الى الحمامات سويا يوم الاثنين.
- اين هي ملاك اريد ان احدثها.
- ماذا؟ انها نائمة يا امي لا اقدر على ايقاظها لقد نمنا فجرا
- حسنا غدا الاحد سنكون عندك صباحا انا ووالدك واختك وسنبقى عندك حتى يوم النتيجة وبعد ان تعرفي النتيجة سنعود سويا الى الحمامات متفقين؟
- لكن امي.
- يكفي احمدي الله انني تمكنت من امتصاص غضب ابيك بعد ان اقسم ان يشرب من دمك
- حسنا امي بتموني انتي وبابا

اغلقت والدتها الهاتف في وجهها فوضعت يدها على رأسها وقالت:يا ويلي !أي مصيبة هذه يا ربي !ماذا سأفعل؟ !ثم قالت:علي ان اتصل بملاك حالا.

اجابت ملاك وقد بدا على صوتها النعاس قالت:

"مرحبا من معي"

"اهلا ملاك حبيبتي اسمعيني ارجوك هناك مصيبة نزلت على رأسي لن ينقذني منها احد إلاك"

"ما بك؟ ماذا جرى ؟ أي مصيبة ولماذا تتصلين بي في هذا الصباح الباكر؟"

"أي صباح انها الواحدة ظهرا"

"ما بك؟ ماذا جرى لك"

"قولي لي اولا هل مازلت نائمة في بيت منى ام انك عدت الى الحمامات؟"

"لا لم اعد بعد مازلت هنا"

اخرجت انغام زفرة طويلة وفرحت "جيد جدا بشّرك الله بالخير اسمعيني جيدا انا لم ارغب في العودة الى الحمامات منذ يوم الاربعاء لانني اردت لالتمكن من الالتقاء بصلاح كل ليلة والسهر سويا ولكن عائلتي كانت قد اوصتني بالعودة يوم الخميس صباحا"

"وما المشكلة؟"

"اتصلت بي امي وبهذلتني وقالت لي انها قادمة غدا صباحا مع والدي واختي الى بيتي للبقاء عندي حتى يوم النتيجة"

"يا ويلك "

"أرأيت المصيبة التي حلت بي؟"

"وما الحل الان؟"

"كذبت على والدتي وقلت لها انني بقيت هنا من اجلك كل هذا الوقت؟"

"ماذا؟ من اجلي ؟ وما دخلي انا؟"

"قلت لها انك تريدين مني مساعدتك لانك لم تقدمي فحوصك بشكل جيد وشعرت انك ستؤجلين الى الدورة التكميلية لذا فأنت نائمة عندي هنا في بيتي."

"لعنك الله اي كذبة هذه انا نائمة عندك ولا ادري ؟ ماذا فعلت بوالدتك؟ وهل تدري هي أنني في الصف الثاني لا الاول"

" لا الحمدلله لا تدري ارجوك تعالي الي اليوم ارجوك واجلبي معك انتهاك كلها ارجوك يا ملاك غدا صباحا ستكون والدتي عندي" "وماذا سأقول لمنى وعدتها أن أبقى عندها حتى يوم الإثنين"

"لا ا مشكلة قولي لها انك ستبقين عندي حتى يوم الاثنين واذا سألتك قولي لها ما حصل معي" "حسنا سآتي" "تعالي فورا لا تعودي للنوم"

"حاضر يا سيدة انغام "

اغلقت انغام الهاتف وذهبت لتغير ثيابها وتغسل وجهها بعد أن رتبت البيت وجهزت مكانا للامتعة ملاك وأغراضها الكثيرة وكتبها واوراقها !بعد ساعتين رن جرس الباب فذهبت انغام مسرعة وفتحت وتنفست الصعداء لحظة رؤيتها ملاك أمام الباب وفي يدها حقيبتها

قالت :ما بك الحمدلله أن منى تسكن هنا في المنزه غير بعيدة عن بيتي ساعتين حتى تصلي؟ لماذا تأخرت؟

احمدي الله اني اتيت كان عليك أن تدفعي حق سيارة الاجرة التي اوصلتني عوضا عني لقد كانت اغراضي مبعثرة في بيت منى وكان علي ترتيبها جيدا للمجيء كي لا تنسي شيئا هنا او هناك !

جيدا ادخلي

(اغلقت الباب)هيا رتبي اغراضك في غرفتي وبعثري الاوراق والثياب قدرما استطعت حتى تشعر امي عند مجيئها في الغد بأنك كنت عندي حقا طيلة هذه الأيام"

" مسكينة هي امك على الاقل انا اهلي على علم بأنني عند منى لأنني لست هنا لأجل شاب لعنك الله من حمقاء انت من فعلت كل هذا بنفسك ولاجل شاب"

" اردت البقاء هنا لأجله حتى يوم النتيجة ماذا افعل اشتقت إليه لم اره منذ الفترة التي سبقت مدة المراجعة بأيام ونسيت أمر اهلي"

" لو لم تكوني ابنة مدينتي وجارتي لما ساعدتك"

" والله ؟السنا صديقتان؟"

" بلى لكن حجتك في البقاء هنا واهية ألأجل صلاح تفعلين كل هذا؟ كان بامكانك رؤيته يوم النتيجة أو الالتقاء به في الصيف"

" وما يدريني لعله في الصيف يرجع إلى فلسطين"

" فلسطين؟"

ثم تعالى صوت ضحكتها وقالت"قولي لي ماذا سنفطر اليوم؟"

" قلت في نفسي سأطبخ معكرونة وطاجين مع السلطة المشوية وسلطة الخضار والحساء"

"جميل ساساعدك ... "

في المساء.... دخلا الى المطبخ سويا لتحضير الافطار

قالت ملاك:هل تعيشان قصة حب؟

اجابت انغام:ماذا؟

انت وصلاح؟هل تعيشان قصة عاطفية؟ الجميع يظن انكما اصدقاء لكنني أشعر دوما ان شيئا اكبر من الصداقة يجمعكما وقد تأكد لي ذلك ببقائك هنا لأجله حدثيني عن قصتكما اطمئني لن اقول لاحد

لقد بدأت قصتنا بالفسحة والتنزه والخروج سويا إلى المدينة العتيقة وال centre villeواريانة والمنزه وغيرها من الأماكن .

نعم واصلي ...

ثم اصبحنا نتحدث سويا في كل المواضيع لأننا ارتحنا لبعضنا البعض اكثر فاكتشفنا اننا نتشارك في حب أشياء عديدة واكتشفنا اننا مواليد الشهر نفسه "يناير" شعرت أنني احببته فبدأت احدثه عن الشعر الجاهلي والعذري والمتصوفة وصرنا نتبادل نصوصا للمتنبي وابن عربي والحلاج وابن الفارض وبينما ظننت اننا نتباهى بثقافتها الشعرية اكتشفت فجأة اننا نتبادل الحب"

" هل هكذا بدأت القصة؟"

" اجل لم نكتشف ذلك إلا في ما بعد لم نتبادل كلمات الحب اليومية المبتذلة المكررة التي يعيدها الجميع في ما بينهم لكننا نتبادل الاهتمام هو شاب طيب وحنون .

" وانت صادقة وعفوية ولست كبنات الكلية ربما هذه النقطة الأهم"

" برأيك هذا ما يحبه في؟"

" لا ادري بالضبط ربما احب أشياء كثيرة من بينها هذه وبصراحة انت قادرة على جعل اي احد يتعلق بك بسهولة"

اقترب اذان المغرب وابتدأت الشمس بالغروب وقد امتلأت الطاولة في الصالون بشتى الوان الطعام اللذيذ...

جاء الصوت من الراديو:

"نرفع لحضراتكم اذان المغرب حسب التوقيت المحلي لمدينة تونس وضواحيها والرجاء من بقية المناطق مراعاة فارق التوقيت"

وجلسا الى الطاولة وقالت انغام:

" صيام مقبول وافطار شهي عزيزتي ملاك حقا انا سعيدة جدا لانك معي اليوم وستشاركينني الافطار خذي هذه التمرة"

"شكرا وانا سعيدة"

"صدقيني كل يوم وقت اذان المغرب اجد نفسي لوحدي امام الطاولة اجهش بالبكاء فتختفي شهيتي ولا آكل الا الشيء القليل أكثر ما اكرهه في هذه الحياة هو الجلوس الى مائدة الطعام لوحدي فما بالك ان تجلسي بمفردك في رمضان والكل مجتمعون حول الطاولة سويا ولا احد يدري بحالك او يهتم لامرك.... لذا فإنك تجدينني كلما عثرت على مائدة افطار مشتركة في المبيت افطر مع البنات او في المطعم الجامعي قرب محطة الشباب....حتى ولو لم يكن الاكل يليق بشخص صائم لاكثر من ستة عشر ساعة والاتعس اننا لا نستطيع ان نقول شيئا من هذا لعائلاتنا ....ما رأيك في الحساء؟ أتقن طهوه اليس كذلك؟"

"اجل انه لذيذ.... صدقيني عزيزتي الامر نفسه بالنسبة الي قبل ان تنتهي الامتحانات واذهب الى النوم في بيت منى...كنت بمفردي أتناول وجبة الافطار في المبيت وكنت انتهز الفرصة كلما ذهبت الزميلات الى المطعم او قررن ان يقمن بوجبة مشتركة على طاولة واحدة انتهز الفرصة فأشاركهن كي انسى وحدتي لكن أياما كثيرة مرت علي وانا اتناول الافطار لوحدي .....حتى اهلي عندما يتصلون بي كل سهرة ويسالونني ماذا فعلت في ساعة الافطار اقول لهم انني تناولته برفقة البنات..... لا يمكنني ان اشعرهم بوحدتي لانهم سيحزنون لحالي."

"معك حق لقد تعلمنا من وحدتنا التي عشناها في المبيت ان التفاصيل الصغيرة التي نعيشها في بيوتنا مع عائلاتنا والتي كنا نظنها اشياء عادية حين كنا صغارا ...اكتشفنا الان انها ذومعنى عميق وذو طعم جميل جدا ....مسكين هو من يفتقد اليها"

"اجل صحيح في تلك الايام كنت انتظر اذان العشاء بفارغ الصبر كي اهرول نحو الجامع للصلاة فأختلط بالناس واشعر بالزحمة وانسى رعب الوحدة والله وكبرنا وعرفنا انو شقان الفطر مع خواتك الصغار الي تبدا تشوط فيهم كل ما يعرضوك والصياح لي على الطاولة وهوما نهار كامل ع_ازقينو ويجيو بكل صحة رقعة يزاحموك في شقان الفطر وبوك يتهدد باش يقوم ويخليكم ويرتاح منالعرك نمتاعكم وانتي تتشكالو الي خواتك كلاو بايك مالبريك في العشية وغافلو امك وهبي تتفرج على دبارة رمضان وصوتها يلعلع اخرجو مالكوجينة غير يجيب بوكم تاو تشوفو طلع احسن من انك تشق فطرك وحدك مع الحيوط"

انفجرت انغام بالضحك وقد لمعت عيناها بالدموع وقالت:ما اجمل حكاياتك يا ملاك صدقيني محقة في كل كلمة قلتها استمتعي بوجبتك عزيزتي سنذهب سويا هذه الليلة الى مقهى قريب من هنا في المنزه ونسهر هناك سويا وننسى الوحدة التي عشناها هذه الايام"

"شعرت في فترة من الفترات انني ساجن اشتهيت الخروج وقت الفطار للشارع علني اجد أي احد اقول له صحة شريبتكم او استضيفه لمشاركتي العشاء"

"لا استغرب ذلك فالوحدة قاتلة"

بعد الافطار تساعدا على غشل الصحون ثم لبس ثيابا انيقة وتجملا وتعطرا وغادرا البيت نحو المقهى ولم يعودا حتى الساعة منتصف اليل.

قالت ملاك: ما اجمل الليالي الرمضانية في العاصمة واريانة.

اعلم ذلك واجواء السهرات الرمضانية في الحمامات جميلة كذلك ماذا تريدين للسحور؟ مسفوف او سحلب؟

اريد "سحلب".

على عيني ساغير ثيابي ثم اعود لتحضيره اسمعي ملاك:

- ماذا ؟
- غدا ستأتي عائلتي الى هنا ارجوك تضرفي وكأنك هنا في بيتي منذ اخر ايام الامتحانات ولا تشعريهم انك قد اتيت اليوم او تخبريهم بذلك...انت الوحيدة التي بامكانك اقناعهم انني بقيت هنا في العاصمة لاجلك وسنتظاهر امامهم بأننا ندرس طوال الوقت.
- حسنا موافقة اطمئني من هذه الناحية للكنني لن ابقى هنا لا اريد ازعاجكم يوم الاثنين ساغادرواذا سألني والداك عن السبب سأقول انني اتممت المذاكرة.
- حسنا كما تريدين لكن لم انت على عجلة هكذا؟ لماذا تريدين العودة يوم الاثنين؟
- هكذا كان الاتفاق مع منى ومع عائلتي كذلك.
- وفقك الله ستتركينني بمفردي على كل تعالي يوم النتيجة كي نلتقي.
- لا اعدك بذلك يصعب ان استيقظ باكرا في نهار رمضان وآتي من الحمامات لاجل رؤية النتيجة حتى ولو لم آتي يا عزيزتي سنلتقي في الحمامات لا تقلقي
- حسنا بإذن الله.

بعد السحور ذهبتا الى السرير ذو المكانين فجلست ملاك على يسار السرير بينما اتخذت انغام جانبه الايمن

قالت ملاك:لا اصدق انني بعد خصاصة المبيت التي كنت فيها اياما قبل بدأ شهر رمضان اصبحت انام في غرف نوم جميلة وأسرّة محترمة كغرفة منى وسريرك هذا...لو اني اخبرك عن الليلة الاخيرة لي في المبيت قبل ان يتم غلقه.

- حدثيني.
- من أين سأبدأ ؟ أيا يا سيدك بن سيدك وبما ان هذا المخلوق التعيس الذي امامك لم يستطع المذاكرة لا في المكتبة العمومية في الحمامات ولا في بيتهم ولا في أي مكان اخر قلت لنفسي هيا

يا فتاة اذهبي الى العاصمة والتقي صديقاتك وذاكري معهن ثم نامي في المبيت اتيت الى العاصمة ودرست مع الصديقات في بيت احداهن وحين انهيت المذاكرة في بيتها...عدت ادراجي بمفردي لأركب المترو رقم 2 باتجاه اريانة واذا بي اجد محطة محمد الخامس"مقفرة وفارغة تماما من الناسي وكأن احدا ما قد سرق الشعب التونسي او اخذه من الشارع حتى ان شباك الاستخلاص كان مغلقاولم استطع الدفع لاخذ تذكرة وخفت ان يوقفني المراقب في احدى لامحطات واقول له انني لم اجد شباك الاستخلاص مفتوحا فلا يصدقني ومع ذلك لم يكن بيدي حيلة فركبت ...

- كانت الساعة السابعة والنصف مساءوالدنيا ظلماء دحساء كاحلة وشعرت بالرعب وانا انتظر المترو الذي لم يكن برفقتي في انتظاره هناك الا رجلان احدهمامنشغل عن الاخرين بالتدخين والاخر بهاتفه الذي لم يرفع رأسه عنه حتى وصل المترو الذي كان بدوره فارغا لدرجة انني اخذت كرسيا لم اغادره حتى الوصول الى المحطة الاخيرة...وحين وصولي لم اجد احدا هناك عدا كليبان سائبان ابتعدت عنهما وبدأت اسرع الخطى حتى وصلت في ذلك الشارع المقفر الخالي من الناس الى المبيت الذي بمجرد وصولي اليه تمنيت لو انني لم انزل من المترو او ان الحارس لم يفتحه لي لادخل واراه على ذلك الحال.
- وكيف كان؟
- كان فارغا مقفرا من الطلبة لا تسمع فيه صوتا ولا حركة عدا عن حفيف الرياح وصدى كلماتي وانا احدث نفسي من شدة خوفي لاول مرة اراه هكذا لم ارى فتاة عابرة ولا فتيات يذاكرن او يطبخن العشاء مثل العادة...

دخلت الى غرفتي ولحسن الحظ انها في اخر bloc واخر secteur في المبيت أي انني ازددت رعبا في الطريق اليها خصوصا لابتعادها عن الباب الخارجي وضعت اغراضي وذهبت لاسلم على جاراتي اللاتي كن يدرسن في كلية اخرى واللاتي على عكسنا كانت قد بدأت فترة المراجعة يومها لديهن لا على غرارنا نحن ستبدأ في الغد فلم اجدهن لانهن عدن الى مناطقهن البعيدة فبقيت وحيدة هناك لم اطبخ طبعا بل اكلت اشياء معلبة كانت في حقيبتي مر الوقت وجاءت العاشرة ثم الحادية عشسرة ثم الساعة منتصف الليل ولم اقدر على النوم وقد بدأ الشيطان يراودني ويلعب بعقلي وسط مبيت خال من الطالبات لا احد فيه الاي انا وحارس هرم يغيب عقله ساعة ويحضر ساعة اخرى لانه مريض اعصاب خصوصا ممع محاولتين فاشلتين ومحاولة ناجحة سابقا في اقتحام المبيت ومع تداول العديد من الناس قصة محاولة انتحار فتاة في الغرفة التي اقيم انا بالذات وانا بمفردي استمع لصوت حفيف الرياح ويراودني شعور بالرغبة في الصراخ...قلت في نفسي ساحاول اطفاء الضوء والنوم وبقيت بين الخوف من شياطين الانس وشياطين الجن اللذين بإمكانهم ان يعبثوا بحالي وانا في غرفة مظلمة خصوصا انها الليلة الاخيرة لهم قبل ان تقيدهم السلاسل طوال شهر حلفت ان اترك الغرفة مضيئة حتى لو لم انم وبعد وقت قليل استيقظت من نومي على صوت طرق الباب فشعرت ان قلبي سيتوقف وينتهي نبضه ولكن الحمدلله فأنا رغم كل شيء ما ازال فتاة ذكية وعقلي دوما يعمل بجد ففتحت النافذة لكي القي بنفسي فورا حال حصول أي مكروه على الاقل ارتمي من الطابق الرابع واموت بشرف حاولت ان اسيطر على نفسي كي لا يرتعش صوتي وقلت من؟ واذا بها فتاة ظننت انها ليست كذلك وانه جان تقمص صوت فتاة ليقبض علي او انها تلك التي انتحرت تريد خطفي واخذي معها وكلها اشياء لم اظن نفسي يوما سافكر فيها او اتخيلها لم اكن اظن ا لي القدرة على الهلوسة بهذه الطريقة وباختصار كانت طالبة تسكن في الغرفة التي تحتي وتريد مني ان اعطيها بعض القهوة لتقدر على السهر لاجل المذاكرة وعندما رأت الضوء المنبعث من غرفتي طرقت

الباب لانها ظنت اني مستيقظة وحين غادرت شعرت بقليل ن الامان لانني لست وحدي في المبيت فتجرأت على اطفاء ضوء الغرفة ونمت اخيرا.

انفجرت انغام بالضحك وقالت:

- اتعلمين؟ قصتك هذه تصلح ان تكون فيلما تحت اسم" the last night in the foyet"
- اجل وفيلم رعب ايضا
- لقد رفع الاذان بعد دقائق ستشرق الشمس انا سأنام تصبحين على خير
- وانت بخير يا عزيزتي اما عني فسأتوضأ واصلي الفجر
- خذي راحتك واعتبري البيت بيتك
- شكرا عزيزتي الغالية.

-18-

كانا يغطان في نوم عميق لحظة رن جرس الباب مرات عديدة استيقظت انغام مرتعدة على صوت رنين هاتفها فرأت اسم والدها قالت مسرعة

- الو صباح الخير ابي
- مرحبا عزيزتي هل انت في البيت
- طبعا اننا نائمان
- انت ومن؟
- انا وصديقتي التي بقيت هنا في العاصمة من اجلها للمذاكرة
- حسنا انا ووالدتك واختك امام الباب هيا تعالي وافتحي لنا
- حاضر

اغلقت المكالمة وقالت سريعا:

- ملاك ملاك هيا استيقظي سريعا والداي واختي امام البيت
- اتركيني انام
- هيا عليك ان تغسلي وجهك وتأتي لتسلمي عليهما ولا تنسي ارتداء حجابك اعرف جنونك حين ترغبين في النوم تنسين كل شيء
- ساسلم عليهم لاحقا ارجوك دعيني انام

ذهبت انغام مسرعة الى الحمام صففت شعرها وغيرت ثوب نومها وغسلت وجهها ثم اتجهت ركضا نحو الباب لكي تفتح قالت والدتها:

- اخيرا يا ابنتي تعبنا من الوقوف انتظرناك ربع ساعة لترحمينا وتقبلين بدخولنا البيت

قبلتهم واحدا واحدا ثم قالت:

انا حقا اسفة لقد نمنا بعد اذان الفجر البارحة نظرا لان صديقتي هذه ملتزمة دينيا وتصلي

قالت والدتها:جيد يبدو انك تتعلمين منها اشياء كثيرة.

- اجل يا امي انها فتاة جيدة جدا ونحن صديقتين مقربتين لذا لم اعد الى الحمامات من اجلها لكي ندرس سويا ونتعاون على فهم بعض المحاور.
- كم اشتقت اليك يا اختي ما ابشع سريرك من دونك صدقيني مكانك في البيت شاغر لا يملأه احد

عانقتها بحرارة وقالت:اختي حبيبتي وانا اشتقت اليك ايضا والى سريري سأعود اليه بعد معرفة النتيجة آمل النجاح.

قالت والدتها وهي تنزع كنزتها وحجابها:

- اين هي الفتاة؟
- ما تزال نائمة المسكينة انها متعبة من الدراسة سهرنا طويلا ونحن ندرس ونشرب القهوة.
- دعيها تنام لا مشكلة ونحن ايضا نريد النوم قليلا لقد كان الطريق طويلا وتعبنا من الحر والصوم سأدخل لأستحم ثم اذهب للنوم أي غرفة هي الفارغة؟
- تلك التي الى يمينك يا امي فيها ثلاث اسرة ناموا فيها بعد الاستحمام ورتبوا ثيابكم في الخزانة انا سأعود الى غرفتي.

ذهبت الى غرفتها وجلست الى سريرها تقرأ رواية الحرب والسلام لتولستوي بينما غط الجميع في النوم بعد أن استحموا نامت هي بدورها وعلى صدرها الرواية وحين كانت الساعة الثانية زوالا استيقظت ملاك فغيرت ثوبها وتوضأت وصلت ثم ايقظت انغام:

- لا ادري كيف نمت وأنا أقرأ هذه الرواية
- اين عائلتك ألم يأتوا
- بلى اتوا واستحموا ووظبوا امتعتهم انهم في الغرفة المحاذية نائمون كان الطريق طويلا ومتعبا
- جيد يا ترى ماذا ستطبخ لنا والدتك اليوم؟
- لا اعلم سنرى لو رغبت في اكلة معينة قولي ذلك لا تخجلي

واذا بوالدتها تدخل الى الغرفة وتقول:

- مرحبا يا صبايا فيني فوت؟
- طبعا ماما تفضلي
- هاي رفيقتك؟ ملاك !ماشاء الله شو حلوة وظريفة
- اهلا خالة تشرفت بمعرفتك
- وانا كذلك اذا انت هنا منذ اخر ايام الامتحانات بقيت مع انغام للمذاكرة
- اجل يا خالة اشكر انغام لانها قبلت بمساعدتي بعدما شعرت بانني لم اقدم فحوصي جيدا وانني سأتأجل الى الدورة التكميلية
- لا بأس عليك يا عزيزتي لا تقلقي حتى لو حصل ذلك ستنجحين باذن الله وتكونين في الصف الثاني في السنة القادمة مع انغام باذن الله سأذهب الى المطبخ وأبدأ بتحضير الفطور
- تفضلي

التفتت ملاك الى انغام مستغربة:

- يا ملعونة لماذا لم تخبريني ان والدتك ليست تونسية؟
- انا؟ الم اخبرك من قبل
- لا والله علمت للتو
- والدتي دمشقية ابي تزوجها عندما كان يعمل في دمشق عشنا طفولتنا كلها هناك انا واخوتي ولم نغادرها الا في حزيران 2011 وقتها كنت في عمر الثانية عشر امي مشتاقة كثيرا للشام وهي ليست سعيدة هنا يسكنها وجع اسمه دمشق لقد بكت كثيرا لما حصل في بلادها ما رأيك ان تفطري اليوم على اكلة سورية؟
- جميل سأكتشف مطبخا جديدا "الاكل الشرقي الذيذ"
- اجل كثيرا وانا اتقن طهوه

دخل الفتيات الثلاثة الى المطبخ لمساعدة والدة انغام في الطهي بينما جلس والدها لمشاهدة التلفاز...ارتفع اذان المغرب على الساعة السابعة والنصف وجلس الجميع الى الطاولة فقالت ملاك:

- يبدو ان الاكل لذيذ ذكريني خالتي ما اسم هذه الاكلة؟
- اسمها شاكرية اما هذه السلطة فهي تبولة وهذه طحينية وانشالله الف صحة وهنا
- جميل

قالت انغام:صياما مقبولا وفطارا شهيا يا جماعة وصحة شريبتكم

بدأ الجميع بتناول الحساء بينما تدخلت احلام مبتسمة:

- يقولون ان اجواء العاصمة في سهرات رمضان جميلة يا اختي
- اجل جميلة جدا
- الى اين ستأخذيننا الليلة اذا؟

قالت والدتها: نعم فكرة جميلة ان نسهر سالليلة سويا في مكان ما لقد اصبحت تعرفين اريانة والعاصمة جيدا

- اجل ما رأيكم بسهرة في المدينة العتيقة سآخذكم الى مقهى "الخطاب عالباب" تلك التي رأيتموها كثيرا في االمسلسل ولم تطأوها ابدا
- جميل انها مقهى رائع ما رأيك ابي
- موافق ستأخذنا امنغام الليلة

قالت ملاك:وانا اين سأبقى

قالت انغام:انت سنقفل عليك الباب ونجعلك تنظفين البيت

- انغام ما هذا الذي تقولينه؟
- عزيزتي ملاك ستذهبين برفقتنا طبعا
- جميل لكن لا تنسي يا انغام علي غدا ان اعود الى الحمامات

قال والد انغام:وهل انت من الحمامات؟

-لا اجل انا من الحمامات الشمالية مثلكم

- لماذا هذه العجلة يا ابنتي؟

- يكفي ما بقيته يا خالة لقد كان الاتفاق مع عائلتي ان اعود يوم غد ثم انني والحمدلله ذاكرت جيدا....ان ذاهبة الى محطة 10 ديسمبر ومن هناك الى الباساج ثم الى برشلونة ثم الى باب عليوة لآخذ اللواج التي ستوصلني الى هناك.

- ولماذا كل هذا التعب يا ابنتي... عمك ابو احمد سيوصلك غدا امام باب بيتك لا داعي ان تركبي المترو وسيارتنا هنا امام البناية.

- اجل خالتك ام احمد محقة سأوصلك في الغد باذن الله امام باب منزلكم

- لا اريد ازعاجك

- أي ازعاج يا ابنتي يا ملاك؟أنت كأحلام.

- حقا لقد أخجلتموني أنا ممتنة لكم شكرا جزيلا.

بعد ان انتهوا من الافطار وتجهزوا للسهرة..غادروا باتجاه المدينة العتيقة.

نزلوا من ساحة القصبة سيرا على الاقدام حتى حتى وصلوا الى مقهى الخطاب عالباب واختاروا احدى المقصورات التي جلسوا فيها.

نظرت أنغام الى المقصورة الاخرى قبالتها فوجدة اصدقاء صلاح فيها..قالت لملاك بصوت خافت:

- انظري انهم اصدقاء صلاح ...علي ان اذهب اليهم.
- لكن كيف؟
- سأدعي أنني ذاهبة الى الحمام.

دخلت الى المقصورة وقالت:مرحبا شباب.

التفتوا اليها متفاجئين:اهلا انغام.

صافحتهم واحدا واحدا من اليمين الى اليسار وقالت:

- كيف حالكم ماذا تفعلون هنا؟
- كما ترين...عم ندخن اركيلة.
- صحة وهنا.
- على قلبك.
- ما بالكم هذه الفترة؟
- ما بالنا؟
- لم نفهم.
- أقصد أين هو صلاح ؟ ما بالكم معه؟ لماذا هو ليس برفقتكم؟

قال محمد:أكنت معه يومي...؟

فقاطعه أنس قائلا:اصمت يا أحمق !ثم قال: لم يأت لانه مشغول.

- اسمعوا شباب اذا كنتم قد تشاجرتم معه لانه تركككم في نهاية الاسبوع الماضي بعد أن كان قد اكترى سيارة من اجلكم فإنني انا كنت السبب في ذلك انا من قلت له ما رأيك ان نسهر سويا ليلة السبت الفارط وانسى امر اصدقائك

قال انس:حقا؟ مشكورة يا انغام...خيرا فعلت.

- هو في الحقيقة لم يوافقني وكان يفكر فيكم طوال السهرة فهو لا يريد ان يكون نذلا مع اعز اصدقائه بهذا الشكل لكن قال لي لا تقلقي سأعتذر منهم في ما بعد.وهو منذ ذلك اليوم لم يحدثني وكلما اتصلت به لا يجيبني اظنه قد غصضب مني ارجوكم لا تفعلوا معه هكذا انكم اغلى ما لديه ويشهد الله انه يحبكم لا تكسروا خاطره لا احد لديه في هذه البلاد إلاكم انتم وانا.

- بصراحة هو لم أتى يوم الاجحد الماضي الينا حين كنا مجتمعين في البيت ونحن لم نحدثه حرفا واحدا.
- ارجوكم اتصلوا بهو اعيدوا كل شيء كما كان من اجلي فقط.
- والله احنا آخذين على خاطرنا منو كتير بس خلاص عشانك حنتصل فيه.
- جيد اعلكم تطفئون غضبه مني فيعود ويكلمني كما كان في السابق
- حسنا اطمئني من هذه الناحية سنتحدث اليه وانشالله مايعيدهاش.
- لا انا الي ما راح عيدها هالمرة...اعتذر منكم.
- لا بأس عليك.

...

في الصباح ..حزمت ملاك امتعتها وغادرت مع ابو احمد نحو الحمامات بعد ان ودعت انغام التي قالت لها:

- ستأتين يوم النتيجة؟
- لا ادري...حتى لو لم ىتي اخبريني انت بها...ثم غمزتها بعينها اليمنى
- طبعا طبعا اطمئنيولا تنسي ان تتركي لي رسالة بمجرد وصولك بخير.
- ...

كان صلاح نائما بينما رن هاتفه فأجاب دون ان يرى اسم المتصل وقد غلب عيناه المحمرة النعاس قال:الو. فأجاب انس:

- - الو صباح الخير يا ملعون.
- انس؟
- لا خيالو عم يحكيك وينك يا جحش؟
- انا نائم في غرفتي
- هل لديك برنامج للسهرة هذه الليلة؟
- لا والله ولا اشي.
- اذا سنلتقي الليلة وسنذهب الاحدى المقاهي في اريانة ونسهر هناك سويا.
- حقا؟ انسيتم..؟
- انسى ما حصل نحن اسفون عما فعلناه ولكن لا تكررها نحن اخوة التراب لن تفرقنا ترهات تافهة
- جيد اذا سنلتقي بعد الافطار

بعد السحور وقبل اذان الفجر بوقت قليل كان والدا انغام نائمين في الغرفة المحاذية لغرفتها بينما هي واختها في غرفة النوم...اتصلت انغام بصلا:

- الو
- الو مساء الخير صلاح
- مساء النور انغام
- كيف حاله الجميل اليوم
- الحمد لله

- هل التقيت بهم؟
- من؟
- أصدقائك
- اجل رأيتهم
- مبارك
- وهل عرفت انني كنت على خلاف معهم؟
- اجل
- وكيف؟
- لن اخبرك المهم انه من الضروري ان تعلم انني السبب في عودتك اليهم...لا تكرر ما فعلته..علاقتي بك شيء...وعلاقتك بأصدقائك شيء اخر تماما...باي.
- لحظة...أفهميني ماذا فعلت؟وكيف عرفت؟ماذا تقصدين بأنك كنت السبب في عودتي اليهم
- حافظ عليهم فالصداقة نعمة لا تعطى الا لمن يستحق وانت تستحق.

اغلقت انغام المكالمة وتركته لدهشته...

قالت أحلام لاختها:هل حقا بقيت هنا في العاصمة بعد انتهاء الامتحانات لاجل صديقتك ملاك؟

- وما دخلك انت؟
- هل تظنين نفسك ستقدرين على خداعي كما خدعت والديك...كل صديقاتك في الكلية هن صديقاتي على "الفيسبوك"وملاك منهن وانا ادري جيدا أنها تدرس في الصف الثاني وليست راسبة.
- لعنك الله ياالك من جاسوسة محترفة.
- صارحيني هل بقيت هنا من اجل صلاح؟
- اجل...لا تقولي ذلك لوالدتي.
- اطمئني لن اقول لاحد أكنتما تلتقيان في السهرة وتجوبان الشوارع؟
- اجل
- وما المشكلة في ذلك؟معك حق...اذا عدت للحمامات لن تجدي احدا عداي تسهرين برفقته...هل تحبينه أم انكما صديقين فقط؟
- لا ادري نحن صديقين في الحالتين.
- أهو راسب مثلك؟
- اجل
- وفقه الله
- امين...اتمنى ان ننجح سويا هذه السنة كي ندرس سويا في السنة القادمةوماذا ان لم يختر شعبة القانون العام مثلك؟
- لعنك الله اصمتي دعيه ينجح الان وانا سأقنعه بذلك.

-19-

كان يوم النتيجة...

نجح صلاح وانغام في الصف الاول ...عادت الى بيتها بعد سماع اسمها والاطلاع على نتائجها.

استقبلتها والدتها بالزغاريد وقالت بفرح:الحمد لله شدة ومرت وانتهينا منها متى ستتحصلين على شهادة النجاح وورقة العلامات.

- في سبتمبر القادم ان شاء الله.
- اذا اصبح علينا العودة الى الحمامات لم يبقى على العيد اكثر من اربعة ايام...غدا صباحا نحزم الامتعة الى الحمامات موافقة؟
- لكن امي صديقاتي عزمنني على سهرة في المدينة العتيقة الليلة بمناسبة النجاح هل لي بالذهاب؟
- طبعا عزيزتي الان وقد نجحت عليك الاستمتاع بوقتك كي تنسي تعب سنة كاملة.
- شكرا امي
- لكن لا تتأخري كثيرا سننام باكرا كي نستيقظ في الصباحا الباكر ونغادر العاصمة.

....

اتصلت به لحظة الاذان وقد انشغل والداها بالصلاة.

قالت له:اسمع سألتقي بك الليلة في المدينة العتيقة اريد ان نسهر سويا على انفراد سآخذك الى مكان جميل جدا..لا ادري كيف سمح لي والداي بذلك حتى أن والدي اعطاني مفتاح السيارة سنلتقي امام محطة 10 ديسمبر يجب ان لا تأتي الى البناية كي لا يراك والداي وعلينا الا نتأخر لانني غدا صباحا سأعود الى الحمامات.اتفقنا؟

- موافق.

بعد الافطار اتجهت واياه الى المدينة العتيقة...جلسا قبالة بعضهما على طاولة في الزاوية اليمنى في اعلى مقهى "بانوراما" المطلة على مدينة تونس التي أنيرت جميع اضوائها...

قالت له:

- أرأيت ما اجمل هذا المشهد؟ ذلك الجبل الذي تراه هو جبل سيدي بلحسن وتلك البناية الزرقاء هي المستشفى العسكري في باب عليوة أما عن ذلك المسجد في الاسفل قبالتك فهو جامع الزيتونة ما اجمل الاضواء وأسطح المنازل المظلمة الممتلئة بالاغراض المنزلية.
- اجل المكان جميل جدا لا اعرفه من قبل...لم تقولي لي بعد ما السر في معرفتك جيدا لانهج وازقة مدينة تونس بينما انت من الحمامات هل كنت تأتين الى هنا منذ صغرك؟
- لا ليس الامر كذلك..ألم اخبرك من قبل بأن والدي ابن "باب سويقة"؟
- حقا؟ لا والله لا اذكر انك اخبرتني قبل اليوم

- ها قد علمت اذا والدي ابن باب سويقة وجدي كذلك رحمه الله ولد في "نهج الكبدة" وعاش حياته في نهج "القعادين"...ما يزال لدي بيت جدتي هناك غير بعيد عن الساقية التي تتوسط باب سويقة كان ابي كلما يمل يأخذني الى المدينة العتيقة ويجوب بي شوارعها كلها طبعا في الصيف او في العطل الدراسية...لاننا في ايام الدراسة نكون في الشام...درست انا واخوتي هناك طوال فترة طفولتنا.
- وهل لك اخوة بدلا عن احلام؟
- اجل لي اخ اكبر مني باربع سنوات يعيش في كندا
- لم تخبريني بهذا من قبل.
- ها قد عرفت الان...ربما لم يكن هناك فرصة حتى اخبرك.
- كنت انا واخوتي في دمشق نجوب الشوارع كلها ونقضي طوال اليوم بين باب توما وباب الجابية وباب شرقي وباب لصغير الذي دفن في مقبرته اغلب عائلة والدتي.
- ولماذا انتم في الحمامات اذا؟
- جدتي والدة ابي ليست ابنة العاصمة انما هي "حمامية" أي ابنة الحمامات وأخوال والدي نصحوه حين عودتنا من سوريا ان يأتي هناك ويفتتح نزلا في المنطقة السياحية وهو الان مدير ليس لنزل واحد فقط انما لنزل عديدة لكن السياحة تتأثر بالوضع العام دوما في الايام العصيبة التي عاشتها تونس على وقع احداث ارهابية كان الوضع سيئا جدا اما الان فهو افضل بكثير.
- في كل مرة اعرف شيئا جديدا عنك لم اكن اتوقعه انت مليئة بالمفاجآت.

ضحكت وقالت وقد وضعت يديها بيديه:حبيبي اخيرا اجتزنا الصف الاول بنجاح لا يمكنك ان تتخيل قدر سعادتي التي اشعر بها لاجلك ولاجل نفسي.

- الحمد لله الذي بنعمته تتتم الصالحات.نجحنا وارتحنا الست مصدقة؟
- بلى لكنك لم تقل لي بعد ماذا ستدرس؟
- اظن انني سادرس قانون خاص احب ذلك.
- حقا؟ اذن لن تجدني معك في السنة القادمة فأنا سأدرس قانون عام.
- انا لم اقرر بعد سأفكر في البداية
- هل ستقضي الصيف في تونس؟
- لا ادري من المفترض ان افعل لكن لا ادري ماذا سيحصل معي ربما.
- ارجوك ابقى هنا ولا تسافر اريد الالتقاء بك في الصيف.
- ساحاول اطمئني سنلتقي بإذن الله.

في اخر السهرة وبعد منتصف الليل غادرا المقهى وأخذا يجوبان المدينة بين سوق الصوف ونهج سيدي بن عروس ونهج الباشا ونهج الحفصية ونهج سيدي محرز وباب سويقة أين جلسا على حافة الساقية ليأخذا قسطال من الراحة...كانت سعيدة به...رفعت رأسها الى السماء وقالت له:

- ستكون اخر ليلة رضانية نقضيها سويا
- اخر ليلة في رمضان هذا العام لاغير
- حقا؟
- طبعا في رمضان القادم سنكون سويا باذن الله سنعيد المجيء الى هنا ليلا نهارا مثلما فعلنا طيلة هذا الشهر.

- موافقة لكن كن عند وعدك.
- وهل عندك شك؟
- أنني احلى واغلى امرأة في الدنيا؟طبعا لا شك عندي.
- ما اتقل دماتك يا بني ادمة هيا امامي بسرعة.

رشقها بالماء فبادلته بذلك ثم اخذت حقيبتها ووضعت يدها بيده وعبرت واياه باب بنات وساحة القصبة أين ركبا السيارة التي كانت في المأوى المقابل لكلية 9 افريل وعاد الى اريانة.

كانت الساعة الواحدة والنصف عندما دخلت انغام الى البيت خلسة على اطراف اصابعها فوجدت البيت مظلما والكل قد نام دخلت الى غرفتها فوجدت اختها ساهرة على فراشها وبيدها هاتفها،رفعت رأسها وقالت:

- انغام؟
- اهلا احلام
- مساء الخير.أرأيت كم الساعة؟
- اجل رأيتها أعلم انني تأخرت طريق اريانة كان مزدحما...لقد غادرنا المقهى الساعة الثانية عشر.
- هل أوصلته؟
- اجل...أين والداك؟
- لقد تناولا السحور سويا وناما وأنا انتظرك لنتناول السحور سويا.
- تنتظرينن؟ لا اصدق
- كنت امزح معك لقد تناولته
- حسنا اذا سأذهب الى المطبخ وأتناوله قبل ان يحين موعد الامساك.
- ما يزال الوقت باكرا...قولي لي في ماذا تحدثتما؟

طرقت والدتها الباب فقالت أنغام بصوت خافت:

- يا ويلي والدتك تريد الدخول.
- تظاهري بالنوم.

ارتمت انغام على السرير وتغطت باللحاف وحين فتحت والدتها الباب قالت لأحلام:

- هل انت مستيقظة؟
- اجل مازلت ساهرة يا امي.
- سمعت صوت حديث مع من كنت تتحدثين؟
- كنت أتصل بصديقتي قلت لها انني لست في الحمامات كي اتمكن من رؤيتها لكنني سأعود في الغد.
- واختك انغام هل عادت الى البيت منذ مدة؟
- اجل منذ وقت طويل وهي نائمة الان.
- جيد نامي انت ايضا تأخرت الساعة.

اغلقت الباب فقامت انغام وزفرت زفرة طويلة وقالت:

- حمدا لله حقا نجوت بأعجوبة...دعيني اغير ثيابي.
- لا تشعلي الضوء ستتفطن امك.
- سأشغل الفانوس.
- هل جبت معه العاصمة؟
- اجل جبنا شوارع المدينة العتيقة كلها حتى تملكنا التعب ثم اوصلته حتى باب بيته.
- اين يسكن؟
- ليس بعيدا قرب محطة الاستقلال...لست اصدق انني سأعود الى الحمامات ولن أره مرة الخرى
- ماذا ستفعلين في الصيف؟
- سأحاول الالتقاء به عبر خلق حجج تجعلني آتي الى العاصمة في كل مرة.

-20-

مضت أيام ومر شهر حزيران وانغام لم تلتق بصلاح ابدا منذ رأته وآخر مرة في الكلية يوم النتيجة...كانت ايام انغام تمضي رتيبة خالية من كل شيء جميل...

كانت في شوق شديد اليه بينما يكتفي هو بالرد على الرسائل لا غير...طلبت اليه اللقاء فوعدها به دون ان يضرب لها موعدا....

اتصلت بعنان واتجهت الى العاصمة لتلتقي به في المقهى الذي يعمل به...مقهى المعازيم في "بومهل"...دخلت الى المقهى ورفعت نظاراتها الشمسية على راسها ثم تقدمت نحو النادلين المجتمعين خلف ثلاجة الايس كريم مرتدين السترات البيضاء كتب عليها اسم "المعازيم" كان عنان منشغلا بالحديث والضحك برفقة زملائه بينما اقتربت منه وقالت:

- شلونو الفلسطيني الحلو؟

رفع رأسه بدهشة قائلا:أنغام؟

قالت:هي بعينها

- ياهلا كيفك ايش اخبارك ايش عاملة بالدنيا؟صافحته مبتسمة
- حمدا لله بخير كيف انت؟ الم تعد للوطن في العيد؟
- اي عيد؟وهل نحن نعرف العيد؟ عيدي في تونس مذ اتيت الى هذه البلاد لم تغادرها وكأنها تكبانب وتشدني إليها عنوة
- جميل وكيف رايت العيد هنا؟ "

"العيد جميل كعيناك "

اقترب إليها برأسه وابتسم إليها فقالت :بسرعة اجلب الي كأس milkshake ساجلس في الطاولة اليمنى خارجا قبالة الباب"حاضر على راسي "

جلست الى الكرسي ووضعت قبالتها كرسيا اخر وأرخت قدميها لتأخذ وضعية مريحة بعد أن وضعت حقيبة يدها وهاتفها جانبا وتناولت سيجارة اشعلتها ونظرت إلى السماء مليا فشعرت بانشراح صدرها امام رحابة لونها ...وبعد بضع دقائق أتى عنان وقال لها:

تفضلي ياست الكل هاهو كأسك احلى milkshake لأحلى انغام في تونس والعالم

"شكرا عنان"

"عفوا"

"انتظر لحظة"

تراجع خطوة وقال بدهشة"ايش في"

"اجلس لو سمحت"

وضع الطبق على الطاولة وقال:خير يا طير

قالت:صديقك صلاح "

مابه؟"

"اتصل به فلا يجيب اغلق حسابه على الفيسبوك هذا عدا عن انني اوصيته أنني سألتقي به بعد العيد لقد اتيت الى العاصمة لأنني لم اجد حلا اخر عدا أن اعثر على بيته أو اتعثر باحد أصدقائه قال"الم يخبرك ؟"

"لا بماذا؟"

"لقد عاد إلى غزة"

"لا غير معقول لا تقل هذا ارجوك"

"لماذا لم يخبرك"

لا ادري انا ايضا استغرب لهذا... بعرفو وقسما بالله ماحدا بيعرفو متلي من وقت ما نجح مابقا شايف حدا قدامو لك ليش ما بيقول انو رايح ليش بيختفي بهالطريقة صديقك مو طبيعي منوب"

"لا تهتمي أنه في نقاهة سيفتح حسابه بعد أيام أو ربما يجيبك على الهاتف اطمئني يريد أن يتذكر أنه فلسطيني لا اكثر"

ضحكت انغام واضحة يديها على جبهتها متشابكتين وقالت:

- مو معقول أجيت عالعاصمة عالفاضي بس بتعرف شي

- شو

- يا دوب وصلت للعاصمة حسيت انها فاضية ما بعرف كيف حسيت ما فيا ريحة صلاح

- روحي ع غزة بتبقي بتشمي ريحتو

- اتعلم لقد أخطأت

- بماذا ؟ بعشقي لفلسطيني

- هه

- انه مولع بغزة وغير قادر على نسيانها اشعر بتعلقه الشديد بها انه ينتظر الصيف بفارغ الصبر كي يذهب إليها ويمشي في شوارعها

- اتركيه لعشقه لقد ابتلاه الله بحب غزة كما ابتلاك انت بالشام

- لقد قلت له مارايك أن نتزوج ونذهب لنعيش في الشام لكنه ابى وقال انه لن يقبل بالعيش في مكان اخر سوى غزة فأمرته أن ينسى أمر الزواج

- لماذا مابها غزة؟

- عنان انا صح بدي جيب ولاد بس مشان ربيهن مو مشان يموتو وافضل لحالي

اشعل سيجارة اخذها من جيبه وقال:معك حق بزمناتي وقت كنت عايش بفلسطين كانت القذايف والصواريخ تنزل فوق راسنا لدرجة انو نشوف الموت وممنعرفش اذا رح يكون آخر يوم بحياتنا والا ربك لسا كاتبلنا عمر

- انت من اي محافظة

- انا من جنين

-اذا لست من غزة كصلاح

- لا

- اتدري صلاح لم يحدثني يوما عن حياته في فلسطين

- هذا عادي لا تلوميه في العادة الواحد بيحبش يحكي عن وجعو

- هو عاش حرب ال2009 وال2014 وماحكالي شي

- احنا حربنا كل يوم وكل لحظة مش بالسنوات

- اي والله مزبوط بتعرف شي احنا بالشام صرنا متلكن....كل يوم موت ودم وخسارات...كل عيد ينقصنا شيء من الفرح وكل مناسبة ينقصنا شخص وفي كل رمضان هناك كرسي او اكثر فارغ حول الطاولة...تم استنزافنا حتى لم يبقى بحوزتنا شيء وصار اهم اهدافنا ان نفر بأنفسنا من الموت...كل الناس هناك اصبحوا يشعرون بفراغ كبير في اعماقهم وبهاجس الموت...يسكنهم كل لحظة صدقني امي من اتت معنا الى تونس وهي تحيا حياة بلا حياة لم تشأ يوما ان تغادر سوريا حتى بعد ما حصل هناك...لكن كانت مرغمة لانها كانت تخشى على حياتنا وحياة ابي وتصر على الا نضيع مستقبلنا انا واختي...لقد وهبتنا حياتها ولاجلنا عاشت حياة لا تريدها انها لا ترى الحياة في غير دمشق....لقد خسرت عددا لا تستهان به من افراد عائلتها وحتى القلة الباقية لم تبقى كما كانت عليه فمنهم من هاجر ومنهم من نزح الى لبنان ومنهم تشرد في شوارع دمشق بعد فقدهم بيوتهم يحزنني حال امي...اتمنى ان اراها سعيدة لكن سعادتها في سعادة دمشق لا غير.

- معها حق لا غنى عن الوطن حتى ولو اضحى العيش فيه جحيما...لا اذكر يوما انني كرهت جنين رغم انني كلما عدت بالذاكرة الى ايام الطفولة احصيت عددا لا يستهان به من الذكريات المأساوية وحين ابحث عن ذكريات سعيدة لا اجدها الا بمشقة مع ذلك فإن لي حنين يربطني بجنين لا يمكنني التغلب عليه

- هل خسرت افرادا من عائلتك هناك؟

- اجل كثيرا...في احدى المرات وفي ليلة سوداء هاجمنا جيش الاحتلال واخذوا خالي الصغير معهم واعتقلوه واستشهد خالي الاكبر سنا وراح بيت سيدي (جدي) بالقصف.

- أتقصد بيت جدك؟

- اجل ومازلت الخسارات تتالى...لي عم استشهد مؤخرا في مسيرات العودة.يا ويلي اظن ان صلاح ايضا قد عاش اشياء كهذه لكنه لن يخبر احدا عنها...هكذا هو صديقك لا يحبذ التحدث عن نفسه او حياته ان طرحت عليه سؤالا اجابك والا فسيفضل الصمت...حقا لقد اغضبني كثيرا بفعلته هذه...لماذا لم يخبرني على الاقل بذهابه الى غزة.حين طلبت منه اللقاء وعدني بذلك وقال في وقت لاحق...لم اكن ادري انه كان يحدثني من فلسطين.

- ربما لم يرغب في ازعاجك انه يعلم ان علمك بسفره سيغير مزاجك وسيحزنك وهو لم يشأ ذلك.

جاء الى الطاولة أحد زملاء عنان وقال له:

- ما بك عنان؟أتجلس مع الزبائن وتتحدث وتهمل عملك؟ لو رآك المدير ماذا سيفعل بك هيا تعال لدنيا طلبات كثيرة عليك تحضيرها.
- انا قادم.أعتذر يا انغام لقد تأخرت وعلي تاعودة الى عملي استمتعي بوقتك هذه الصائفة ولا تفكري كثيرا في الامر...لعله يعود قبل انتهاء الصيف...انتبهي الى نفسك.باي.

"ترك عنان طاولتي بينما تركت انا الكرسي وذهبت نحو السيارة لاعود ادراجي الى الحمامات...شعرت ببرودة تسري في اطرافي وببطئ في خفقان قلبي...رفعت رأسي الى السماء و شعرت كأنني بقيت لوحدي على هذه الارض..لا شيء يغريني بالبقاء هنا...شعرت لوهلة بالرغبة في السفر الى فلسطين...ولكن ذلك مان شيئا مستحيلا... تركت المقهى بعد ان دفعت الحساب وركبت السيارة وصلت الى الحمامات...توقفت امام البحر ونزلت لاجلس على الشاطئ على حافة الماء...نزعت حذائي من قدمي وأطلقتهما نحو الزبد الذي كان يغمرهما متسارع الخطى نحو الرمال بعد انكسار الموج...تأملت الافق وتمنيت لو أني اخترق هذا البحر واصل اليك لاعطيك درسا في الوفاء والصداقة والحب...نظرت مليا الى المياة الواسعة التي تمتد الى ما خلف الافق ثم قلت في نفشي بهدوء"أي غبي انت؟"

اختفى قرص الشمس خلف المياه وساد الظلام واشتعلت اضواء المدينة وبدا مقهى سيدي بوحديد قبالتي مزدانا بالاضواء ومكتظا بالناس وقد انبعث من خلف زجاجه صوت ضجيجهم واحاديثهم المختلطة أما في الجهة اليمنى فرأيت عن بعد الحمامت الجنوبية تظهر على الضفة المقابلة وسفينة سياحية مضيئة تنبعث منها اصوات الموسيقى والصخب التي تخترق المياه الهوينى.

عدت الى البيت بصمت وانا امسك الدموع بصعوبة بين جفني...ارتميت على الفراش معانقة الوسادة التي دفنت وجهي فيها واستسلمت للبكاء...دخلت اختي فجأة الى الغرفة فاستغربت لامري واقتربت الي لتبعد شعري عن وجهي قائلة:

- اختي ما بك لماذا تبكين؟

ضمتني احلام اليها فواصلت البكاء على كتفها...شعرت في تلك اللحظة ان الاخت نعمة من السماء...شيء يفوق الجمال تبعث به المشيئة الالاهية اليك لتخفف عنك كل شيء يصيبك...لم اجب اختي وقتها فسألتني مجددا: ما بك ماذا جرى؟ هل حدث بينك وبينه شيء في العاصمة؟

- لا انه ليس في العاصمة ولا في تونس اصلا.
- ماذا؟
- لقد عاد الى فلسطين ولم يخبرني.
- ولماذا؟ يفعل بك هذا؟
- لا ادري...لقد أغضبني...لا اريد التحدث اليه ولا الحدث عنه.
- انسيه هذه الفترة لعل غضبك ينطفئ وقلبك يصفو."

كان حزنها عميقا...لكنني لم اكن انا السبب هذه المرة...فالبشر احيانا يؤذون بعضهم البعض ثم يلقون باللوم علي...اخذت انغام ترتدي البحر كل يوم وتطيل المكوث هناك محاولة نسيان رقمه وتجنب الاتصال به ...محاولة تناسي صوته...ملامحه...حركاته...كلماته...ملامحه التي كانت تحب إطالة النظر فيها...وكل اللحظات والامكنة التي جمعتهما..وفي احدى الياالي الصيفية الحارة بعث اليها بكلمة"مرحبا" على موقع التواصل الاجتماعي...فكتبت اليه:

" أبلغ عزيزا في ثنايا القلب منزله

أني وان كنتت لا القاه القاه

وإن طرفي موصول برؤيته

وان تباعد عن سكناي سكناه

ياليته يعلم اني لست اذكره

وكيف اذكره اذ لست انساه"

كانت مترددة بين زر"بعث أو"مسح" ثم بعثت بالابيات الشعرية اليه

"في غزة...

مدينة الصمود....مدينة الاضواء...مدينة الضجيج...مدينة الشاطئ الجميل...

مدينة الصمود والمقاومة..

كنت ساهرا على سريره وعيناي تتأملان السماء التي اشتدت سوادا وتكاثرت في وسطها النجوم حتى بدت متلاصقة تتزاحم لافتكاك امكنتها....الساعة المعلقة الى يساري على حائط الغرفة تشير الى الثانية بعد منتصف الليل...سحبت نفسا طويلا من السيجارة ونفثته في الهواء...فجأة اضيء هاتفي ثم إنطفأ سريعا...لم انهض لارى من المتصل...تمايلت ودرت على يميني قبالة الحائط وقد ثقلت أهدابي وبدأ النعاس يداهمني...تذكرتك فجأة فتساءلت في نفسي

"تراك ماذا تفعلين في هذه اللحظة؟هل تفكرين في مثلما افكر فيك الان؟ اتراك تقضين وقتك في التسلية مع صديقاتك او ربما برفقة احدهم..لماذا تداهمينني في وقت كهذا يا أنغام؟لماذا تقتحمينني في ساعة متأخرة من الذاكرة لتعكري صفاء ليلي؟ سامحك الله."

لم اتغلب على نعاسي ولم اقدر على مقاومة الثقل الذي نزل على جفناي فنمت بعمق شديد وأظنك نمت انت بإنتظار اجابتي وبعد أن تقينت انني قد غفوت ولم انتبه الى رسالتك...

في الغد سطعت الشمس الصيفية الحارة على نافذة غرفتي...كان صوت والدتي يعلو من ارجاء البيت:

- صلاح يلا يا حبيبي اصحى الدنيا صارت الظهر وانت اسا ناي ميلا يا عيوني الله يرضى عليك...مشبعتش نوم والا ايش؟ما تركتك مبارحه فتت عقوضتك بكير؟...يلا يا حبيبي الساعة وحدة ظهر عاوزين نفطر ما فيناش نفطر بلاك قوم غسل وشك وتعا الله يرضى عليك
- يلا يما فقت فقت بلاش تنقي علي جايي.

ذهبت مسرعا نحو الحمام وغسلت وجهي وامسكت بالمنشفة لتجفيفه ثم دخلت غرفتي واخذت هاتفي الذي وجدت فيه رسالتك التي كانت قد وصلتني البارحة ليلا ولم افتحها قرأت الشعر وشعرت بنوع من الندم لأني كنت قد فضلت النوم على رؤية الرسالة...غمرني شغف كبير برؤية حروفك قرأتها على مهل...وأعدت قراءتها مرات عديدة ثم كتبت اليك بلهفة:"صباحك ياهبلة" فنادته والدته"ولك تعال بقا" فأجبتها"يلا اجيت يما اجيت"....وضعت الهاتف على الطاولة بجانبي وقلت"بسم الله"

قال والدي: هلقيت لصحيت؟

- اسف يابا كنت سهران البارحة بالليل ونمت متأخر.
- وين سهران؟
- بقوضتي يعني وين راح بسهر؟
- ايش بدك تاكل؟ محاشي؟ والا اسكبلك شوربة بالاول؟
- لا شوربة بالاول.
- ماشي هات صحنك.

عادت انغام من البحر الى بيتها مبللة الشعر سمراء البرة وقد علقت بقدميها حبات الرمل...وهي ترتدي فستانا وردي اللون وتحمي عينيها بنظارات شمسية وتغطي رأسها بقبعة كبيرة مصنوعة من السعف...أغلقت باب البيت وعبرت ممرة الحديقة ثم فتحت حقيبتها الشاطئية واخذت منها المفاتيح ووضعت احدها في قفل الباب وادارته ودخلت بعد ان نزعت القبعة عن رأسها...ذهبت الى امها في المطبخ فقالت"مرحبا امي"

- اهلا عزيزتي تأخرت أمنذ الساعة السابعة الى الان وانت في البحر؟ستصبحين سوداء اللون اذا بقيت على هذا النسق كل يوم.
- لو انك كنت برفقتي اليوم يا ماما لو رأيت البحر اليوم ما اجمله...كان هادئا جدا لكن الشمس اصبحت حارة بعد الساعة العاشرة.
- هيا ادخلي الى الحمام سريعا واستحمي حتى تساعديني بتحضير الفطور.
- لكنني متعبة وفي حاجة الى بعض الراحة اين هي احلام؟.
- انها في غرفتها
- ألا تنادينهالمساعدتك ام انها الصغيرة المدللة التي لا تدخل الى المطبخ الا من اجل الاكل وانا هنا العاملة والطبقة الكادحة التي تقوم بكل شيء بلا مقابل.
- حسنا يكفي ثرثة وصراخا ناديها كي تساعدني واذهبي انت للراحة.
- حاضر
- اسمعي اذهبي الى الحمام وانا سأجلب اليك ثيابك ومنشفتك.
- شكرا ماما

دخلت انغام الى الحمام ونزعت فستانها وثيابها الداخلية وصعدت الى "البانيو" وفتحت الحنفية وامسكت بها لتدع قطرات الماء الباردة تتناثر عليها اخذت الصابون وغطت جسدها برغوته ثم فركت شعرها بالشامبو فدخلت امها ووضعت المنشفة والفستان وقالت:

- ها هي ثيابك
- شكرا امي

ثم سمعت صوتها تصرخ من المطبخ:

- هيا احلام الا تسمعين ام تتكاسلين قلت لك تعالي لمساعدتي يكفي كسلا
- ها انت قدمت لو كنت عادلة لكنت سمحت ليي بالذهاب بمفردي الى البحر كما تفعلين مع انغام ام هي افضل مني؟
- اختك انغام لا اخاف عليها اذا ذهبت بمفردها فهي تجيد السباحة اكثر منك اما انت فان اردت الذهاب اذهبي بررفقتها او برفقة صديقاتك اما لوحدك انسي الامر.

خرجت انغام من الحمام واضعة المنشفة على رأسها وقالت لاختها بسخرية:

- حمقاء ومغرورة تعلمي السباحة اولا ثم اذهبي للبحر بمفردك...تريدين تقليدي في كل شيء وانت تعلمين انه لا يمكنك ذلك...انا لا احد يشبهني او ينجح في تقليدي.
- هل سمعت ابنتك يا امي ماذا تقول؟ لا ادري من المغرورة أنا ام انت.
- اصمتي يا حمقاء.

- اذهبي الى غرفتك وافتحي هاتفك فأحدهم ازعجني بالرسائل والمكالمات التي بعث بها اليك باستمرار طوال الصباح...اظن انه ليس من صديقاتك.
- ولماذا لم تجيبيه انت او تخبريه بأن اختك ليست في البيت.
- هي لا تريدني ان اضع يدي على هاتفها.
- صحيح هكذا افضل انا سأجيبه انت لا علاقة لك بالامر.

ذهبت مسرعة الى غرفتها فقالت اختها ضاحكة"اسرعي لقد ملّ من الانتظار هذا المسكين."

فتحت الهاتف ورأت الرسالة فأجابت سريعا "جعل الله يومك عطرا كالمسك والعنبر."

وصلت اليه الرسالة فوضع رغيف الخبز على الطاولة واخذ هاتفه بيده اليسرى وقرأ الرسالة فترك الطاولة قائلا"الحمدلله شبعت" وهو يحاول اخفاء ابتسامته والبهجة التي بدت جلية في عينيه امام والديه...استغربت امه قائلة:

- بس ما اكلت اشي يا ابني.
- الحمدلله شبعت يامّا ونعم الكريم.

اسرع الى غرفته واتصل بها فقالت بفرح:

- مرحبا يا مجنون.
- كيفك يا هبلة.
- الحمدلله تمام مبسوطة بشوفتك.
- من وين عم تشوفيني؟
- قصدي مبسوطة بسماع صوتك حاجتك غلاظة.
- أي منيح انا حبيت اعتذر منك.
- على شو؟
- رسالتك بعتتيها مبارح عالساعة تنين صح؟
- لا ع الساعة 12 يمكن بتوقيتكن انتو ع الساعة تنين.
- كنت نايم وما شفتها انا عنجد اسف ما جاوبتكش.
- مو مشكلة على ماذا تعتذر؟ على انك نايم؟انشالله نوم الهنا يا قلب عادي.
- قليلي يا هبلة هلق لصحيتي؟
- لا استيقظت باكرا لكنني لم اكن في البيت ثم اني اوصيهم دائما الا يردوا على المكالمات والرسائل التي تصلني بدلا عني ولو بيضل يرن للصبح
- مساكين اهلك شو عم يتحملو.
- بيستاهلو...احكيلي كيف هي غزة؟ والله اني اخاف ان تقصف المدينة وانت فيها ارجوك انتبه الى نفسك ولا تغادر البيت ولا تمشي في الشوارع
- اين سأمشي اذا في السماء؟
- لست امزح.
- لا تخافي لن يحصل لي الا ما قدر لي.
- اتمنى ان تعود بخير يا عزيزي...انني انتظر نهاية الصائفة على احر من الجمر كي اراك مجددا
- أتنتظرينني؟

- طبعا.
- اتريدين مني ان اترك وطني؟
- اجل اريد منك ذلك هل لديك مانع؟انت ستتركه على الحالتين.ولن يأتي شهر سبمتبر حتى تجد نفسك في تونس مجددا.سنعود الى شرب القهوة في الحديقة مع القطة "بية" كما كنا في السابق.كم اشتقت الى ان ندرس سويا في المكتبة وان نقضي يومنا سويا في الكلية...كم اشتقت اليك.
- لم يبقى الكثير.
- مؤكد انك لا تريد ان تترك غزة...قل لي كيف هي غزة في الصيف؟
- انها تناديكي.
- حقا؟ وتونس تناديك ايضا...ألم تشتق الينا.
- بلى كثيرا واليك انت خاصة.
- لا تنساني حبيبي.ساحدثك دوما وسأنتظرك حتى نهاية الصيف
- وانا سأنتظر يوم عودتي الى تونس بفارغ الصبر.
- ومن هون لترجع لتونس اوعك تغرك وحدة فلسطينية.
- سأحاول.
- اوك باي.
- باي على فكرة.
- ماذا؟
- شعرك هذا الذي به الي كان اول رسالة نصية لك على ميسنجر.
- اجل صحيح.يال التفاصيل الصغيرة كم تأخذ اهتمامك يا زلمة.

الفصل الثاني:

"إن الحب يبتلع كل شيء،

حتى الصداقة،وحتى الايمان...

لأنه هو نفسه ايمان أقوى من كل ايمان..."

- توفيق الحكيم-

-1-

كانت واقفة قبالته وهي تصرخ بوجهه:لا لم أفعل هذا بك! مابك؟ هل جننت؟ لست انا من اخذلك! أنت من تخليت عني اولا! أنا لا افهم حتى ما الذي يجبرني على البقاء معك حتى الآن! أنا مجنونة! ثم التفتت لتتركه فأمسك بيديها وأدارها نحوه... نظرت في عينيه بخوف...واذا به يصفعها حتى استدار وجهها الى الناحية الاخرى وقد غطت غصلات شعرها أثر اصابعه على خدها ثم قال :سأجعلك تندمين! سترين ماذا سأفعل بنفسي لاجعلك تندمين!

ثم ركض ورمى بنفسه من أعلى قمة الصخرة الحجرية واختفى وسط لجج الظلام ...

رفعت رأسها عن الوسادة مرتعدة فوجدت اثاث غرفتها امام عينيها ثم زفرت زفرة طويلة وألقت بنفسها على الفراش متأملة سقف غرفتها وحمدت الله انه لم يكن اكثر من مجرد كابوس .... ودون أن تنظر الى الساعة في هاتفها الذي كات قد جهزت منبهه لتنهض على الساعة السابعة.....وبينما امسكت بهاتفها وأغلقت المنبه الذي زعج اختها التي استدارت الى الجنة الاخرى وعدت رأسها باللحاف دخلت والدتها وقالت وهي تنظر إليها بابتسامتها المعتادة :

- صباح الخير يا حبيبتي !

- صباح النور امي !

- هيا البسي ثيابك لتذهبي الى اريانة وتقومي بالتسجيل !

- حاضر !

- هيا بسرعة جهزت لك فطورك مع كأس شاي كما تحبينه .

اغلقت والدتها الباب بينما وضعت رأسها من جديد على الوسادة متثاقلة وقد تكاسلت على للنهوض الذهاب إلى الكلية في هذا الحر وبعد الفصل الطويل من الراحة والاستجمام....وحين تذكرت انها ستحظى برؤيته قفزت من الفراش وارتدت فستانا كستنائيا مليئا بالورود الصغيرة الزهرية اللون ثم أخذت حقيبة بعدها الزهرة وارتدت البلوزة الجينز وقد تكحلت ورسمت شفتاها بحمرة قانعة ثم ذهبت نحو المطبخ وعانقت انها من الخلف مقبلة اياما على خدها الأسمنت قائلة لها بفرح وانشراح :

- صباحك شامي يا احلا أم بالدني !

- مشان الله خليني رايقة أنا وين والشام وين !

- ما أجمل هذه الطاولة آكل هذا لي ؟

- لا اتركي منه قليلا للحارس ان شئت....طبعا لك خففي من قبل دمك يا ابنتي .

- حاضر...لا تلوميني إن لم اترك فيه شيئا.

- كلي بالعافية اسمعي يا انغام والدك لديه عمل لن يقدر على ايصالك الى الكلية لذلك ترك السيارة للسائق "محمد علي" سيكون هنا امام البيت الساعة الثامنة ليأخذك الى 10 ديسمبر .

- حسنا يا امي فهمت ومنذ متى كان لأبي الوقت للاهتمام بي أو السؤال عني...لا بأس...المهم ألا يتركني أركب القطار والمترو في هذا الحر .

- اطمئني لن تركبي المترو وعليك ان تعذري ابيك فالموسم السياحي لم ينتهي بعد والسياح ما يزالون يملئون الحمامات ولذا على والدك ...

- على والدي ان ينهض باكرا للعمل والعودة ليلا نظرا لانه يملك اكبر واشهر النزل في الحمامات الجنوبية فهمت وحفظت درسي عن ظهر قلب... يلا دايمة !

- لماذا لم تكملي فطورك؟

- شبعت أنا ذاهبة !

- لكن الثامنة لم تأت بعد سأنتظر السائق في الحديقة

- لا تجلسي قبالة الشمس والا ستتعرقين وتسود بشرتك اكثر... ألم تريد لونك كيف اضحى؟

-لا يهمني !

- انغام

- نعم يا امي؟

- تثبتي من اوراقك ألم تنسي شيئا ؟

-لا لم أفعل مع السلامة !انتبهي الى نفسك.

في الطريق السيارة الى العاصمة كانت تتحدث الى رفاقها عبر "ميسنجر" بعثت له برسالة" :أننا على لقاء قريب بعيد دقائق لا غير...لا يمكنني ان أصدق كم الشوق الذي يجرفني اليك "فأجابها بعد دقائق :

- صباح الخير! ظننتك ستأتين للتسجيل في الصف الثاني... فإذا بك تأتين من اجل رؤيتي !

- أي مغرور انت؟ سآتي من اجل الأثنين ألا ترغب في رؤيتي؟

- بلى ارغب في العودة الى البقاء معك...اشتقت لاستهبالك وجنونك .

- اذا بعد دقائق سأعود اليك أنا وجنوني .هيا اسرعي أنتظرك بفارغ صبري... .

بعد دقائق وصلت امام الكلية ونزلت من السيارة بشوق بعد أن سألها السائق :

- مادوموازيل انغام هل أنتظرك حتى تستكملي إجراءات الترسيم وتأتين لارجعك الى الحمامات؟

- لا لا تفعل احذر ان تعود الي سأرجع الى الحمامات بنفسي .

- لكن السيد منذر قد اوصاني بك كيف ستعودين بمفردك؟

- سأتدبر امري...لا تهتم عد الى الحمامات .

- لكن !

- يكفي ارجوك لا تخف من والدي أنا من سأتحدث معهما .

- حاضر مادوموازيل انغام.وفقك الله !

- شكرا.طريق السلامة !

دخلت الى الكلية وقلبها يسرع الخطى نحوه قبل قدميها ! وهناك التقت بكل من تعرفهم وبادلتهم التحية والاحاديث...أخذت تبحث عنه فقالت لها منى :

- لقد رأيتها في محاضرة الاستاذ قيس سعيد أنا قد غادرت القاعة للتو!انها محاضرة شيقة اذهبي اذا شئت .

- الاستاذ قيس سعيد يلقي محاضرة؟ في أي قاعة؟

- القاعة14 .

دخلت الى القاعة التي كانت ممتلئة بالطلبة اللذين اتجه انتباههم إليه وهو يلقي كلماته على المنصة امام الميكروفون !جلست في الصف الأخير على الكرسي الايسر بعد أن قالت للفتيات المحاذيات:

- صباح الخير !

فأجبن بابتسامة صفراوية: صباح النور !

حاولت البحث عنه بعينيها فلم تره ...بعد دقائق انتهت المحاضرة! وغادر الجميع بينما بقيت هي جالسة على كرسيها تراقب الطلبة المغادرين للقاعة واحدا واحدا حتى رأته هو في الكراسي الامامية وقد وقف وهم المغادرة وهو بصدد الحديث مع حمزة ركضت إليه سريعا وهما بمصافحته قائلة:

- صباح الخير شباب! كيف حالك صلاح؟وانت حمزة ؟ هل انتم بخير؟

- اجل الحمدالله !

- انغام !هل قمت بالترسيم؟

- لا مازلت كنت في المحاضرة مثلكما الآن سأذهب للتسجيل .

انسحب حمزة قائلا :وفقك الله انغام أراك لاحقا صلاح عن اذنكما .

- عن اذنك حمزة .

قال صلاح: كيف أنت عزيزتي كم اشتقت اليك وكم انتظرت هذا اليوم !

تأملته بصمت ثم قفزت وعانقته عناقا طويلا فرفعها بين ذراعيه وقبل شعرها بينما طبعت هي قبلة على رقبته من الخلف وقالت :

- غير معقول! كيف صبرت على رؤيتك كل هذا الوقت؟ لعنك الله. اظننت أنني سامحتك؟ لن انسى ابدا انك ذهبت إلى غزة دون أن تخبرني أو تطلب رؤيتي أو تودعني!

- عزيزتي أنا لم أفعل هذا لأن هذا! لا أريد اللقاءات الأخيرة والوداعات والدموع والوعد بالعودة... ماذا كنت تريدين مني؟ ان تعانقيني وتقولي عدني ان تعود واقول لك أعدك بذلك! عزيزتي انه ليس فيلما عدا عن ذلك فمن يذهب الى غزة لا يمكنه وعدك بالعودة !

أخذ صدى صوته يتردد في ارجاء تلك القاعة الكبيرة وهي تتأمله بصمت ثم غرست رأسها في ضلوعه وأخذت تضمه إليها بقوة .... امسك بخصرها بيده وقال لها:

- تعالي عزيزتي ! سنذهب الى البوفيت ونشرب قهوة سويا ساحدثك عن غزة .

- كم اشتقت لفعل ذلك ! هيا لنذهب !

اخذا القهوة وذهبا سويا الى الحديقة توقفا هناك امام القاعة رقم 16 واخذا يتحدثان قال لها

- تذكرت اشياء كثيرة من طفولتي .

- من طفولتك؟ لماذا ؟ كم من سنة مرت على تركك غزة؟ لم تأت الى تونس الا منذ ثلاث سنوات... وهل انت لاجئ هنا ؟ حبيبي تونس وطنك تماما كفلسطين .

- اعرف ذلك لكن هناك شعرت بشيء آخر تماما لا يشبه وجودي في أي مكان مختلف. زرت الأسواق وجبت ازقة جارتي وعبرت مدرستي أيام طفولتي حتى أنني ذهبت إلى البحر وسبحت هناك ....تذكرت ايام صغري وقد كنت العب على الشاطئ .

- لا أفعلت كل هذا؟! اسمع لا يجب ان تحدثني هنا عن غزة ما رأيك ان نغادر الكلية الى مكان ما! نتفسح ونفطر ونقضي المساء كله سويا.

- موافق اذا اذهبي الآن وسجلي وأنا سأفعل ايضا ومن ثم نغادر لكن الى أين سنذهب؟

- سنذهب الى حيث ستأخذنا القلوب.
بعد اتمام إجراءات التسجيل ركبا المترو رقم *2* واتجها الى الباساج أين اخذا بالسير الى محطة ال TGM ومن هناك جلسا بانتظاره قطار المنطقة الشمالية...قالت له:
- اين تريد ان نذهب؟ قرطاج ام سيدي بوسعيد أم المرسى أم حلق الوادي؟!
- لا اعرف اتصدقين؟ اشتقت إليها جميعا!
- وأنا كذلك؟
جاء القطار الأزرق مسرعا معلنا عن قدونه بصفارته عالية الصوت...
ركبا واجتلسا كرسيين...كانا ينظران الى المشهد المائي حذوهما من النافذة يلقيان ببصرهما بعيدا والماء يمتد من الجانبين ويبرز من خلفه مشهد المدينة الشمالي يمينا وجناحها الجنوبي شمالا...نزلا في سيدي بوسعيد...قالت له:

- ما رأيك ان نأكل شيئا هنا؟
- جميل هل تعرفين مطعما جيدا؟
- اجل طبعا!هيا.
جلسا في مطعم قريب وطلبا سندويتشين وكوبي عصير برتقالي قال لها:
- اخبريني كيف كان صيفك؟
- كان مليئا بك! لماذا رحلت الى فلسطين؟ اتعلم كيف مر الوقت هنا بدونم؟ لعنك الله من غبي. لا تفعل مجددا والا فستفقدني تماما كما فقدتك طوال هذه الصائفة.
- وكيف ذلك؟
- بطريقتي سترى ذلك.
- صدقيني لم يكن الامر بيدي يا عزيزتي ! والداي قررا العودة لفلسطين فذهبت برفقتهما أنا واخي.
جيد كيف كان الوضع هناك؟ هل كانت غزة في سلام؟ !
- كانت آمنة بعض الشيء لكن هذا لا يمنع حدوث مناوشات واشتباكات من حين لاخر.
- يا ويلي! المهم انك بخير صدقني خفت عليك كثيرا ودعوت بأن تكون بالسلام.هل رأيت اهلك ورفاقك هناك!
- اجل فعلت يا الله! يا الله على الايام الي كنت فيها هناك...وقت كنت صغير....وقت كنت أركض بين شوارع غزة وانهجها وازقتها وبين بيوتها وعلى شاطئها لن انسى ابدا ايام المدرسة والاعدادي والتوجيهي هناك ايام كنت أبعد امام باب بيتي مع اصدقائي وتناديني امي من نافذة غرفتي لاصعد الفطور لن انسى سهري مع رفاقي حتى آخر الليل على عتبة المنزل نتبادل الأحاديث ونغازل البنات العابرات الطريق ...على فكرة ربما لم اخبرك بذلك من قبل أنا ابن مخيم النصيرات هناك عشت طفولتي وكبرت وتعلمت وتحصلت هناك على البكالوريا.
- هل كنت في غزة في حرب ال2009؟
- اجل طبعا...كانت القذائف تتساقط كل لحظة على بيوتنا ومدننا....والقصف لا يستثني احدا من وباله ...وشروره... كنت لا ننام بفعل صوت القذائف والانفجارات....تشرد نصف مخيمي وتيتم النصف الآخر...أما عنا فتركنا ذلك المخيم في تلك السنة وسافرنا الى الاردن وأقمنا سنة كاملة في العاصمة الاردنية عمان ثم عدنا الى غزة أين درست أنا واختي الصغرى هناك وبعد البكالوريا قررت الدراسة في تونس مع كل اصدقائي اللذين تعرفينهم منهم من هو من غزة ومن جنين ومن نابلس وغيرها...
- لكنني لن اغفر لك ذهابك هذا دون علمي.
ضحك وقال : اتعرفين الشاعر العراقي ابن زريق؟
- لا لم اسمع عنه مطلقا.
- انه شاعر لم يعرف له اكثر من قصيدة واحدة سميت القصيدة اليتيمة عاش في العصر العباسي وسافر الى الاندلس حين سمع هنالك ان أحد الوجهاء يعطي مالا لكل من يقول فيه مدحا فقد كان مهووسا بجمع المال ويطمح في رغد العيش ولم يترك خلفه في بغداد إلا زوجة يحبها كثيرا نصحته ألا يسافر!

وكان في نصيحتها خيراله فبوصوله الى الاندلس لم يوفق في ما طمح إليه فاشتد مرضه وضعف حاله وقرر العودة الى بغداد التي لم يصل اليها وكان في الطريق ووجدوا بحوزته رسالة لزوجته كانت قصيدة هي الوحيدة التي ذكرت له.
- وماذا قال فيها؟
- لا احفظها كلها فقط مقطع صغير هو الاربع ابيات الاولى.
- اجل ألقها علي.

وضعت مرفقيها على الطاولة وكفيها تحت ذقنها وقربت وجهها نحوه وهي تنصت إليه بشغف...حمحم قليلا وقال: هي قصيدة موجهة لزوجه

- نعم

يقول فيها "لا تعذليه فإن العذل يولعه

قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في نصحه حدا أضر به

من حيث قدرت ان النصح ينفعه

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من

عذله فهو مضنى القلب موجعه

قد كان مضطلعا بالخطب يحمله

فضيقت بخطوب الظهر اضلعه

- الله ما هذا؟ ما هذه الكلمات الجميلة؟ والله وطلعت تعرف الشعر يا صلاح يا أبن ام صلاح!ايه ده يا واد.

- ثم يقول في حديثه عن بغداد وزوجته:

استودع الله في بغداد لي قمرا

بالكرخ من فلك الازرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني

صفو الحياة واني لا اودعه

وكم تشفع بي ان لا افارقه

وللضرورات حال لا تشفعه

وكم تشبثت بي يوم الرحيل ضحى

وادمعي متسهلات وأدمعه.

ذهبا الى مقبرة سيدي بوسعيد وجلسا على صخرة تحت الشجرة قبالة البحر يتأملان الغروب قالت له :

- لا أصدق ان الغروب قد جاء سريعا لقد غربت الشمس الى أين سنذهب الان؟

- أين سنرتحل؟ ألن تعودي الى الحمامات .

- لا لا ارغب في العودة أريد البقاء هنا لاحتفل برؤيتك لاستمتع بالبقاء اليك اكثر .

- اين ستنامين الليلة اذا؟ هل اتفقت مع منى لتنامي عندها؟

- لا لم أتحدث إليها بشأن هذا .

التفتت اليه وقالت :أريد أن نبقى سويا حتى الصباح....ان نرى الشروق سويا ونشهد طلوع الشمس...أتذكر أننا كنا نسهر سويا في ليالي رمضان ولكننا لم نقدر على البقاء حتى شروق الشمس بسبب الفحوص ولم نقدر على السباحة بسبب المطر اتذكر؟

- أذكر! اراك الان تريدين التعويض عن تلك الايام .

- اجل أريد ان اقوم بكل ما لم اقم به في تلك الايام في ليلة واحدة..أنا لن أعود الحمامات قبل الصباح أما عنك فإذا كنت اريد العودة وتخاف من ردة فعل اصدقائك فإذهب سأبقى هنا لاتسكع في الشوارع بمفردي

- رغم اني اعرف أنه من الصعب جدا ألا أعود الليلة الى البيت لكن لا بأس ساحاول ذلك في النهاية لا يمكنني تركك بمفردك هنا حتى الصباح أنت فتاة !

- ألن تتركني بمفردي هنا حتى الصباح لأنني فتاة؟

- لا ليس كذلك بل لأنك فتاتي !

- اذا كان الامر كذلك فأنا موافقة .

- على ماذا؟

- على البقاء معك

- ألست من اقترح الامر؟هل تريدين ان تفقديني عقلي أم ماذا؟

- أنت من أردت البقاء معي أنا لم ارغمك

- حسنا كما تريدين

- أرأيت كيف بدأ الظلام يسدل ستاره ويستر كل شيء حولنا....حتى السفن الراسية هناك اشعلت اضوائها حتى بدت كنقاط ضوء صغيرة مشتعلة تزين البحر وتفضله عن السماء...ما أجمل هذه النسمات التي تغمرنا! انها تشعرني بالدفئ !

- انه مكان جميل جدا لم اكن اعرفه .

- أرأيت أنا لا اخذك ألا للاماكن الجميلة... .التي تشبه عينيك!...

- عزيزتي كل اللحظات التي اعيشها معك جميلة حتى لو كانت داخل اسوار ذلك المعقل الذي ندرس فيه....ليس بالضرورة على الشاطئ أو في اعالي الجبال .

- وأنا كذلك يكفيني أن أكون معك...اتعلم احيانا يتكفل الصمت بقول كل شيء بدلا عن الكلمات .

تعانقا تحت تلك الشجرة حتى حل الظلام...نزلا نسيت الى الميناء ثم جلسا للعشاء في إحدى المطاعم ذو الواجهات المرتفعة والمطلة على البحر ..كانا جالسين الى الطاولة امام الاكل والغلال رفعت رأسخها الى السماء وقال :لا أحد يراها هنا عدا هذه النجوم التي تحرسنا...لا أصدق كم أنا سعيدة !

- أنا كذلك كل شيء هنا جميل وهادئ

- غادرا المطعم الساعة الثانية عشر تماما...

قالت له :سنتمشى حتى تصل الى مقهى الميناء .

- لم أتوقع قط أنني سأكون هنا في ساعة متأخرة من الليل كهذه..من المفترض ان تكوني الان في الحمامات وأنا في اريانة .

- دعنا تخترق العادي ونكسر المفروض ولو لمرة واحدة...انها الليلة الأخيرة التي سنقضيها سويا على شاطئ البحر قبل حلول الليالي الشتاية الباردة...

- تخيل ماذا يفعل والداي الآن وماذا تراهما يقولان لبعضهما .

- اظن أنهما سيجنان قريبا ترى الى أين وصل الشجار بينهما؟ أتصلي بهما

- اطمئن تركت اليهما رسالة عند الظهيرة واخبرتها بأنني سأنام عند منى أنا اقصد ان والداي سيتشاجران لاني قررت النوم عند منى دون اعلامهما مسبقا بذلك .

ثم ضحكت فضحك واياها وقال :هل تفعلين كل هذا لاجلي .

ابتسمت إليه : صدقني لا ادري إن كنت افعله لاجلك ام لاجلي....فقط ارغب في الشعور بشيء من الحرية لا غير .

- افهم ذلك لكن هل لديك ثقة عمياء بي الى هذه الدرجة؟

توقفت ونظرت في عينيه بدهشة :وهل لديك القدرة على ايذائي؟

- لا ابدا .اذا أنا أثق بك...أثق بكل من اشعر ناحيته بالارتياح .

رن فجأة هاتفها فكان صوت امها يحدثها :مرحبا امي .

- هل انت في بيت منى يا عزيزتي؟

-اجل ولم صوتك هكذا؟

- كنت نائمة والان استيقظت .

- اسفة يا ابنتي فقط اتصلت لاخبرك ان ايام اوصاك ان تعودي غدا صباح باكرا .

- حاضر يا امي طابت ليلتك .

اغلقت المكالمة وقالت :

- اتعلم أين انا الان؟

- اين؟

- في بيت منى انام بجانبها في الغرفة على السرير المحاذي .

ضحكا سويا وهما يمشيان خطوة خطوة قالت له :

- انظر...ما تزال اضواء المقهى تعمل يبدو انها لم تغلق بعد.هيا لنصل الى هناك ثم نعود على اعقابنا . كان الرصيف خاليا الا من بعض المارة وسيارات معدودات والمصابيح المضاءة وصوت البحر والضجيج الخافت القادمة من المقهى الذي ينبعث منه صوت غسل الصحون وتوظيب الكؤوس واحاديث العملة هناك .

بقيا يمشيان بهدوء وبطئ حتى عادا الى الشاطئ واجتلسا الرمال فقالت :

- وماذا الان؟ لا ادري أي شيء ترغبين به سنفعله! المهم ان تكوني سعيدة !

- اشعر بالنعاس صلاح .

- وأنا كذلك بالرغم عن القهوة التي شربناها منذ قليل كي نسهر .يبدو ان مفعولها قد زال ماذا سنفعل الان؟ سننام !هل جننت؟ ننام هنا؟ وما الحل؟ ما رأيك ان ننام بالتداول!

- سأضع رأسي على كتفيك حتى يغمرني النهاية ولحظة أستيقظ ستضع رأسك على فخذي حتى تنام.وحين تطلع الشمس سيعود كل منا الى بيته. ما رأيك؟

- المهم أنني برفقتك الآن .

جلست بين كتفيه اتصل به صديقه انس بعد لحظات فاجاب :الو

- الو صلاح أين انت؟

- انني عند حمزة زميلي في الكلية.اظن أنني سأنام عنده

- حسنا انتبه الى نفسك حسنا اسمع تعال غدا صباحا .

- سأفعل... تصبح على خير.

أغلق الخط ملتفتا إليها فقالت:اشعر بالذنب .

- لماذا؟

- لأنك بسببي لن تنام في بيتك .

- عزيزتي هذا لا يزعجني ابدا سأنام طوال الشتاء لكن هذه اللحظة لن تتكرر مرتين ...ليتها تتكرر..

- هيا لتضعي رأسك على صدري لعلك تنامين

نزع جاكيته ووضعها على كتفيها بينما اراحت رأسها على صدره واغمضت عينيها لتهتز ببطئ شديد على نسق انفاسه الهادئة وتطغى أصوات الامواج على مسمعها...أخذت انفاسها تتصاعد وتتنازل بهدوء وأخذ هو يتحدث إليها قائلا :

- اتعلمين يا عزيزتي ؟ اشعر بتحول كبير طرأ على حياتي منذ لحظة عرفتك واحسست اتجاهك بشيء لن اجربه مع احداهن قبلك من الفتيات

قال:... انغام؟

فلم أتجبه ولكنها اومأت له قائلة:مممم .

قال: اتعلمين انك تشبهين اسمك كثيرا؟ انت كالنغمات التي تجمل كل شيء فتكسر الايام الرتيبة وتلونها وتمحو الاوقات الصعبة وتحليها ...منذ دخلت حياتي اصبحت كالانغام التي تجعل كل شيء في ايامي حلوا ! ليتك تبقين !لكنني ادري ان كل أحد نرغب في بقائه لا يفعل وحتى لو حاول فستبعده الظروف ... لكنني أعدك أنني سأفعل كل ما اقدرعلى فعلت لبقائك هنا .كي لا ترحلي ولا تصبحي ماضيا قديمة تماما كما فعلت أنت مع من احببتهم وخذلوك...لكنني لن أكون مثلهم ثقي بي ...انغام؟ انغام؟ هل نمت؟ نوما هنيئا عزيزتي.

استلقى على ظهره ورأسه على الرمل واخذ يتأمل النجوم المضيئة ويحاول عدها ثم اغمض عينيه وقال لها: تصبحين على خير .

ناما سويا حتى سرقت الشمس التي سطعت خيوطها بإتجاه عينيهما فاستفاقا فجأة فقالت انغام مستغربة:

- يا ويلي نمنا هنا؟ اخ ظهري يؤلمني .لا أصدق كم نمت بعمق وراحة حذوك .

- وأنا كذلك شعرت بالنعاس يغمرني سريعا .

وضع يده على جيبه ليتأكد من وجود هاتفه فزفر زفرة طويلة وقال :الحمدلله أننا لم نتعرض الى السرقة .

- لا أظن ان احدا رآنا ...ما أجمل البحر! لم اره بهذا الصفاء وهذا وهذا الهدوء من قبل...اشعر برغبة في الارتماء في المياه .

- لا استغرب ان فعلتها فأنت طوال عمرك مجنونة وستبقين .

اتجهت نحو المياه وملأت بكفيها قدرا قليلا من المياه لتغسل وجهها ثم أخذت تبلل رقبتها وشعرها ومرفعيها توغلت في المياه أكثر قليلا وهو ينظر إليها مستغربا وألقت بنفسها في الماء .

فحك شعره قائلا: لست كاذبا مجنونة حقا .

رفعت رأسها من تحت الماء واشارت إليه بيديها فلم يتحرك وبقي يتأملها ثم نزع قميصه ودخل الى المياه برفقتها واخذا يتوغلان الى الداخل اكثر فأكثر ويغوصان ويركضان خلف بعضهما ويقفزان تاركين المياه تتناثر خلفهما .ثم خرجا من المياه سيرا على الاقدام وهو يمسك بيده اليسرى كتفها الايسر بينما أخذت تملأ المياه بيديها وتغسل وجهها..ثم غاصت وسبحت حتى وصلت الى الشاطئ فلحق بها ...جلسا على حافة الامواج وهي تتكسر على اصابع قدميها كلما وصلت اليهما ثم تنسحب من تحتهما بعد أن تبللهما في كل مرة... نظرت إليه في صمت فقال :

- لاول مرة أتأكد ان الجنون شيء معد اصبحت مثلك... لا ادري كيف تبعتك إلى الماء.

- كانت المياه دافئه لم اشعر يوما بجمال البحر ومتعة السباحة بهذا الشكل .

- علينا ألا نعود الى البيت مبللين .

- تعال لنستلقي تحت الشمس ستصبح حارة اكثر وحين نجف سنغادر.

وبعد ان غادرا الشاطئ وصعدا سيرا على القدمين نحو الطريق الرئيسي للمدينة...قالت لها :

- اسمعي ما حصل الليلة سيبقى سرا بيننا...اما عنك فسيارة الاجرة الاولى التي سنوقفها ستركبين فيها وفورا الى الحمامات.

- وانت؟ سأنتظر سيارة اجرة أخرى.

- حسنا انتبه الى نفسك .لا تقلقي من ناحيتي .

اوقف لها سيارة اجرة وقال: من حسن حظك لم تتأخر لتأتي هيا اركبي .

فتحت باب السيارة ثم قالت:

- اقترب !

- ماذا؟

- أريد أن اخبرك سرا .

- ماهو؟ !

- لقد كانت أجمل ليلة في حياتي !

- وأنا كذلك .

ثم ركبت وذهبت...وركب هو بعد وقت قصير سيارة اجرة ليصل الى بيته في اريانة .

في الطريق وبعد مرور اكثر من ساعة دخلت سيارة الاجرة الى الحمامات الشمالية ..فسألها السائق :

- الى أين ستذهبين يا اختي؟ أين ساوصلك بالضبط؟

فلم تجبه...قال: ألا تسمعينني يا اختي قلت لك أين تريدين ان اتوقف؟

ثم التفت إليها فوجدها قد استلقت على المقاعد الخلفي ونامت فقال بدهشة:

- يا حبيبي هذا ما كان ينقصني.

فنزل إليها وفتح الباب وضرب بيده سقف السيارة بقوة:

- ارجوك يا ابنتي استيقظي... انتهى الطريق لقد وصلنا يا ابنتي استيقظي ارجوك .

فتحت عيناها بصعوبة وقالت:

- ما بك يا أبي ماذا تريد؟

- ابوك؟ كان على ابوك ان يهتم لامرك اكثر حتى لا تنساني في سيارة الاجرة الساعة الثامنة صباحا! الله أعلم ايدري أين كنت ليلة كاملة أم لا! ارجوك لا تؤخريني على عملي اكثر يا ابنتي هيا ارجوك .

- ارجوك اتركني هنا واذهب للعمل كما تشاء أريد النوم .

- كيف سأقدر على العمل وأنت ممددة هنا في سيارتي أين سيركب الحرفاء؟... يا ابنتي ارجوك لا تغضبني هيا تحركي والا انزلتك بالقوة .

رفعت رأسها متفاجاة: هل وصلنا؟

- اجل منذ عشر دقائق وأنا احاول ايقاظك ولم تستيقظي !

- هل نحن في الحمامات؟

- هيا يا ابنتي ارجوك تأخرت على عملي !

تكاسلت ونهضت بتثاقل ثم نزلت وذهب سائق سيارة الاجرة مسرعا بينما تثاءبت هي واتجهت نحو البيت واسرعت فورا نحو سريرها لتواصل نومها دون أن تكلف نفسها عناء نزع ثوبها.

بعد ايام ...بدأ العام الدراسي ...حزمت انغام امتعتها وبقية اللوازم الضرورية للاقامة في المبيت الجامعي وركبت في اللواج لتذهب الى العاصمة الى محطة باب عليوة ومن هناك اتجهت الى ساحة برشلونة أين ركبت مترو ثان لتنزل في الباساج وتركيب المترو رقم2 ...كانت فرحة...فرحة جدا ...سأترك لها بقية القصة لترويها بلسانها ...

ركبت المترو رقم 2 لأذهب الى الكلية لأتلقى الدروس التي كانت قد بدأت منذ اسبوعين وأنا تغيبت عنها...أخذت كرسيا أذكر أنني تنازلت عنه لامرأة مسنة...أخذت تحدثني عن حياتها وابنائها وتدعو لي بالرزق والنجاح والتيسير...

لم اكن مستعدة لسماع قصصها تلك لاني كنت مرهقة ولم اخذ قسطا كافيا من النوم مع ذلك لم ارفض سماعها وبقيت طوال الطريق انظر إليها لاوهمها أنني استمع لما تقوله بينما كنت انت تشغل كل بالي وتفكيري كنت متشوقة للعودة من اجلك...اكثر من أي شيء آخر ...

حين وصلت الى الكلية...التقيت بالزملاء والزميلات جميعهم... وأخذت كل الدروس التي كانت قد فاتتني ... لكن مشكلة تخص المبيت كانت قد اعترضتني ...فلم يجيبوني حتى هذا اليوم على مطلبي في الحصول على غرفة والدروس قد بدأت بشكل رسمي ...كنت افكر طوال الوقت أي حل هذا عساي ان اجده؟... ابن سأنام طوال هذه الايام المتبقية بانتظار موافقتهم على منحي غرفة... اقترحت علي صديقتي ملاك ان ادخل معها خلسة وفي غفلة من الحارس الى المبيت والنوم معها في غرفتها طالما ان شريكتها في الغرفة لم تبدأ في الاقامة بعد ...لكنني رفضت ذلك بحجة أنني لا أريد أن اضايقها فاقترحت علي منى ان انام في بيتها الى ان اتلقى الموافقة على منحي غرفة في المبيت...لكنني في النهاية وصلت الى اختيار الحل الانسب لي وهو الدخول خلسة برفقة ملاك الى غرفتها والنوم برفقتها طالما ان حارس المبيت رجل مسن ولا يسمع جيدا وقصير البصر ولا يلحظ كل شيء بدقة...وطالما ان شريكة ملاك في الغرفة لم تأت بعد ...لكن هذا كان حلا مؤقتا لا غير...الى حين مجيء الفتاة التي أخذت سريرها مؤقتا ....اما عني واياك ....فعدنا لايامنا المعتادة التي كنت قد اشتقت اليها كثيرا ...عدنا لاحاديثنا... جلساتنا...ضحكاتنا...نقاشاتنا في كل زوايا الكلية...لم اكن اقدر على الصمت كلما جلست بجانبك... حتى أننا اتفقنا على ألا نجلس سويا في الطاولة أثناء الدرس كي لا نطرد ...كان بما شوق شديد للتسكع في الشوارع كما كنا.... ...اتفقنا على ان نلتقي في الباساج ...بعد أن قدمت الفتاة التي تشارك ملاك الغرفة واضطررت لتركها ولم أجد حلا لمشكل اقامتي عدا الذهاب كل يوم من الحمامات الى الكلية ذهابا ومن الكلية الى الحمامات ايابا بسيارة والدتي التي اعارتني اياها الى حين العثور على بيت يمكنني كراؤه والاقامة فيه ...وجدتك بانتظاري...سألتني وقتها لم لم اطلب منك ان تنتظرني امام المبيت عوضاً عن القدوم الى الباساج فأجبتك بأنني لن اقيم هذه السنة في المبيت...لأنهم لم يوافقوا على منحي غرفة...لأن الاولوية لطلبة الصف الأول والطلبة غير الراسبين .

سألتني: وأين تقيمين الان؟

انني اسافر بين الحمامات والكلية كل يوم بعد أن اعارتني امي سيارتها مؤقتا حتى أجد بيتا مناسبا في المنزه لاقيم فيه طوال السنة.

يبدو ان الأمر اتعبك تبدين مرهقة .

اجل انني أنهض كل صباح الساعة الخامسة كي اصل...لقد ارهقني الأمر.

اذا أتيت اليوم من الحمامات من اجلي؟

اجل ...أقنعت امي بأنني ساذهب الى الكلية لادرس واخذ بعض الكتب...لانها تعرف انني لا اذهب الى الكلية عادة يوم السبت .

اذا سنعود الى التسكع في الشوارع كما العادة؟

بل سنعود الى الاكل والضحك والدراسة سويا في الكلية لا اكثر....يجب علينا ان نجتهد هذه السنة حتى لا يتكرر ما حصل معنا في الصف الأول.

اطمئني سننجح باذن الله .كم اشتقت اليك يا اسمر غزة !

كان يحلو لك ان تسميني هكذا..وكانت تحلو لي هذه التسمية...وضعت ذراعي على كتفك وضممتك ومشينا...

كم مشينا في ذلك اليوم! حتى لم نعد نشعر بقدمينا ...

ذهبنا عبر شارع باريس الى شارع بورڤيبة ... كنت تشاهدين محلات بيع العطور والتحف بشغف كبير وتتوقفين عندها لدقائق طويلة حتى أمل احيانا وابعدك عنوة من أمامها .ذهبنا الى باب بحر... كنا تحت تلك الخيمة البيضاء في باب بحر وكنت تتأملين رفوف الكتب المتعددة من الأسفل الى الاعلى تبحثين عن السماء تربيتها مناسبة او ترغبين في شرائها...

كنت تسحبين الكتب من الرفوف برشاقة أناملك الجميلة الممتلئة كتابا خلف الآخر وكنت حين تقع عيناك على كتاب تعرفينه أو كنت قد قرأته سابقا تسحبينه بحماس طفلة ثم تحدثينني عن قصاه وقصة كاتبه وجنسيته وحياته ....كنت مأخوذا بحبك الكتب وشهيتك المفتوحة دوما للقراءة ...

كنت مغرما بثقافتك الواسعة ومعرفتك للكتاب جميعا من كل انحاء العالم ...كنت تعرفين جيدا الادب الفرنسي والانكليزي والروسي والامريكي وكنت تعشقين الادب المصري والسوري وتحبذين الجزائري على التونسي ... كنت تفضلين الروايات الحديثة على دواوين الشعر وتحبين الشعر الصوفي اكثر من العذري والعذري اكثر من الجاهلي ولكنك تفضلين الشعر الجاهلي على الشعر الحديث الذي لم تكوني تعرفين منه عدا نزار قباني ومحمود درويش الذي بدوره لم تحفظي له أي قصيدة سوى تلك التي يحكي فيها عن دمشق قائلا :في دمشق تطير الحمامات اثنتين اثنتين!...

كم كنت تحبين تلك القصيدة وكم رددتها على مسامعي من مرة كلما تأملنا طلوع الصباح سويا...وكلما انتظرنا الغروب لنرى قرص الشمس البرتقالي وهو يغيب... كنت مفتونة صباح دمشق ومساءاتها وهوائها ومائها ...ودون التوغل كثيرا في حديثي عن عشقك لدمشق .... كان عشقك لها غير عادي ... بينما كنت لا تحبذين فلسطين كثيرا...دون أن تقولي ذلك يوما...كي لا اغضب ...لكنني كنت متيقنا من ذلك ...ومع ذلك فانني لم اكن قادرا على ان اغضب منك لسبب كهذا ...أذكر انك سحبت كتابا بالفرنسية

وقتها وقلت بسعادة غامرة :ياي! انه كتاب سارقة الكتب انه كتاب رائع جدا يحكي عن برلين وقت الحرب العالمية الثانية حين كانت تحت الحكم النازي ....عن فتاة فقيرة دفعها عشقها للكتب للذهاب في كل مرة الى إحدى بيوت الأثرياء بسرقة الكتب من مكتبة البيت الفخمة والكبيرة ويساعدها في ذلك صديقها وجارها في الحي الذي كان يحبها وكانت بعد ان تكمل قراءة الكتاب تعيدة خلسة تماما كما اخذته.. وهكذا تفعل في كل مرة كي تتمكن من القراءة

سألتك ضاحكا: وهل هناك أحد يسرق شيئا ثم يعيده الى صاحبه؟

اجل بما ان غايتها فقط قراءة الكتب لا الاحتفاظ بها !

وكيف كانت تفعل ذلك؟

كانت تدخل من النافذة وحين عرفت صاحبة المنزل سمحت لها بالمجيء لأخذ الكتب بعلمها دون التسلل في الخفاء....

لقد جعلوا من الرواية فيلما شاهدته على mbc max لكن الرواية أفضل لقد سحب الفيلم مشاهد جميلة جدا....أتعلم من كان الراوي الذي يحكي قصة الشخصيات في الرواية؟ من؟هتلر؟

لا يا غليظ! لقد كان الموت .

ماذا؟

اجل لقد كان الموت يتحدث عن نفسه وعن قبضه لأرواح كل هؤلاء الضحايا كل ليلة بعد القصف...بعد ان يجوب ارجاء الشوارع....ويأخذ العديدين في طريقه...كان يقول انه هو بدوره يتعب ويشعر انه بحاجة إلى عطلة اواجازة.

فكرة جميلة أظن ان الموت يتحدث عنا نحن الفلسطينيين كذلك في كل ليلة انه يعرف عنا قصصا كثيرة . لقد اصبح يعرف قصصا كثيرة عن السوريين كذلك لأنهم اصبحوا يرونهكل يوم وساعة يحوم حولهم ويترصد بهم حتى لو لم يفتك بارواحهم في تلك اللحظة فإنه يهددهم في كل لحظة

برأيك لو كانت قصتي واياك رواية من الذي سيروي هذه القصة؟ من الذي سيتحدث عني واياك وعن هذه الايام التي جمعتنا؟

اظن انه القدر.

القدر؟ اجل فكرة جميلة فنحن لولا القدر لما ألتقينا اظن انه هو من جمعنا في تلك المرة في المكان نفسه والزمان نفسه كي نعرف بعضنا البعض.

كم كنت محقة يا انغام ! وكأنه هو من دفع بي وقتها لأقف امام باب الكلية وحيدا وادخن تلك السيجارة وكأنه دفع بك كذلك لتأتي برفقة صديقتك في ذلك الصباح وترينني امام الباب وتسلمي علي؟

وكأنه من دفع بنا الى كل هذا دون أن ننتبه إليه ... كنت محقة يا انغام فلو كان هناك راو لقصتنا هذه لن يكون شخصا آخر عدا القدر ...وحده القدر من يعبث بنا ويحركنا عن بعد كأحجار الشطرنج ....ولا احد منا سيعرف متى تنتهي اللعبة الا اذا تحرك خطوة خطوة على كل مربعات الرقعة ...اعدت الكتاب الى

الرف وغادرنا الخيمة ...اقترحت عليك شراء الكتاب لكنك تعللت بقرائته على تطبيق ال pdfوبسعره المرتفع وابيت ذلك ثم امسكت بيدي ...

مشينا الى ان وصلنا لمقهى " العنبة" أين جلسنا وشربنا سويا كأسين من عصير الليمون بعد التعب الذي غمرنا جراء التسوق ...حين عدت الى البيت قمت بارتداء كل الثياب التي اخترتها لي من محلات البالماريوم وشارع باريس كان ذوقك جميلا ورفيعا ... كنت تعامليننى كأم لي في وطن ليس لي فيه أم.

دخل صلاح الى الكلية صباحا متجهاً من فوره الى المشرب أين وجدها هناك بصدد شراء كوب ليموناضة قال لها :اهلا عزيزتي كيف أنت اليوم؟ ابتسمت إليه بعينين براقتين وقالت :

حمدا لله أنا بخير كنت امام قائمة الاسماء لأتأكد ان كانوا قد وافقوا على المواد الاختيارية التي اخترتها أم لا

وماذا كانت النتيجة؟

الحمدلله وافقوا !

لكن العديد من الطلبة الاخرين لم ينالوا المواد التي قاموا باختيارها...سيذهب ممثل الطلبة بعد قليل ليتفاوض مع الادراة بشأنهم وانت؟ هل انت من المحظوظين ام من الضحايا؟

أنا من المحظوظين مثلك .

جيد .

أنا مذ عرفتك والحظ لم يفارقني ...ارجو ألا احسد على هذا....على فكرة ماذا فعلت بشأن البيت الذي تبحثين عنه؟

وجدت بيتا قريبا هنا في المنزه الرابع خلف الكلية... سعر الكراء الشهري مناسب بالنسبة لقدرة أبي اظن اني سأنقل اغراضي الاسبوع القادم إليه واقيم فيه .

جيد... انها الثامنة والربع .... هيا لندخل المحاضرة كي لا نتأخر ...هيا لنذهب.

كان الجميع امام القاعة متجمعين للتظاهر للمطالبة بحقهم في نيل المادة التي قاموا باختيارها ...منعوا بقية الطلبة من الدخول ودعوهم للتجمع امام الادارة .. بعد ساعة من الجلوس على مقاعد الحديقة...قالت انغام له :يبدو انه لا دراسة طوال هذا اليوم هيا تعال لنغادر ما الفائدة من بقائنا؟

الى اين؟

لنذهب الى المدينة العتيقة ونحتسي قهوة هناك

الان؟ هل انت جادة؟

هيا لنذهب ونجوب شوارع العاصمة لقد اشتقت اليها سنعود مساء سويا واذا أردت ساوصلك الى المبيت . لست اقيم في المبيت انني مع رفاقي في بيتهم .

جيد هيا اذا...هيا .

جلسا في نهج بير الأحجار يأكلان سندويتشات "كفتاجي "ثم جلسا في مقهى الدريبة...يلعبان الورق...

أخذت أتأمل عينيه ثم قالت: حدثني عن فلسطين.

-4-

..

مساء اربعاء ...شتاء...وبرد...وواجبات دراسية لم اقدر على اتمامها في البيت الذي اسكنه بمفردي... جئت الى الكلية مساءا بمزاج متعكر...

..أخذت قهوة ساخنة لأصطبر بها على كل هذا الملل...

وهممت بدخول المكتبة أين جاءت الي احدى الفتيات لحدثني بلهجة لاذعة وصوت فيه نبرة التهديد...

لم اكن اعرفها جيدا... اقتصرت علاقتي بها طوال هذه السنوات على التحية لا غير...

كانت إحدى زميلاتنا في الصف الثاني...لكنها كانت تدرس قانون خاص على عكسنا ...فهمت منها انها لا تحبذ علاقتي بك وانها تريدني ان اكف عنك مدعية أنني من اسعى اليك وان ليس بك اهتمام تجاهي مطلقا...لم يكن لي مزاج يسمح بأن اصرخ في وجه أحد أو اتشجار مع أحد ...

كنت اعاني الوحدة والارهاق والتعب من الدراسة ... وقلة النوم والخوف ليلا ...والاضطراب في السرير والكوابيس .. لم اكن اقدر على اجابتها بالطريقة نفسها التي تتحدث بها الي...فقد كانت وقحة وقليلة ادب ...لكنني بادرت باستفزازها ببرودة دم حتى احتقن وجهها واحمر وذهبت من أمامي بمفردها ...لكنها لم تذهب ألا بعد أن نجحت في تعكير مزاجي اكثر فأكثر...تركت اوراقي وكتبي مبعثرة في المكتبة وذهبت بقهوتي وسيجارتي الى الحديقة وجلست الى إحدى المقاعد بعد أن مسحتها من قطرات المطر التي بللتها ...كنت مستغربة من هذا الكم من البشاعة والقبح الذي يحيط بنا...

هل حقا يمكن للحقد ان يفعل بنا هذا؟ ولماذا يحاربني الجميع هنا؟ ألاجلك يحاربونني؟

هل اختطفتك من احداهن؟ أم هل انك اخبرت احداهن بأنك لست لي وان كل ما يحدث بيننا ليس بحب ؟ ماذا عساني أكون بالنسبة اليك؟ أتراك لو كنت هنا في الكلية ؟

هل كنت سمحت لها أو لأي واحدة غيرها بأن تحدثني بهذه الطريقة؟

قررت منذ تلك اللحظة ألا ابادر بالاتصال يك ولا مهاتفتك ولا التحدث اليك الى حين أي تنجلي كل هذه الظنون من رأسي.

عدت الى المكتبة واتممت كل ما أتيت الى هنا من اجل القيام به...كان علي ان اقوم كل شيء من حولي وكل ما يحصل لي بالدراسة والنجاح ...كان على كل اخطائي التي ارتكبتها مسبقا ألا تتكرر ..كان علي ان اكون اقوى ...اصلب وانضج ...حين عدت الى البيت ارتميت باكية على السرير .. لم اتمالك نفسي من كل هذا التعب الذي يغمر نفسي ...شعرت بحسرة شديدة في قلبي ....كنت احاول اشغال نفسي بأي

شيء كي لا اشعر بالوحدة...كنت اتصل باختي واحدثها لساعات عن كل يوم من ايامي كيف يمشي...كنت احاول صنع اشياء جميلة من الصوف أو الكروشيه ...احاول صنع الحلويات لاخذها معي الى الكلية واشرب بها القهوة في الصباح... وكنت احيانا احيط نفسي بألعابي ودماي واحدثهم ...كنت مضطرة للتأقلم ... لقد كبرت على ان اشكو لامي ما يحصل معي ...كبرت على ان ارفع السماعة واطلب منها المجيء الى هنا لتنام برفقتي اوتطبخ لي لاني اخاف الوحدة ...كان علي ان أجد حلا آخر عدا قدوم امي الى هنا ....بينما أنا في البيت ليلا أنتظر النوم ساهرة على السرير... جاء اتصالك على هاتفي ...رأيت اسمك...فكرت ...قررت ألا اجيب...تركته يرن...قررت ألا أغلق الخط ...نمت وتجاهلت كل شيء ... في الغد صباحا أخذت ابحث عن أي فتاة في الكلية لم تحصل على غرفة في المبيت وتأتي من منطقة بعيدة كل يوم...حتى اقترح عليها السكن معي وتقاسم دفع الكراء معي...وهكذا ادفع أنا النصف واوفر النصف الآخر من ثمن الكراء الذي يبعثه لي والدي لمصاريفي... تعبت في البحث.. ولكنني أخيرا عثرت ...عثرت على فتاة جميلة وصديقة مهذبة...درست معي منذ السنة الاولى لي في الكلية وهي من بنزرت ...تعرضت لنفس المشكل الذي تعرضت له... لم تحصل على غرفة في المبيت لأنها راسبة..واضطرت للسفر كل يوم من بنزرت الى هنا ذهابا وايابا ...وافقت الفتاة على عرضي فقلت لها احزمي امتعتك واجلبيها معك غدا صباحا واصبحنا زميلتين_اختين في ذلك البيت ... رانيا اصبحت انيستي التي انستني وحدتي وخففت تعبي وشاركتني اعباء الاهتمام بهذا البيت الوسيع المخيف الذي قاسيت فيه رعب الوحدة اياما طويلة ...اما عنك فقد كنت بحاجة لبعض الراحة منك بعد أن صرت مصدرا للتعب والمشاكل في حياتي الجامعية .لكن ذلك لم يدم وقتا طويلا ... كنت اكثر مني قوة وعنادا ...لحظة فتحت باب البيت ذات مساء يوم خميس بعد اسبوع تماما من ذلك اليوم الذي لم ارد فيه على رسالتك وبدأت فيه تجاهلك في الكلية والتهرب من الحديث اليك .قلت بدهشة:كيف عرفت منزلي؟ فأجبت بسخرية: وهل سيصعب علي أمر كهذا؟ الشب الفلسطيني بيصعبش عليه اشي يا بنت الناس ... تسمحيلي افوت؟ تفضل...احمد الله أن رانيا ليست هنا ماتزال تدرس في الكلية ثلاث ساعات قانون عمل . رانيا اصبحت تشاركك السكن في البيت؟ اجل لأنني خفت الوحدة ولم اقدر عليها .جيد...وماذا عني؟ لماذا لا تردين على اتصالاتي؟ وتتهربين مني في الكلية؟ لا لشيء بلى ....اعترفي بسرعة ماذا حصل معك .لقد تعبت صلاح....انني لست مستعدة للمقاومة اكثر... يجب ألا نظهر شيئا من حبنا لهؤلاء اللذين في الكلية... لقد اصبح عدة بنات في الكلية ينظرن الي بطريقة غريبة وكأنني على جرم ...ما الذنب الذي ارتكبته أريد ان افهم؟ ماذا فعلن لك؟ لا أريد أن اؤلم رأسك بقصص البنات الفارغة .تكلمي .الخميس الفارط وأنا في الكلية بصدد الدراسة أتت احداهن لتنبهني بالابتعاد عن طريقك والا ستغير اسلوبها معي... المشكلة ليست هنا...انما انا لا اعرف هذه الفتاة ولم احدثها ولو لمرة واحدة في حياتي.... ولم ... يكفي! وأنت ؟ ماذا كانت ردة فعلك؟ هل صمتت امامها؟ ألم تدافعي عن نفسك؟ عن علاقتنا؟ عن حبنا؟ هل استسلمت ازاء تافهة كهذه؟

لم اصمت قلت لها ان كانت علاقتنا تزعجك اذهبي اليه وقولي له ان يتركني وان فعل وأطاعك فأنا لن اقترب إليه مجددا .

جيد...لكن لماذا تتهربين مني؟ ما علاقتي انا؟

انت لو كنت بتحبني كنت دافعت عني.

ايش انتي جنيتي؟ أنا ماليش علم والا لو كنت سمعتها لكنني قصيت لسانها....أنا بدافعش عنك؟ تستحيش . انفجرت ضاحكة حين قلت لك تلك الكلمة... كنت تحبين لهجتي اكثر من حبك لفلسطينيتي ... كنت دائما

تضحكين من لهجتي حتى في اكثر المواقف جدية وحين أسألك :ما بك؟ تقولين: والله لهجتكم تضحك ! كنت تقلبين الأمر هزلا حتى في قمة العراك بيننا احيانا بكلمة ما لم تفهميها أو استغربت سماعها.

-5-

كنت قدرهما ...ولم يكن لهما أي خيار آخر عدا ان ينصاعا الي ...لم اكن قد أردت لهما الفراق بعد....اذا كان يعمل شوق دائم للقاء فوقت الرحيل لم يكن بعد ...كان في قاعة القراءة في الطابق الثاني فوق المكتبة ...صعدت إليه...بحثت عنه بعينيها ...وحين رأته حالياً بمفرده الى الطاولة الثلاثة للجهة اليمنى حذو النوافذ ...وضعت حقيبة يدها على الطاولة على يمينها ثم وضعت الكتب والاوراق المتراصة فوق بعضها البعض فقال لها :ما أجمل هذا اليوم الشمس ساطعة والسماء صافية والجو دافئ للأسف يحاصرنا الدوام لن نقدر اليوم على الذهاب إلى مكان ما .أراك تعودت على الفسحة برفقتي ما القصة؟هل تعجبك مرافقتي الى التنزه حتى اصبحت ارغب في ان يجوب البلاد معي دون غيري .بصراحة الذهاب إلى الامكنة ايا كانت برفقتك يختلف عن كل شيء ... اشعر بشيء مختلف برفقتك! أنت تقولين لي دوما ما لا تقوله لي كل البنات.

ماذا تقصد ؟ هل مدحتك من قبل؟ لا اقصد هذا...لا أريد منك مدحا...اقصد ان احاديثك جميلة تختلف عن أحاديث الجميع هنا .ممم فهمت. اين ملاك ؟ ألم تقل انها ستأتي الينا اليوم؟ أدخلت يدها في حقيبتها كي تأخذ هاتفها وتتصل بها فإذا بها لا تجده فتشهق شهقة طويلة واضعة يظها على شفتيها وقد جحظت عيناها من الصدمة ...قال مندهشا :ما بك؟ ماذا جرى؟ لم أجد هاتفي .أتراك فقدته في الكلية؟ لا ادري لا تذكرت لقد نهضت متأخرة اليوم صباحا ولم انظر إليه...كان على "الكومدينو" المحاذي للسرير...لهذا نسيته في العادة أتركه حذو حقيبتي لكي اتذكره في الصباح... يارب كيف سأعرف للوقت وكيف سأتصل بالرفاق واذا اتصل بي احدهم كيف ساجيب؟ لا مشكلة اذا اتصل بك احدهم قولي له انك نسيت الهاتف في البيت.هذا عادي .طيب هل التاكسيفون مفتوح؟ اجل سأذهب فيما بعد للتاكسيفون .لماذا؟ كي أتحدث مع ابي بشأن شيء اوصيته عليه...لا يمكنني الانتظار حتى أعود الى البيت في نهاية المساء .نظر إليها بفضول فهمت من خلاله انه يريد معرفة ما ستتحدث بشأنه مع والدها...دون أن يجرأ على سؤالها... فأضافت: كنت سأحدثه بشأن اموال اردته ان يبعث بها الي عبر حسابي البريدي...علي دفع ثمن كراء البيت هذا الشهر...أنا سادفع النصف ورانيا النصف الاخرد فهمت .ابتسمت إليه ثم فتحت الكتاب الاصفر اللون أمامها ثم طأطأت رأسها لتبدأ في القراءة...تأملها أمامه وهي تلوذ بالصمت محركة شفتيها بالقراءة...سألها :ألم تذهبي الى التاكسيفون؟ لماذا؟ لتتصلي بوالدك !لا ليس الآن فيما بعد .حسنا دفع بالكرسي الى للوراء واقف للخروج..قالت :ما بك؟ الى اين انت ذاهب؟ سأذهب إلى المشرب لأشتري قهوة ! لن أتأخر !حسنا .ذهب الى الحديقة الخلفية للادارة أين تركت سيارات الاساتذة في مشهد فوضوي غير مرصفة ولا منظمة.... حيث يجلس الحارس على الكرسي ابتسم إليه وقال :يعطيك العافية !عسلامة

ولدي !اذا سمحت يا بلڤاسم أريد هذه الوردة الحمراء التي وراءك .ماذا؟ ماذا تريد؟ اريدك ان تقطف الي هذه الوردة التي تتوسط الشجرة انها الوحيدة في الكلية ولا ورود غيرها هنا حتى آخذها ارجوك اقطفها لي .ها قد قلتها بنفسك يا ابني يا صلاح! انها الوحيدة هنا التي تزين الحديقة وتضفي على الكلية مشهدا جميلا لماذا تريدني نزعها وقطفها من هناك حتى اجعل التربة مقفرة .يعني تريد اقناعي انك تبحث عن جمالية الكلية وتريد اضفاء رونق على حديقتها عبر هذه الوردة اليتيمة هناك؟ رومنطيقي يا بلڤاسم! رومنطيقي من ورانا؟ ياالله يكفي ثرثرة فارغة واعطني اياها ولم عندي ثلاث صباحات هدية: قهوتك وكرواسنك علي..اتفقنا؟ !قل هذا منذ البداية! حسنا....أنتظر دقيقة !بسرعة ارجوك.....

قطف الوردة واعطاه اياها...شكرا بلڤاسم...لن انسى مساعدتك الجميلة قط .مساعدتي لك على ماذا ؟ افهمني .بعدين بحكيلك.ضحك بصوت عال وقد غمرت قلبه سعادة عارمة جعلته يشعر بقدميه يمشيان على غيمة ماطرة من حب .ذهب نحو للتاكسيفون وقال الفتاة البدينة السمراء ...شقراء الشعر التي تقف هناك لتبيع الوجبات الخفيفة العملية وتقوم بطباعة الاوراق للطلبة في مكتب صغير لا يتسع لاكثر من شخصين والذي يوجد على يساره الهاتف العمومي الأزرق الملتصف بالحائط قرب الباب قال لها :مرحبا يا اختي !قالت: عسلامة تفضل خويا .اذا سمحت أريد تعليق هذه الوردة على هذا الهاتف هل لي ذلك؟ ضحكت:طبعا ممكن شكرا هذا من ذوقك....لكن لمن هذه الوردة؟ بعد دقائق ستأتي فتاة لوزية العينين مجعدة الشعر ستتصل بأبيها ارجوك قولي لها ان شاباً تعرفه جيدا تركها لها .قل لي ما اسمك حتى تعرفك الفتاة .هي يتعرف لوحدها...لا تجعلي احدا غيرها ياخذها ارجوك .حاضر .غادر فقالت الفتاة ضاحكة: يا محلا الحب !وبينما هم بمغادرة ذلك المكتب الصغير ذهبت انغام الى النافذة وايعدت ذلك السنافر الخشن الأزرق اللون كي تدخل أشعة الشمس الى القاعة المظلمة اكثر فرأته يغادر وتساءلت ماذا تراه كان يفعل هناك؟ عادت الى الطاولة انتظرت وهي لا تفكر بشيء الله متظاهرة بالانشغال بالقراءة...بينما دخل وفي يظهر كوب القهوة الورقي البني الذي غطت غلافه كلمة "coffee" وضعه على الطاولة قائلا :انشالله موخرتش عليك .لا ابدا...أكل هذا الوقت حتى تأخذ كوب القهوة؟ لقد كانت مليئة كالعادة تعرفين ذلك .اجل اعرف ذلك ولكن لماذا لم تشرب من القهوة بعد كل هذا الوقت؟ ألم تبرد؟ لا لقد أخذتها للتو لماذا ستبرد؟ لم اترشفها لاني أردت القيام بذلك على مهل وليس في اتجاهي الى المكتبة على عجل .خلاص ماشي ماشي اقتنعت .أنا سأنزل للاتصال بأبي .ركضت نحو الباب تاركة الكتب مفتوحة والاوراق مختلفة على الطاولة بينما التفت إليها منتظرا خروجها ثم قفز نحو النافذة....ناظرا الى التاكسيفون بشغف ملأ قلبه حتى العمق...أخذ ينظر نحوها ويعض على شفتيه فرحا فمرة يبتسم ومرة تجحظ عيناه منتظرا ردة فعلها...دخلت الى التاكسيفون فألقت نظرة على الوردة الحمراء المعلقة على الهاتف الأزرق المستطيل الشكل فضحكت واضعة يدخا على فمها وقد نزلت قليلا بجسدها كعادتها كلما ضحكت وحينئذ التفتت إليها الفتاة العاملة هناك قائلة :أأنت هي؟ حقا تستحقين....لقد اوصاني ذلك الشاب ان لا تسمح لأي فتاة أخرى بأخذها.

- شكرا لك .

أخذت الوردة وغادرت وقد نسيت أمر مهاتفة إليها من شدة الفرحة وأخذت بمعانقة الوردة وتقبيلها فلاحظت انها قد كتب على إحدى وريقاتها الحمراء (A+S) وعلى الاخرى كلمة:انغامي أنت. ابتسمت شفتاها الورديتان ولمعت عيناها غبطة بينما كان يتأملها بسعادة من النافذة .... رفعت رأسها ونظرت الى نوافذ المكتبة فتراجع الى الخلف كي لا تراه ثم ركضت نحوها ....وصعدت الى الدرج بسرعة ووقفت امام باب القاعة اليمنى من المكتبة ونظرت الى الطاولة وهي ما تزال تمسك الوردة وتضمها الى صدرها متفادية لمس شوكها واذا بها لم تجده على الكرسي تقدمت قليلا ووقفت امام الباب بالضبط وهي تجوب

القاعة بعينيها فلم تجده بينما كانت الكتب والاوراق في محلها وكما هي عليه .غادرت القاعة وتوقفت امام الدرج ناظرة الى وريقات الشجرة قبالتها وقد رفعت رأسها الى السماء وكأنها تبحث عن قلبه هناك....جاءها من الخلف واغمض عينيها فقالت وهي تلتفت إليه وقد أمسك بها من خصرها : هل هذه هي القهوة التي نزلت من اجل احضارها؟ هل وصلتك رسالة الان؟ أي رسالة؟ رسالتي التي لم اقدر على اجابتك عنها بفمي فقد خانتني شفتاي وانعقد لساني وخذلتني الكلمات...رغم ان لغتنا هي الاولى من حيث كثرة الكلمات فيها ومن حيث ثرائها ألا انها لا تفي بالحاجة في بعض المواقف! انها الوردة الوحيدة في هذه الكلية مثلك تماما .حقا لست ادري ماذا سأقول !ضحكت قائلة: حقا ان اللغة لا تفي بالتعبير . عيناك تكفياننني لذلك يا عزيزتي...حتى لو لم نقدر على مغادرة الكلية نظرا لمداهمة الدوام لنا سنصنع أجمل اللحظات لنا هنا بين اسوار هذه الكلية فالسجن بالحب يصبح جنتنا التي لا اروع منها ولا أجمل! احتفظي بها جيدا! هيا فلندخل لندرس!

-6-

كان يوما تشرينيا بإمتياز ...توقفنا امام مكتب استلام الوثائق وسط ساحة الكلية...وقرب باب الادارة المؤدي الى باب الكلية الامامي ... بدأ المطر بزخ قطراته بعد أن امتلأت السماء بالغيوم الرمادية ... قالت: كم يذكرني هذا الطقس بشهر كانون الأول وصباحات العطلة الشتائية وايام عيد الميلاد ...لم يبقى الكثير اسبوعين وبضعة ايام وستحل علينا العطلة ونرتاح للنهض كل يوم في ساعة متأخرة ونسهر ونشبع نوما .يااه كم اشتقت لقضاء الصباح كله نائمة...لقد تعبت من النهوض باكرا كل يوم .صلاح! اصحك تنسانا بهالعطلة هاه....اعرف أنه علينا المذاكرة لاجل الامتحانات في يناسب لكن من حقي عليك ان تذكرني ولو بمعانقة صغيرة والا ساعتبرها مسؤولية تقصيرية من طرفك وارفع دعوى طلب تعويض مادي ومعنوي .

ضحكت وقد فتحت مطريتي وغطيتني قائلا :سنعيش صباحات كانون الأول الآن لن ننتظر العطلة الشتائية.... هيا معي !

اخذا يمشيان في الحديقة جيئة وذهابا ثم سحبت هاتفها وقالت له:

- تعال لنأخذ صورة تحت هذا المطر والمياه تبللنا .

ابتسما والتقطا صورة لهما وقطرات المطر تتساقط من المطرية عليهما لتبلل وجهيهما ...

كانت صورة جميلة ....

وضعت يدها في ذراعه فضمها إليه ومشيا دون أن تسأله الى أين يسير بها غادرا الكلية من الباب الخلفي واتجها نحو سكة المترو واخذا بالمشي عليها والمطر تبلل قدميهما التي لم تقدر المطرية على درء الماء عنهما . كانت سعيدة معه وكأن قلبها قطعة من الغيم يطير في السماء بعيدا عن كل ما حولها....

قطعت الصمت قائلة :الى أين ستأخذني؟

- سنمشي سويا على سكة المترو حتى نصل الى المحطة الأخيرة اريانة مرورا بالمحطتين الاستقلال والفل سنمشي ونحسب كم مترو مر من هنا حتى نصل .

- موافقة .

عبر بجانبهما مترو بإتجاه اريانة فقالت فرحة :

- هاهو المترو الأول

ثم عبر اخر بإتجاه العاصمة فقال :

- وهذا الثاني ....وهاهو الثالث.

...وحسبنا عدد المتروهات الكثيرة التي عبرتنا...كما تعبرنا الايام...لم اعد اذكر كم كان عددها ... وصلنا الى اريانة مبللين بالكامل ثم جلسنا على أحد مقاعد المحطة وقد أخذ منا التعب مأخذا عظيما ... كنت تسعلين...قلت لك:

أرأيت نتيجة افكارك ؟ تحبين المشي تحت المطر؟ ها انت ستصابين ببرد!

لم اكترث لكلامك وقاطعتك بسرعة : اسمع ! ما رأيك ان نذهب الى محل قريب من هنا وتأكل اللبلابي لنتدفأ .جيد هيا فلنذهب اشعر بالبرد هنا ...وذهبنا ثم عدنا بالمترو الى المحطة قبالة الكلية فأوصلتني الى البيت ومن ذلك عدت بدورك الى بيتك...بيت رفاقك ...ولم يبقى من كل ذلك عدا شوارع مبللة ورائحة المطر !قليل من البرد وكثير من الشوق !

-7-

كان يوما ماطرا ...اظنه كان يوما كارثياً لا فقط ممطرا ...وصلت الى الكلية على الساعة الثامنة وعشر دقائق فوجدت الكلية على غير عادتها ...خالية من الطلبة... كانت النساء عاملات النظافة غير متواجدات ...وكان الوقت قد شارف على اجتماع الطلبة في الحديقة والقاعات وقدوم الاساتذة الى البوفيت لأخذ القهوة... لكن هذا كله لم يحصل كما العادة ...بدا وكأن هناك شيء ما يجري خلف اسوار الكلية...يبدو ان شيئا ما منع الطلبة من المجيء رغم انه اليوم الأول في الأسبوع !لم أرى الكلية هكذا من قبل قط ...دخلت الى المشرب... وأخذت قهوة كالمعتاد وسرت الى الحديقة ...كانت قطة الكلية بية تقطر بللا وترتعش بردا ...أتت الي ركضا لحظة رأتني وأخذت تتمايل على قدماي وكأنها تتوسلني ان اعطيها شيئا لتأكله ...اشتريت لها كيكة شكولاطة معلبة من البوفيت فأكلتها بينهم على غير العادة ...ربما لشدة الحوت بقيت أنتظر قدوم احدهم ممن أعرف من الزملاء الى هنا ...لكن ليس هناك أحد ... بدا لي المكان مرعبا وهو خال من من الناس على غير العادة...كنت لا اسمع عدا حفيف صوت الأشجار...وقفت رفقة بضعة رفاق ممن يأتون من المبيت لنتحدث ...فأخبرنا الزملاء اللذين ياتون من مناطق بعيدة ان المتروهات والمواصلات كلها مفقدوة ولا تعمل نظرا لليلة الشتائية الماطرة التي كانت قد مضت البارحة ...فالسكك الحديدية كلها مغطاة بالمياه لكن الامر كان اتعس من ذلك بكثير لأن اللذين يجيئون الى الكلية بسياراتهم هم كذلك لم يتمكنوا من القدوم لأن طرق اريانة الرئيسية كلها قد غمرها الجميلة وتم غلقها والعبور منها اصبح صعبا ويتطلب وقتا طويلا...وفي خضم هذا كله لم تعلم وزارة التعليم العاليأو غيرها من الوزارات عن توقف الدروس أو شيء من هذا القبيل...

كانت استاذة القانون الدولي الخاص في الوقت تماما...لم يكن هناك أحد في القاعة عداي أنا وفتاتين اخريين يقطنان في المبيت ... قالت الاستاذة : لن أسجل الغيابات ...اعرف ان الطلبة يسكنون في مناطق بعيدة ويأتون بالمواصلات التي توقفت جميعها...أنا عن نفسي وجدت مدخل اريانة الشمالي مغلقا...لكن لا يجب الا ندع شيئا يوقفنا علينا ان نقاوم كل شيء كي تستمر الحياة ...بدأنا الدرس بثلاث طالبات لا غير ...بينما تواصل هطول المطر بطريقة غير عادية....حتى ظننت اننا سنجد الوادي المحاذي للكلية قد فاض علينا جميعا ...كان شكلها مرعبا حين مررت بجانبه قبل دقائق ...لن تمحى تلك الصورة من ذاكرتي مطلقا ...في الغد...جاء الطلبة جميعهم الى الكلية يطالبون بمحو الغيابات التي سجلت وقد امتثلت الادارة لذلك ...طبعا كان علينا في الحصة التالية اعادة كل ما قلناه وكتبناه مع بقية الطلبة اللذين كانوا

متغيبين ...أما عن المشاهد التي رأيناها في التلفاز وعلى وسائل التواصل الاجتماعي فقد كانت كارثية...وكأنها ضرب من الخيال...لايمكن لمن يراها ان يصدق ان كل هذا يحصل في تونس...بلد الديمقراطية والثورة...أي فساد أصبحنا نعيشه ؟ أي ضحك على الذقون؟ أي استهتار بهذه البلاد وعبادها...؟ أي لا مبالاة هذه أصبحنا نعيشها؟ كم علينا ان ننتظر من الوقت والسنوات المهدوة من حياتنا مي نحصل على ابسط حقوقنا في الحياة على هذه الارض؟ متى ينتهي كل هذا الارهاب في حقنا؟ إرهاب الطرقات...السرقات...الرشاوى....النهم...الجشع... والضحك على العباد ...أن الاستهتار بالناس هو استهتار بالخالق..فعل نجد احدا يخاف الله في عباده في ايامنا هذه؟ أي خراب هذا؟ أعود الى البيت الذي بقيت فيه بمفردي نظرا لأن صديقتي رانيا لم تعد من بنزرت بعد ...واجلس على سريري وبيدي كوب قهوة ساخنة ...وكتاب انظر الى السماء الملبدة بالغيوم السوداء من وراء هذه النافذة قبالتي ...واستحضر قولا للكاتب الفلسطيني المفضل لدي حسن سامي يوسف في روايته عتبة الألم "ماذا زرعنا كي نحصد كل هذا الخراب؟"

-8-

كان يوم الجمعة الأخير قبل عطلة كانون الأول....
غادرنا الدرس الساعة السادسة مساء سويا من القاعة ال حديقة الكلية ...قلت لك:
- هل ستذهبين الى الحمامات الان؟
- اجل
- لماذا لا تتركين السفر الى الغد صباحا؟ لقد تأخر الوقت.
- لا لن أفعل علي الذهاب اعرف انني لن اصحو باكرا ثم مع من سأنام في ذلك البيت؟ هل سأبقى بمفردي؟ سأشعر بالخوف حتما وسأتخيل اشياء غير موجودة...لا لا أريد...لقد غادرت رانيا منذ يوم الأربعاء.
- حسنا ساوصلك الى المترو.
- أريد الدخول الى الحمام قبل كل شيء تعال اصعد معي.
- هيا!
صعدنا راكضين الى الحمام في الطابق الثالث ... هممت بفتح الضوء فلم يشتعل... لم يكن هناك انارة تعمل.
قلت ضاحكة : ما هذا؟ الساعة السادسة وحمام في الطابق الثالث المظلمة وانارة لا تعمل وشباك مكسور وصوت الرياح يأتي من شباك مكسور انه مكان ملائم لتصوير فيلم رعب... ارجوك لا تتركني دقيقة لا اكثر وسآتي اليك انظر الى نفسك في المرآة كي لا تشعر بالخوف.
- ما رأيك ان اقترح عليك شيئا؟
- ماذا؟
- كلميني بصفة متواصلة حتى لا تشعري بالخوف اما عني لست خائفة.
اغلقت الباب قائلة: حسنا...أتعلم شيئا؟
- ماذا؟
- لو انهم يقومون بتصوير فيلم رعب في هذه الكلية سينجح نجاحا مبهرا.
- نعم أظن ذلك.
- الان سأذهب لأخذ حقيبتي من المشرب ثم أركب المترو وحين تصل الى الباساج سآخذ مترو آخر الى محطة ساحة برشلونة ومن ثم آخذ قطار نابل وهناك سأجد والدي بانتظاري ليوصلني الى الحمامات اتعلم ؟ هو قال لي ما رأيك ان آتي الى كليتك لكنني رفضت ...أريد أن اركب المترو...ان احتك

بالناس...واشعر بالدفئ وارى الأضواء من النافذة الصغيرة تلك المغطاة بالغبار وان اسمع احاديثهم المختلفة...أريد أن أرى كل المحطات وان اعبر شارع باريس وارى شارع بورقيبة اتعلم؟ سأشتاق اليك كثيرا خلال العطلة وسأشتاق الى احاديثنا وجلوسنا سويا في كل مكان كل يوم والى شرب القهوة في الحديقة والى بية!

- صلاح ؟! هل مازلت هنا؟
- اجل إنني استمع اليك!
- هففف! اخفتني.
- تو هذا حد عقلك؟ باش نخليك؟
- الله لا يخليها بيك...

ضحكت بشدة ثم فتحت الباب وأتيت الي راكضة وقلت لي: حتى صنبور الماء لا يعمل! يبدو انه لا شيء يعمل في هذه الكلية عدانا.

- اجل نحن الوحيدون نعمل بصفة متواصلة ودون راحة..

- أخيرا ها قد أتت العطلة وسأعود للسهر والنوم في ساعة متأخرة ! كم اشتقت الحمامات يا الاهي والى كل تفاصيل حياتي هناك..سأذهب للركض على الشاطئ كل صباح.
- أما أنا فسأشتاق اليك.
- وأنا أيضا صدقني.

نزلنا في الدرج وقد تعالت أصوات الزملاء وضجيج احاديثهم في البهو وفي الساحة الخارجية...

أخذت حقيبتك تجرينها على الأرض بلهفة ثم امسكت بي ...عبرنا سور الكلية برمته حتى وصلنا الى الباب الامامي وغادرنا...

.....

كانت الاضواء تملأ الشوارع التي تزدحم بضوضاء السيارات ...قلت لي وقد تنفست بعمق وفرح وضغطت على يدي:

- ياه ما أجمل الدنيا ليلا...اشتاق لرؤية مدينتي وشاطئها وشوارعها في الليل.
- انتبهي الى نفسك خلال العطلة وادرسي جيدا ولا تنسي ان تتركي الى رسالة قبل ان تنامين كل ليلة.
- ولماذا لا تبعث لي انت؟
- يكفي غباء انغام طبعا سأتصل بك كل يوم.
- أدرس جيداً ولا تعمل المذاكرة اسمعت؟ سأحاول القدوم اليك ان امكنني ذلك.
- جيد
- هيا اسرعي اوصلتك الى محطة المترو *10ديسمبر* وعدت ادراجي وأنا ادعو لك ان تصلي بالسلامة ...

كنت راجعا سيرا على الاقدام الى البيت وأنا أتوق للحظة مجيء يوم الثالث من يناير/ جانفي ....

يوم أول فحص كي أراك مجددا ونلتقي كل يوم من جديد...

كنت اشعر ان فترة الاسبوعين...فترة مطولة جدا...

لا ادري إن كنت تبادلينني الشعور ذاته أم لا ...

لقد كنت فرحة بعودتك الى مدينتك ولم تكوني مثلي أنا ...

ضممتك الي بقوة فخبأت رأسك في صدري مقبلة اياي علي خدي وذراعيك يطوقان ظهري بشدة

اقتربت الى اذني وقلت بصوت خافت خشية من الناس المحاذين ان يسمعوا "انتبه الى نفسك يا حبيبي اني اخاف عليك فلا تجعلني اقلق "

قلت لك مداعبا شعرك الناعم الطويل " اطمئني "

وقبلتك على جبينك بقوة ...وافترقنا ...كانت عطلة طويلة جدا ..كانت ايامها رتيبة وصباحاتها باردة ومساءاتها كئيبة ولياليها مملة ومخيفا ....كان كل شيء باردا دونك...دون لهيب حضورك وحرارة ابتسامتك وحلاوة ضحكاتك ...دون احاديثك الشيقة وشغفك الممتع بالحياة ...كم كنت تشبهينني في اشياء كثيرة ...

أليس التشابه نصف الحب؟ كنت ترددين دوما على مسامعي بسخرية

أنا نسختك المطابقة لا تتهرب من الحقيقة! والا بماذا تفسر قدرتي هذه على فهمك؟

فكنت اجيبك ساخرا :أولست تحبين الابراج وتتابعينها بوفاء؟ ربما لأن انثى ورجل برج الجدي يتشابهان في اشياء كثيرة

فقلت:لا انه شيء أعمق من الابراج. هناك تخاطر قوي بيننا أننا نفكر بنفس الشيء وفي نفس اللحظة ويتابدر الينا الشعور نفسه في الآن ذاته....

لماذا كتب لنا ان نتعرف الى بعضنا لو لم يكن هناك شيء ما يجمعنا؟

كنت محقة في كل ما قلته ...في النهاية كل صدفة ما تعترضنا هي بداية لقصة طويلة سنعيشها ...والا لماذا كتب لي ان آتي الى هذه الكلية التي لا احبذها بالرغم عني ان لم يكن قد حصل ذلك كي اعرفك؟ اجبتني وقتها : عيناك قدري كما قالت غادة السمان

.... في العطلة ...اتفقنا على ان نلتقي في العاصمة ...على ان آتي اليك الى ال centre ville كما العادة ...في الطريق اليك في القطار ...كانت المطر تهطل بغزارة وتغسل بلور النوافذ الصغيرة التي اغلقت من الجانبين ...وقد أخذ رذاذ الماء يتناثر على الكراسي التي تبللت حتى انزعج الراكبون وقامت بغلقها .....ألا أنهم لم يمنعوا من المياه التي كانت تتقاطر من سقف القطار ...جلست تحت النافذة وقد أخذ الرذاذ يتناثر علي من الشوق الصغير المفتوح...حتى بللني فقمت بدوري واغلقتها ثم عدت وجلست ووضعت سماعات في اذني لاستمع الى اغنية فيروز الاروع في التاريخ :تلك الأغنية التي تبللك كلما استمعت إليها ... تمطرك بوابل من الفرح...

...تلك التي تقول فيها: سلملي عليه وقلو اني بسلم عليه بوسلي عينيه وقلو اني ببوس عينيه وبوسو بخده وطولي عليه فهمت عليي كيف سلم...

وفي اغنية أخرى تقول :وأنا عيني عالحلا والحلا عالطرقات غنيلو غنيات وهو بحالو مشغول ونطرت مواعيد الأرض وما حدا نطرني.... وتقول في أخرى: سألتك حبيبي لوين رايحين خاليا خلينا وتسبقنا سنين ...ايزا كنا عطول ...التقينا عطول...ليش منتلفت خايفين...

... بعد ساعة تقريبا وصلت الى محطة ساحة برشلونة واشتريت كتابا جديدا من تلك الخيمة البيضاء التي تباع تحتها الكتب...كان أسم الكتاب "فن اللامبالاة" اعجبني اسمه...كم كنت بحاجة إلى قليل من اللامبالاة كي اتمكن من مواصلة الحياة ...حين التقيتك...تبادلنا التحية وغادرنا المكان فورا...كنا متلهفين للسير سويا بشدة فوق العادة ...التقينا اذا ...ما أجمل اللقاء تحت المطر...

كان لقاء رائعا زادته المطر رونقا حلوا لا يوصف ...

قلت لك بسعادة عارمة :ما أجمل هذا اليوم الممطر! انه سيكون يوما جميلا جدا .

- اجل فنحن سنبقى على بلل حتى نهاية هذا اليوم .

- اطمئن معي مطرية... لن تتبلل سأغطيك بها... وأبتل عوضاً عنك .

- لا داعي لذلك ...هلا فتحتها ووقيتنا هذا الكم الهائل من المياه؟

- كم اشعر بالسعادة! ياه يال جمال هذا اليوم! ....أتعرف كيف هربت من الحمامات اليوم؟

- كيف؟ !

- لقد ادعيت أنني سآتي الى منى لمذاكرة مادة صعبة لم افهمها....اظن انهم اقتنعوا...على كل لا يهم...الأهم أننا سويا في هذه اللحظة...انه طقس فيروزي بإمتياز !

- بل انه طقس شتائي بإمتياز! أي شتاء قاس سنواجهه هذه السنة!

جبنا المدينة العتيقة كلها تحت الامطار وجلسنا في مطعم جميل هناك قبالة جامع الزيتونة نأكل صحفتين "لبلابي" ساخنين ولذيذين جدا قاومنا بهما جمود قدمينا والبرودة التي كنا نشعر بها في اجسامنا....جلسنا في الشواشين وشربنا كأسي شاي بالنعنع واخترت أنت ان تدخن "اركيلة" ...أذكر أنني شاركتك اياها...كان طعمها لذيذا... لاول مرة اذوق طعمها في تلك المرة...

لاول مرة اشعر بتلك السعادة العاصمة تجوب كل ارجاء جسدي وتجتاحني حتى الرمق الأخير من قدرتي على التحمل ...لاول مرة اتبلل مطرا دون أن يزعجني الأمر ...نسينا كل شيء أثناء السير...كنا فرحين...كنا منطقلين كطفلين ...اقترحت ان نشاهد فيلما جميلا في الكوليزيه يبدأ على الساعة الرابعة مساء فوافقتك متسائلة :

هل هو فلسطيني؟ لا انه فيلم تونسي_سوري بطلته هند صبري اسمه "زهرة حلب "

سمعت عنه...اظن انه يتناول الأحداث السارية هناك اليس كذلك؟

اجل...لقد قطعت تذكرتين لنا هيا لنذهب .

اذا الأمر مخطط مسبقا...أنا عزمتك على الفطور...وأنت عزمتني على الفيلم .

اجل بامكانك ان تعتبريه مخطط مسبقا...

على كل اليوم صباحا اشتريت التذاكر خطرت لي الفكرة أثناء سيري اليك.

دخلنا الى الفيلم وشاهدناه سويا طوال ساعتين ..

كان فيلما رائعا ومؤثرا وعلى درجة كبيرة من الواقعية ...نسيت لعدة دقائق أنني أشاهد فيلما ...عدنا ادراجنا السادسة مساء حين كان الظلام قد حل منذ ساعة .... ركبت السيارة التي كانت مركونة تحت قنطرة الجمهورية ...قرابة محطة ال.... TGMوعدت الى الحمامات بروح جديدة وشحنة كبيرة للعيش...

اننا دوما نعود ممن نحبهم بشهية عميقة للحياة ...فهم وحدهم القادرون على جعلنا نحب انفسنا وكل ماحولنا ...وكم أحببت نفسي بك !

-9-

انتهت العطلة ...عدنا الى الكلية كي نقدم الامتحانات ...اما عني فخيرت ان أذهب بسيارة امي كل يوم الى الكلية لاقدم الفحص واعود الى البيت ...لم اشأ العودة الى ذلك البيت الذي يخيفني البقاء فيه بمفردي والذي كنت قد اكتريته برفقة صديقتي رانيا للاقامة فيه ...كان الفحص الأول قد انتهى ...قدمت الورقة وتركت القاعة على الساعة الثالثة والنصف بعد الزوال...اشرت الي بيدك لانتظرك في الخارج ولا أعود ادراجي فجلست في الحديقة بانتظارك وقد بدأت المطر تبلل الأرض ...ذهبت إلى المشرب لأخذ كوب حليب ساخن بالشكولاطة ... فخرجت من القاعة وأتيت الي ...وها نحن مجددا .... أنا وأنت ومطر...ومقعد في الحديقة ...قلت لك :

أرأيت هذا المشهد الجميل ؟

أي مشهد؟

المطر والغيوم الرمادية والبخار الذي يخرج من افواهنا عند التكلم أليست تفاصيل جميلة ودافئة؟

لذت بالصمت ثم قلت :انه ليس وقت مناسب لشاعريتك !

ما بك؟لماذا انقلبت سحنتك؟ ألم تقدم الفحص بشكل جيد؟

لا ادري أشعر وكأنني في جزء منه اتقنت الإجابة وفي الجزء الآخر لم اصب في ما كتبت

يا زلمة وكل الله وقول الله يجعلو خير عادي مارح نموت ايزا ما قدمنا الفحص منيح ها نحن نعيش في خير ابائنا نأكل ونشرب وننام بدفئ في هذه الليالي الشتائية الباردة تحت الاغطية الكثيفة في فراش وثير واسع .

الحمدلله لكن ان نأكل ونشرب وننام في سلام لا يعني ألا ننجح .

لا تقلق سننجح وسنعيش رغم الداء والاعداء البلداء

ضحك وقال: الله يسمع منك ....ما هذا الذي تشربينه

حليب ساخن بالشكولاطة

أنا سأشتري قهوة جئت متأخرا الى هنا ودخلت الى الفحص دون أن أشرب قهوة...لقد استيقظت قبل نصف ساعة من وقت الامتحان

وكيف اتيت؟

في التاكسي

دعك من القهوة ....تعال معي سنذهب إلى إحدى المحلات وسنشتري سندويتشات ونشرب شايا هيا تعال

اين سنفعل كل هذا؟المشرب لا يبيع سندويتشات جيدة

ومن قال لك أننا سنأكل سندويتشات المشرب؟

هناك محلات خلف الكلية

تقصدين سنذهب الى اريانة الان؟

اجل وما المانع؟

والمطر؟

لا بأس بها ان الجو رومانسي جدا وجميل وهو مناسب للقاء حلو بيننا ....ولا تقلق بشأن المطر لدي مطرية لن تتبلل اطمئن هيا فلنذهب

جيد هيا اشعر بالجوع

ارأيت؟ أنا الوحيدة التي تتقن اسعادك

أعلم ذلك.

ومشينا سويا تحت المطر خطوة خطوة...حتى وصلنا الى محل بيتزا في مدينة اريانة..جلسنا نأكل البيتزا الساخنة قبالة المطر والنافذة مبللة بالقطرات الكثيفة التي تتساقط عليها لتجعل رؤية الشارع صعبة من وراء الضباب ووابل الامطار....كانت بيتزا لذيذة من نوع(4 saisons)

كنا نأكل بلهفة شديدة وبسعادة اشد...

كنت اتساءل أي سعادة تلك التي تقدر على ان تبعثها في بمجرد اقترابك مني ...

بعد أن اتممت طعامك أخذت سيجارة صغيرة لتدخن ...

وكنت استنشق ريحها المختلطة بريح عطرك القوي الساحر كنت اتأملك قبالتي وما أجمل التأمل...

يالك من رجل يثير في فضولا لا ادري كنهه ....ويؤجج بي طفولة لا أعلم من أين تباغتني في كل مرة حين أراك ...فكلما قلت أنني نضجت حبا ...وجدت أنني مازلت طفلة بك.. أي رجل انت يا سيدي...أي رجل انت حتى تثير في فحولتك وذكوريتك طفلة مخبأة بداخلي لا تصحو عادة الا قبالة ابيها ...تحدثنا وكان كل حديثنا عنك ...لم اكن أحب التحدث عن نفسي اليك بل كنت أحب أن استمع اليك لا غير دون

التفوه بكلمة ..كما نشرب العصر في إحدى المقاعد القريبة من الكلية حتى تأخر الوقت واقترب موعد آذان المغرب ... كان الجو باردا وماطرا ...قلت لك وقد صحوت من غيبتي :علي الذهاب يا صلاح...سأعود الى الحمامات وسأسهر الليلة للمذاكرة لامتحان بعد غد .ولم الحمامات؟ لا أريد البقاء في ذلك المنزل الذي اكتريته في بداية السنة بمفردي ...ليس لدي أحد يقيم معي فيه...رانيا تعود كل يوم الى بنزرت وأنا اخاف الوحدة ....هيا لنذهب ... على كل لم يبقى الا امتحانين اثنين ونعود الى عطلة مطولة قبل بداية السداسي الثاني حسنا هيا لاوصلك الى المحطة . لا أنني لن أركب المترو ...أتيت بسيارة امي وسأعود بها . وأين هي؟ انها قبالة المحطة .اذا هيا الى المحطة .هيا لا تنسي ان تتصلي بي حال وصولك....كنت اتمنى لو كان بامكاننا ان نسهر سويا ونذاكر معا .يمكننا ذلك اونلاين فكرة جميلة ساحادثك بالميسنجر اذا .اتصل بي متى شئت.

كان الامتحان الاخير ..غادرت القاعة لاجدك في الحديقة مع بقية الأصدقاء... ذهبت لاشرب شايا فلحقت بي...والتقينا حول الطاولة الدائرية الطويلة ...كان جوا باردا ورومانسيا...وضعت اطراف اصابعي الباردة حول كوب الشاي لتتدفأ ...قلت لي مبتسما وقد بدت عليك سعادة مختلطة بشوق متخف تحت عيونك المتوجهة بالكامل والحياة والحب :ما رأيك ان نلتقي في هذه العطلة القصيرة التي ستسبق بداية السداسي الثاني؟ لا لا أرغب في ذلك تعبت من القدوم الى العاصمة أريد الراحة...ثم دعنا نشتاق الى بعضنا قليلا!

الم تجعلك عطلة شهر ديسمبر في شوق الي؟ بلى ولكننا التقينا .أعلم لكنني في شوق اليك ...الى مشية طويلة في ازقة المدينة العتيقة بمفردنا في هذاالجو البارد تحت المطر والأرض مبللة ونحن نحتسي كأسي شاي بالنعنع في مثهى الشواشين ونستمع الى صوت المطر .ارجوك لا تزرع بس شوقا الى المدينة...كم اشتقتها .أنني اتعمد ذلك .لا اعرف... انني اشعر بالملل من كل شيء ...ارغب في الهروب من كل ما حولي...احيانا ينتابنا التعب من كل شيء ومن كل ما حولنا....أنا في شوق الى صفاء ذهني لا غير .صدقيني كلنا متعبون من الامتحانات والدراسة والمذاكرة ... على كل كما تريدين لا بأس ...سأتصل بك خلال العطلة انتبهي الى نفسك .شكرا صلاح . تركتني واتجهت الى الحديقة...بينما غادرت أنا الكلية وعدت مسرعة الى الحمامات وصعدت الى سطح بيننا أتأمل البحر والمطر يهطل فوق مياهه الساكنة ... كانت عطلة جميلة رغم قصرها وما زادها جمالا زيارتك المفاجئة لي في الحمامات... التقينا بعد أن أتيت بالقطار لرؤيتي وجبنا الشوارع كلها سيرا على الاقدام ...اقترحت علي وقتها ان نذهب سويا الى الحمامات الجنوبية لنستمتع بألعاب (قرطاج_لاند) فلم امانع ودفعت ثمن تذكرتي ... كم كان يوما جميلا!

-10-

عدنا الى الدراسة ...عادت الينا الصباحات الروتينية المملة...والأيام الرتيبة المعتادة....عدنا الى جلسات الحديقة ووقفات "البوفيت ..."الى السير بين بهو واخر ...والى تعب الدرج الذي لا يكاد ينتهي قط ... عدنا الى كل من نحبهم (ومن نكرههم) كذلك هنا ....عدنا الى بعضنا...الى نقاشاتنا وضحكاتنا ...أخذت كوب القهوة بيدي واتجهت الى الحديقة ... كانت الرياح الباردة تهب على الأشجار فيغزو صوت حفيفها ساحة الكلية ...نظرت عن بعد الى الكراسي علي ارى احدها غير شاغر فاجلس عليه ثم اخترت كرسيا فاغرا ... اظنه كان بانتظاري ...نظرت الى يساري فوجدتك فجأة بجانبي تنظر الي بحنق... فوجئت قائلة :صلاح؟ هل انت هنا يا صديقي؟ كنت أنتظر ان تريني وتلقي علي التحية ام ان عيناك مازال يداهمهما النعاس؟ اظنك لا ترين شيئا عدا كوب قهوتك .أنا اسفة! محق! انني لا ارى شيئا في الصباح ما لم أشرب كوب القهوة ولم ادخن سيجارة .لعنك الله! منذ متى اصبحت تدخنين؟ !أخذت حقيبة يدي باليد اليسرى بينما كان كوب القهوة بيدي الاخرى...وجلست على كرسيك قائلة :ابتعد قليلا ودعني أجلس بجانبك .تفضلي سعادة السفير !برأيك الي بيصاحبك شو بيتعلم غير هالشغلات الفساد معدي يا اخي عديتني شو ساوي؟ بالله؟ عديتك ؟ وانتي ليش بتقلديني ؟ أحب أن أكون شبيهة بك أحب تقليدك في كل ما تقوم به... نحن هكذا العشاق نتخذ من المعشوق دوما القدوة الذي نحبذ تقليده في كل ما يقوم به .قلت لي مازحا: ايش هالغلاظة؟ فضحكت وقد امتصصت رشفة صغيرة من ذلك الكوب الذي بدا ألذ على غير العادة وقلت لك : بصراحة وبدون مزح صرت ادخن لأن السيجارة تريحني... تسعدني...تجعلني اصطبر على وجودي هنا وترتب الافكار داخل رأسي المليء بالضجيج والفوضى! أنا بحاجة إلى ترتيب داخلي ووحدها السيجارة تجعلني انجح في فعل ذلك !يال الهول! هل حقا سيجارة صغيرة تفعل بك كل هذا؟ !اجل ألا تصدقني ؟ لو اني اخبرك ماذا تفعل بي أنت ؟ احم ! حسنا أظن ان علينا ان نذهب الى قاعة المحاضرات.. تعلمين ان استاذة القانون البرلماني لا تقبل من يأتي متأخرا أنا سأصعد الى القاعة....الحقي بي حين تكملين قهوتك .انتظر لحظة سأذهب معك !والقهوة؟ ما بها؟سأكملها داخل القاعة !عند انتهاء الحصة بعد ثلاث ساعات تخللتها استراحة ...جلست في الحديقة للارتياح قليلا...بينما ذهبت أنت الى المشرب ...كعادتك اتيت متأخرة عن اللهفة بلحظات...كنت في انتظارك بشوق لحظة اتيت بكأس حليب ساخن بالشكولا وقلت لي : اتعلم ماذا اريد ....ارغب في تصوير القطة بية لابعث الصورة لامي انها تعشق القطط وانا احدثها عن "بية" بصفة مستمرة اريدها أن تراها لكنها لم تدعني اصورها ...لا بأس صوريها من الخلف لا اريد تصوير وجهها اسمع امسكها لي بسرعة لا ارجوك ستتسخ ثيابي بشعرها امسكها دقيقتين فقط لأخذ منها بعض الصور لا تفلتها من يدك ارجوك ...جعلتها

تجلس فوقك ثم بدأت بأخذ صور عديدة لها واذا بها تلقي بنفسها فجأة من فوقي الى الأرض مسرعة فقلت لها ضاحكة :اهربي بسرعة يا خوافة !ثم انفجرت ضاحكة وقلت :مؤكد انها شعرت بمؤامرة ما عليها ربما تتسائل ماذا فعلنا بها! في العادة تحب بية التصوير لا أدري لماذا خافت هذه المرة.. أنت من اخفتها . انا؟ انني امازحك....لا تغضب....علي ان ادخل الى مكتب استلام الوثائق لأخذ كراس الدروس المسيرة....لا تتحرك من هنا .حسنا . انتظرتك قليلا على مقعدي وحاولت الانشغال عن ذهابك بالهاتف ...لم تتأخري... مسرعة دوما كعادتك... كانت بضع دقائق حتى أتيت غاضبة وقد تغيرت سحنتك وتبدلت ملامحك واختفت ابتسامتك ...رفعت رأسي اليك وقد وقفت قبالتي قائلة :ما هذه المغامرة من اعوان هذا المكتب؟ أهؤلاء جديرون بالعمل في ادارة! شيء لا يطاق !ثم قلت بلهجتك الشامية أو ربما بلهجة والدتك :خلاص صار لازم يجي جدا يرمي قنبلة هون ويريح العالم بقا من هالكلية يلي متل ....ما في داعي قول متل شو .اسكتي أنت صرت وقحة على فكرة .والله ما دخلي أنا كله بسبب المترو .وما دخل المترو في الموضوع؟ لا ادري .انتي عاوزة تجنينيي؟ أي شكلي هيك عاوزة.

قومي قومي لنذهب الى المكتبة وندرس .فقلت مازحة باللهجة المصرية : لسا السنة قدامنا طويلة مستعجلين على ايه؟ !مستعجلون على مستقبلنا .انه ليس بانتظارنا...لقد كذبوا علينا وخدعونا واقنعوننا ان في نجاحنا في البكالوريا راحتنا من كل شيء... وها نحن الان كالمعذبين في الارض والان يحاولون اقناعنا ان التخرج والوظيفة ستريحنا ولكننا هذه المرة لن نصدقهم... لن ينطلي علينا خداعهم هذا مرة أخرى

- ماذا بوسعنا ان نفعل... هذه هي حياتنا في العالم العربي.

- يقولون لنا غدا بعد ميل وظيفة سترتاح...ثم بعد الزواج سترتاح...ثم بعد الانجاب...ثم بعد أن يكبر الاولاد .

- ثم يموت فيقولون ها قد مات وارتاح !

انفجرنا ضاحكين فقلت لك بصوت منخفضة :اصمتي سيطردوننا !

- خيرا يفعلون.

-11-

نزلنا من المترو في محطة الباساج ...امسكت بيدك ونزلت واياك الدرج ثم خرجنا بإتجاه شارع باريس واخذنا نمشي ببطئ ...لم يكن لنا اتجاه معين نذهب إليه ...شارع غانا الى ال TGMنحو شمال العاصمة .شارع الحرية ثم الى بلڤيدير بعد شراء سندويش شاورما شارع علي البلهوان والذهاب الى باب سويقة وباب الخضراء ...أو شارع الحبيب ثامر والذهاب الى باب بحر والدخول الى المدينة العتيقة من نهج جامع الزيتونة ...لم نتفق على شيء من كل هذه الطرقات ...الأغرب أننا كنا صامتين طوال الطريق في المترو... وحين نزلنا اصابتنا الحيرة الى أي اتجاه سنذهب ...قلت لك:هل لي ان اعلم الى أين ستسير لنا اقدامنا؟ لا ادري...الى أين تريد ان نذهب؟ مارأيك ان نأخذ القطار الى سوسة.؟ ماذا ؟ سوسة؟ أليست بعيدة ؟ متى سنصل؟! اسمعي أنا سأموت جوعا لقد غادرت البيت مسرعا ولم أتناول فطور الصباح لاجلك كي لا أتأخر عنك أو ادعك تنتظرين طويلا... لذا من باب رد الجميل...عليك ان تأخذيني سريعا لنفطر .بصراحة أنا كذلك لم أتناول الفطور...لدي حل سنذهب الى مقهى بن يدر في باب الجزيرة ونتناول فطور صباح لذيذ هناك...ثم نذهب ما رأيك؟ اين هو؟ !انه مقهى جميل ومرموق ...اذا كنت تريد فطور صباح أجمل والذ..سنذهب إلى بومهل الى مقهى المعازيم .لا أظن ان شدة جوعي ستجعلني أنتظر الى ان نصل الى بومهل قطار الضاحية الجنوبية لن يأتي الا بعد نصف ساعة من الآن . اذا هيا الى باب الجزيرة .انعطفنا يمينا على شارع روما ونهج الدلافين متجهين الى نهج المنجي سليم ثم باب بحر وصولا الى باب الجزيرة... كان السواق الجزائريون في باب بحر ينادون "تبسة .... تبسة....عنابة ....عنابة "...لحجز اماكن بإتجاه الجزائر...التفت اليهم ثم قلت لي :ما رأيك ان نركب ونسافر الة الجزائر ونقضي يوما سياحيا هناك؟ لا انتي مجنونة رسمي يا بنت .ضحكت وقلت لي: اكسر الروتين قليلا ألم تمل السياحة في تونس؟ وجودي في تونس ليس سياحة...انما هو اقامة .أعلم لكننا لم نختر وجهة أخرى عداها كلما اردنا الذهاب في فسحة ...وما بها تونس انها جميلة !جميلة ومرهقة !تماما مثلك !لقد تعبت المشي....أخيرا وصلنا.

-12-

رن جرس باب بيتها فنهضت بتثاقل وكسل لتفتح الباب فإذا بها تجده يقف قبالتها بمعطفه السود ووشاحه الرمادية وقبعته الصوفية المعتادة.. ابتسمت إليه بفرح وقالت :صلاح ؟ ادخل عزيزي .رأى التعب والذبول باديا على وجهها الطفولي بشكل ملحوظ أغلق الباب وقال :ما بك عزيزتي هل مرضت؟ !اجل اشعر بتعب شديد بالكاد غادرت الفراش لافتح الباب !سلامتك .الله يسلمك .امسكت بكتفيها وارتعشت وركضت نحو سريرها في غرفة النوم وقال :يا ويلي اشعر بالبرد .لحق بها وقد ارتمت تحت الاغطية الكثيرة المتراكمة فوق بعضها على السرير ...القت بنفسها من التعب وأخذت ترتجف تحت الاغطية وقف ناظرا إليها من الباب ولاحظ الكمية الكبيرة من الادوية على "الكومدينو" المحاذي لسريرها...قال لها :اين رانيا؟ انها في الكلية هي من اشترت لي الدواء من صيدلية "القبي" في المنزه..انها في الكلية الان....اما عني فلم أغادر المنزل منذ ثلاث ايام....انها نزلة برد حادة .لا تقولي لي انك مرضت بسبب بقائنا تحت المطر في المرة الأخيرة؟ لا ليس كذلك بصراحة لا تعرف اتريد الحقيقة ؟ اجل... اظن أنني بدأت اسهل منذ تلك الليلة .ارأيت نتيجة جنونك؟ لقد قلت لك لا تبللي نفسك ستمرضين...فقلت لي مطر الربيع لا يتسبب في المرض ...ها قد رأيت امطار الربيع ماذا فعلت بك !ماذا سأفعل...اشتقت الى المطر فأردت ان اتبلل واشتم رائحة المطر على شعري وجلدي...لست نادمة لا يهمني... سعال خفيف سينتهي قريبا .المهم اشربي الدواء الذي اشترته لك رانيا بانتظام وكلي جيدا .أطمئن .اريدك ان تعودي الى الكلية قريبا...ثم اريدك ان تقطعي عادة المشي تحت المطر والتبلل عمدا ..صحتك أهم من كل شيء ...عليك ان تشفي كي تعودي الي ...بقيت بمفردي من دونك...والاصدقاء هناك يتسائلون عنك... يظنون أننا تشاجرنا وانك لا تريدين المجيء الى الكلية كي لا تريني .أي اغبياء هم هؤلاء الاوغاد اللذين يشاركوننا الصف نفسه... لا تحدثني بشأنهم ارجوك...اناس مرضى...انا لن ابقى هنا سأعود الى الحماماتقريبا بعد أن اتعافى .ولم ؟ انه الاسبوع الأخير قبل العطلة...اقتربت نهاية الاسبوع رانيا ستغادر الى بنزرت غدا وأنا سأذهب خلال يومين لن أبقى طويلا ...المهم ان تنتبهيالى صحتك جيدا ...عزيزتي ...لا تغادري البيت ابدا ألا حين تشفي تماما...دعيني أذهب الآن تأخرت انتبه الى نفسك ..كان يجدر بك ألا تجيء اخاف ان أتسبب لك بالعدوة .اطمئني سأكون بخير...

مرت عطلة شهر اذار .. كان شهر نيسان شهرا للامل والحب بإمتياز ...اضحت الحديقة جميلة جدا...

اعطى الربيع طاقة جديدة للجميع..غادرا الكلية واتجها الى محطة الحافلات قالت له:

ما رأيك ان نذهب الى مكان ما؟ ما يزال اليوم طويلا انها الساعة العاشرة كل المحاضرات القادمة لن ندرسها بسبب اجتماع الاساتذة في المجلس العلمي...الطقس جميل جدا انني لا ارغب في البقاء في البيت بمفردي...رانيا ليست في البيت هذا الاسبوع...لم تأت من بنزرت...

-13-

بعد الافطار ...تركت رانيا في البيت بعد أن اقنعتها بأنني سأسهر في بيت صديقتي منى في المنزه الثامن ..ذهبنا سويا الى المدينة العتيقة بعد أن اتفقت واياك على أداء صلاة التراويح في جامع الزيتونة .. كان الصلاة في ذلك الجامع في ليالي رمضان طعم آخر... سكون من نوع اخر....وخشوع تدمع فيه العين ويخشى فيه القلب...كنت اسجد على الأرض وامرغ جبهتي وانفي على السجاد في حركات متناسقة مع الجميع ...كنت اشعر بصفاء في الروح فوق العادي ...وكأنها قد غادرتني وأخذت تحوم فوق سماء الجامع ...كان شعورا رهيبا يعجز اللسان عن وصفه ...احيانا نصبح في حاجة الى الخشوع كي نشعر بالصفاء ! بعد الصلاة غادرنا الجامع.....وجلسنا في مقهى الياسمين.... كنا صامتين نستمع الى الضجيج الذي حولنا....أصوات الأحاديث المختلطة واصوات الأغاني الذي أخذ ينخفض ويتقلص بمرور الوقت واقتراب منتصف الليل...أردت أن اقطع تأملك فكسرت الصمت قائلة :اتعلم شيئا؟ !ماذا؟ اشعر برغبة في ان استمع الى اذان الفجر من جامع الزيتونة واصلي تلك الصلاة هناك....نحن الان في العشر الاواخر....انها ايام مقدسة! ايام العتق من النار! ايام العبادة والتقرب فيها أمر محبب جدا الي...انني لم اجرب صلاة الفجر في الجامع ولو لمرة في حياتي.....لقد اقترب موعد الامساك ولم يبقى الا القليل على الآذان ...هيا لنذهب ونأكل شيئا للسحور ثم نبقى في الجامع حتى وقت الصلاة... انها فرصة لن تتكرر...ارجوك !لست امانع...هل بقي معك مال كاف لشراء شيء للسحور؟ اجل ...لا تقلق بشأن هذا وانت؟ أنا معي ما يكفي...لكن ما سنأكل؟ سنأخذ سندويشة ثم نتشارك في صحفة من السحلب باللوز...ثم نشرب كأس عصير توت أو موز ...قرأت في إحدى الصحف ان الموز يقي من العطش طوال يوم من الصيام...هيا لنذهب .اظنك قد خططت لهذا الأمر مسبقا اليس كذلك؟ أظن ذلك .يبدو انني في كل مرة اقع ضحية لمخططاتك . لا بأس عليك انها ليست مخططات سيئة على اية حال... هيا أسرع كي نجد شيئا لنأكله والا ستغلق المحلات قبل ان نتناول السحور .تناولنا السحور سويا...ثم اتجهنا الى "الميضة"_ المكان المخصص للوضوء_ كي نتوضأ...ثم التحقنا بالمصلين اللذين استغربت كثرة عددهم رغم تأخر الوقت وانغلاق للمحلات جميعها...بعد أن كنت قد ارتدت الحجاب والفستان الاسودين مرة أخرى ... دخلت الجامع فوجدتك قد سبقتني الى باحته تنتظرني فقلت لك : حين اكمل الصلاة سأنتظرك في الباحة ! حسنا اتفقنا .كان المصلون قد اجتمعوا في الداخل هذه المرة ... نظرا لأن عددهم تقلص ...دخلت الى مكان الصلاة الخاص بالنساء ... بعد أن ارتفع صوت الآذان في ارجاء المسجد والمدينة ... بدأت صلاة الفجر جماعة أين اصطفت بضعة نساء بجانب بعضهن البعض واقفان في خشوع لأداء الصلاة...كان الجميع الغفير الذي ملأ ارجاء المسجد وغطى الباحة بأكملها اثناء صلاة التراويح قد ولى فلم يبقى الا قلة قليلة لتؤدي صلاة الفجر في المسجد ...رفع الأمام صوته قائلا :الله اكبر! وبدأ الجميع الصلاة .كان قلبي خاشعا...مليئا بالعمل والأيام بأن الله سيمنحها غدا أفضل! كان فيض من السكينة يغمرها وهي تحرك شفتي بالدعاء خلال السجود وروحي تلهج بالذكر !بعد الصلاةة مرغت جبهتي طويلا على ذلك الحسير الخشن أصفر اللون واطلت السجود داعية بكل ما خطر ببالي .غادرت المكان الى الباحة أين خرجت بدورك بعد أن انهيت الصلاة اخذنا صورة في الباحة بدت فيها المأذنة والقبة ثم غادر !كانت انهج المدينة العتيقة خالية تماما لا من بعض المصلين العائدين الى بيوتهم أو القلة المتبقية من الساهرين اللذين تناولوا السحور في الشارع يسرعون الخطى للعودة الى بيوتهم للنوم ...قلت لك :الان ستغلق ما تبقى من المقاهي والمطاعم ومحلات الاكل ...بعد أن يقوموا بتنظيفها ولملمتها سيعود الجميع الى بيوتهم

هرولة.... ستغلق الجوامع ابوابها الامامية والخلفية...وسيعود الجميع الى بيوتهم للنوم . ونحن سنعود ادراجنا .حقا؟ !جلست على صغيرة قبالة احدى ابواب البيوت العتيقة الواسعة والتي تدلت من على سورها ياسمينة كثيفة الاغصان ...وضعت حقيبة يدي الثقيلة أرضا وقلت :اشعر بتعب من المشي أريد بعض الراحة...تعال أجلس بجانبي ...كيف وجدت الصلاة في الجامع؟ انها تولد شعورا بالراحة والاستكانة وكأنني تركت كل همومي عند الله وخرجت .رفعت رأسي الى السماء التي بدت قريبة مني اكثر من العادة... وقلت : اتراها تتكرر ليلة كهذه مرة أخرى في حياتنا ؟ طبعا لن تفعل! لذلك أريد ان اعيشها حتى النهاية بما أنني لن اعيش ليلة أخرى شبيهة بها !لماذا؟! إن شئت سنعود في المرات القادمة الى هنا ونسهر سويا حتى يرتفع آذان الفجر....لقد جعلتني أحب المدينة العتيقة !اما عني فلأني أحبها أحب أن ارى الشروق فيها .هل سنبقى هنا حتى تشرق الشمس؟ أريد ذلك .حسنا لا امانع! لكن الاهم أين سنبقى؟! وفي أي مكان سنشاهد الشروق؟ هل انت متأكدة ان ليس في ذلك خطر؟

- لا تخف اننا في رمضان والكل بعد السحور يعود ادراجه الى البيت حتى ولو كان مفطرا...اذا لا اخاف البقاء هنا في هذه الساعة المتأخرة...أما اذا أنت تشعر بالخوف فأنا لن اجبرك هيا فلنعد !الا لا سأبقى برفقتك...كنت اتمنى ان أجتمع واياك ونرى الشروق سويا ولو مرة !هيا اذا فلنذهب الى البلدية ...هنالك كراسي متعددة هناك سنجلس على احدها .حسنا هيا لكن لا تنامي...كما فعلت المرة الماضية في البحر....علينا ان نتفق من الآن ان لا احد منا سينام حتى مرة الشروق ونعود ادراجنا .لن انام اطمئن كنا بصدد شرب القهوة منذ قليل لا اشعر بنعاس يراودني .جيد !امسكت بيدي وذهبنا نحو بلدية القصبة ...مرورا بنهج سيدي بنعروس وقصر الحكومة ...ذهبت الى إحدى الكراسي قبالة العلم الذي يتوسط ساحة البلدية ويرفرف فيها وكنت تلحق بي من الخلف وأنا أمسك على يدك بقوة .جلست كمن يلقي بنفسه على الكرسي تعبت واستلقيت على ظهري فقلت لي :هل هذا يعني أنه علي ان أبحث على كرسي اخر؟ لماذا؟ لم تتركي لي مكانا للجلوس ! رفعت رأسي بيدك وجلست ثم وضعت رأسي على فخذيك وأخذت تمسح شعري بكف يدك وقلت :أي مجنونة انت؟ لم يبقى أحد في الشارع عدانا نحن الأثنين وعمال النظافة وبضعة سيارات مارقة. تخيلي لو يتهموننا بممارشة الدعارة في مكان عام خاصة واننا قبالة وزارة الدفاع مباشرة...صدقيني ستكون العقوبة مدنية وجزائية دون ظروف تخفيف .اولا نحن في شهر رمضان ومنذ قليل كنا نصلي ولا يمكننا فعل شيء كهذا لاننا نخاف الله ثم كيف لنا ان نمارس الدعارة بجلوسنا على هذا الكرسي وتبادلنا اطراف الحديث !أخذت وضعية استرخاء وأنا أضع رأسي على صدرك فأخذت تمسح شعري بأطراف اصابعك ...غمرتني نسمة ايار الباردة فشعرت بقشعريرة جعلت كتفي ترتعشان...ضممتني اليك قائلا :منذ قليل كنا نصلي وقبل ذلك كنا نتناول السحور والان كلانا صائم ومع ذلك فنحن نجلس سويا هنا لنشاهد الشروق ...هلا قلت لي هل سيقبل الله صيامنا يا ترى؟ وهل نفعل شيئا محرما؟ بصفتنا ماذا نجلس هنا سويا في ساعة الفجر ...لست زوجتي ولا خطيبتي ...لست ابنتي ولا اختي ولا امي .لا مشكلة اعتبرني واحدة منهن أو كلهن في الوقت نفسه .وما رأيك ان تصبحي واحدة منهن فعلا لا قولا فقط !وكيف ذلك؟ هل سأنجبك؟ لقد انجبتك والدتك وانتهى الأمر...أم ستصبح اخوين؟ لا يمكن ذلك الا اذا تبناني والداك . ثم ضحكت بشدة محاولة خفض صوتي كي لا يعلو في ارجاء ساحة البلدية .قلت لي: يالك من مجنونة! كنت اقصد ما رأيك ان نتزوج؟ ضحكت بشدة مرة أخرى فضحك معها وقال :مابك؟ هل قلت لك نكتة حتى تضحكي بهذه الشدة؟ طبعا وماذا قلت اذا؟ انها نكتة مضحكة !لماذا؟ قل لي ماذا سيكون اولادنا حينما ننجبهم؟ تونسيون أم فلسطينيون؟ لا ادري ربما الأثنين ...المهم أن يكونوا منا ولنا وان يخلطوا دمي بدمك وصوتي بصوتك وطبعي بطبعك وان نحبهم ويحبوننا ويتمنوا اجتماعنا دوما .لا أريد أن انجب اولادا .لماذا ؟ !عزيزي من أريد ان ينجب اولادا عليه ان يكون مستعدا لمنحهم حياته وأنا لم اعش حياتي بعد ولم اتشبه من الحياة حتى امنحها لغيري! لم

اعشها بعد! انظر الى ذلك الخيط الابيض البعيد انه يلوح في السماء. يال جمال الشروق ! اشعر بأن الهواء الذي استنشقه نظيف ومنعش ! يا الله لماذا ليس لي بيت وشرفة هنا؟ !لماذا ليس لنا بيت وشرفة هنا؟ ضحكت وقلت: لأننا لن نجتمع ولن نتزوج! انسى الأمر يا عزيزي ! استمع الى هذا الصمت وهذه السكينة ... صوت العصافير الكثيرة التي تعلن بداية يوم جديد جميل جدا ... أريد أن اغمض عيناب وان تتواصل هذه اللحظة حتى تتحول الى الابدية ولا تنتهي ...يال جمال هذا الصباح ! انه أجمل صباحات حياتي !استلقيت على الكرسي ومددت رأسي على فخذيك ونظرت اليك...فتقابلت عينانا حتى بدت بضع سنتيمترات لا غير تفصل بيننا...أطلت النظر اليك وأنت تبادلني النظر مبتسما الي ثم قلت لي: ها قد طلع الضوء....بعد قليل ستجدين الناس تتوافد على المكان من جديد الذهب الى أعمالها.... اليس علينا ان نرجع ادراجنا؟ اجل اظن انه علينا ان نذهب ....اشعر بالنعاس وكأن مفعول القهوة عكسي علي أنا بالذات كلما شربتها اشعر بالرغبة في النوم على عكس الجميع .اذا تريدينا ان ندخل في اول حائط يعترضنا؟ لماذا؟ لأنك ستنامين وأنت تقودين السيارة؟ قدها أنت! لا مشكلة لدي! أنا أصلاً اشعر بالتعب وفكرت في ان اطلب اليك هذا منذ قليل . حسنا...هيا عزيزتي لنذهب .نهضت بتثاقل من على الكرسي ووقفت حاملة حقيبة يدي وامسكت بيدك بقوة وغادرنا.

صعدنا سيرا على الاقدام الى كلية 9 افريل أين بقيت السيارة مركونة بمفردها هناك بعد أن غادرت كل السيارات التي كانت مصطفة بجانبها يمنة ويسرة في بداية السهرة.. حتى ان الحارس الذي هناك كان قد غادر... ركبت في كرسي القيادة وانطلقنا...الى اريانة... أين عدت الى البيت وارتميت سريعا على الفراش بجانب رانيا التي كانت قد نامت منذ وقت طويل على ما اظن... واستسلمت للنوم دون أن اكلف نفسي عناء نزع ثيابي..

-14-

كانت الرابعة عصرا...
فتحت عينيها ونظرت الى هاتفها على الكومدينو فارتعبت من تأخرها في النوم الى ساعة العصر...
فقفزت من الفراش سريعا الى المطبخ لتحضير شيء للاكل ...أين وجدت رانيا بصدد غسل الصحون...قلت لها:
مساء الخير!
مساء الخير عزيزتي...هل نمت جيدا؟
اجل.
وكيف كانت السهرة في بيت منى؟
جميلة! ليتك كنت معي...لقد عدت بعد السحور لأنها اصرت علي ان اتناوله معها في بيتها ثم اوصلتني سيارة والدها الى البناية هنا.
جيد المهم انك بخير...لقد اتصلت بك لاني خفت عليك بسبب تأخر الوقت.
شكرا رانيا...ماذا سنطبخ اليوم؟
أنا سأشوي سلطة وأنت اطبخي الحساء سنضيف اليهما معكرونة وسنقلي "بريك" ما رأيك؟
جيد ...سأغسل وجهي واتي لمساعدتك.
غيرت فستاني ذلك الذي نمت دون نزعه....ودخلت المطبخ لأبدأ بتنقية الفول السوداني والعدس والبقدونس...بينما سمعت صوت الجرس فذهبت لافتح...لاجد ملاك واقفة قبالتي...فقلت بصوت عال:
ملاك؟ اهلا بك ادخلي يا جميلة الوجه وبهية الطلة.
كيف أنت عزيزتي ؟
الحمدلله بخير....انني بصدد تنقية الفول والعدس الحساء وهذه صديقتي وزميلتي رانيا التي تشاركني الاقامة في هذا البيت منذ بداية السنة.
اهلا بك رانيا تشرفت بمعرفتك.
جميل بما اني اليوم سأفطر عندك عليك ان تطبخي حساء جيدا.
وهل أنا طباخة عندك؟ هيا بسرعة مدي يدك وساعدينا.
دقيقة سأذهب لانزع حجابي وتغسل يدي واعود.
بعد وقت قصير عادت إليها ليبدآ التعاون على تحضير العشاء...قالت انغام لملاك:
لماذا تركت بيت منى وأتيت الى هنا؟
لقد وعدتها ألا أبقى لاكثر من يومين عندها وسأتدبر امري في ما بعد في مسألة اقامتي...فخمنت ان آتي اليك ... في النهاية أنت وصديقتك بمفردكما ...الأفضل أن ابقى عندك هنا الى ان تنتهي دورة الامتحانات هذه...على أمل ان لا أتأجل للدورة الثانية والا ستعترضني مشكلة الاقامة مجددا....

- اطمئني في هذه الحال ساعطيك مفاتيح البيت وتعالي لتنامي عندي.

- ما رأيكن بسهرة في المدينة العتيقة الليلة

- اجل فكرة جميلة سنذهب سويا الى احدى المقاهي.

كانت الرابعة صباحا ....ولم تستطع انغام النوم بفعل التفكير وشدة الحر ...

غادرت البيت وصعدت في الدرج الى السطح وفي يدها كرسي وقارورة ماء وايس كريم

وبينما جلست وأخذت تنظر الى الأضواء البعيدة المشتعلة والسيارات الصغيرة التي تمشي في الطريق وتبدو ككرات ضوء بعيدة تتحرك ... وجدت رسالة في هاتفها من رقمه كتب لها فيها:

"أمر على الابواب من غير حاجة

لعلي اراكم لو أرى من يراكم

سقاني الهوى كأسا من الحب صافيا

فيا ليته لما سقاني سقاكم

فياليت قاضي الحب يحكم بيننا

وداعي الهوى كما دعاني دعاكم "

ابتسمت وقد اهتز قلبها فرحا وعادت لتتأكد مرات عدة من ان الرقم كان رقمه....

فتحت الميسنجر فكتب لها :صباح الخير يا مجنونة

صباحك عطر يريح الياسمين الدمشقي وتفاح حيفا وليمون القدس ولوز اريحا....جعل الله يومك حاول كصوت آذان الجامع الاموي عند الفجر .

حبيبتي تسلميلي .

كيف انت؟

أنا سعيد جداً...سعيد اكثر من المعتادة بكثير

وانا كذلك سعيدة بسماع صوتك...

لقد اشتقت اليك يا رحيق روحي....

قل لي متى اراك؟

متى يمكنني ان اجيء الى اريانة كي نلتقي؟

أم انك في غزة ؟

لست في غزة....

ثم من قال لك اني في اريانة

اين انت اذا؟

أنا هنا بجانبك

بجانبي؟لكنني لا ارى شيئا

انا في الحمامات

لا؟ حقا؟ اهلا بك ماذا تفعل هنا عندنا؟

انام هنا ليلا وصباحا انزل للبحر وبعد الظهر اخذ قيلولة وبعد

لم اقل لك احكيلي قصة حياتك.

انت سالتني ماذا افعل

اقصد لماذا اتيت هنا اين ومنذ متى؟

اتذكرين عندما قلت لك رفاقي يريدون قضاء اسبوع على الشاطئ في مكان ما

اجل

لقد حاولت اقناعهم بالمجيء للحمامات عوضا عن بنزرت

لا ...أنت تكذب... حقا؟

اجل طبعا

قل لي كيف فعلت هذا؟

ساخبرك حين نلتقي

والله؟ اذا سنلتقي؟

كل يوم لكن في الخفاء لا اريدهم أن يعلموا السبب الحقيقي لاصراري على القدوم هنا

حسنا متى سيكون اللقاء؟

غدا صباحا سأنتظرك في مقهى"سيدي بو حديد" الساعة التاسعة! اعرف ان الجو حار لكن تحملي لأنني مساء علي ان اكون مع رفاقي....انهم ينامون طوال الصباح وأنا سأستغل الفرصة لتركهم لاجل المجيء اليك

اتفقنا

كان اللقاء أخيرا ....

كان لقائي بك جميلا ....

لقاء بعد انتظار طويل وايام مملة وليال كئيبة ...

وما دواء مريض الحب عدا اللقاء؟

التقينا على الشاطئ ... العين بالعين والسن بالسن ...وقد ولى الشوق ومضى ...وارتويت بك ...

كظمآن ارتشف قطرة الماء بعد عطش طويل ...اقتربت من فاهك وضممت وجهك بين كفي وأخذت ادلك ذقنك بأطراف اناملي ...كنت اريد ان استشعر وجودك قربي...كنت اريد ان أتأكد ان الحقيقة...انك لست وهما ولا سرابا ...انك واقعا لست حلما جميلا يراودني ...كنت بحاجة إلى ان اصدقك ...ان أصدق ما يحدث معي ....ان أصدق انك فعلا أمامي واني لم اجن... وان العين لا تكذب ...ان أصدق ان عيناك هاتين أمامي فعلا وانهما يرياانني حقا واننني فيهما الآن...كعادتهما ببريقهما المعتاد وجاذبيتهما الخارقة ... جلسنا الى طاولة قبالة البحر ....قريبة جدا إليه الى درجة ان رذاذ الامواج كان يصيبنا حين يرتمي احدهم في المياه...كنت سعيدة بك حتى اني نسيت الحر الشديد الذي جئت فيه ...نسيت الساعات القليلة التي نمتها ليلة البارحة... ونسيت الارق والتعب.... كان اللقاء الأخير لنا تلك الصائفة ... مر الصيف وكان على كلينا ان يجهز نفسه للعودة الجامعية التي اوشكت على القدوم الى ايامنا المتعبة مجددا ... ابتسمت إلي بعد أن اوقفت السيارة بطريقة مغرية والتفتت إلي وقلت:

هيا لننطلق

الى أين سنذهب؟

سنذهب الى إحدى المطاعم ونأكل ثم سنسهر سويا في مقهى على الماء تماما كي تحبينه

جاء أحد اعوان البلدية الى السيارة محاولا ازعاجك ضاحكا قائلا بسخرية: والله يامعلم توقيفتك للكرهبة لهنا موش صحيحة بلكل

تفضل ايش المانع؟

لا ماثماش مانع أما كل شي بحسابو هوني خويا حساب ايش تارك السيارة على ذمتك انا؟

شبيك تحكي هكا انتي؟ أنا عون بلدي هنا نخدم على روحي

قلت لك بقلق: صلاح اذا سمحت لا تتسبب لنا في مشكلة ارجوك

ألم تسمعي قوله؟

خلاص لا تجعل منها مشكلة

حسنا سيدي سأترك السيارة وعند العودة سأدفع لك احرسها جيدا

نزلت من السيارة واحكمت غلقها فأمسكت بك وقلت :

هيا اذهب أمامي بسرعة ستجعلنا نسهر في مركز الشرطة لا في مطعم هل تريد ان تفتعل مشكلة مع عون بلدي راح يعملك محضر ايزا طولت لسانك معو

يعمل عشرة

غير معقول ما ايبس راسك يا ولد...والله الزلمة ما حكاش معك اشي مش شاطر غير تسوي المشاكل وتعمل من الحبة قبة وكل قصة بتصيرا قضية زي قضية فلسطين...أنت لا تقدر على العيش بدون قضية أم ماذا؟

كان المقهى الذي جلسنا فيه جميلا جدا... كنا قبالة البحر وقد اكتمل القمر ...كان انعكاسه الجميل على سطح الماء يشعر في عيني وكأن بي أرى نور الجنة...كنت حذوك لا اشعر بمرور الوقت...كنا نحتسي العصير على مهل ... وندخن النرجيلة بالتداول ....تحدثنا عن كل شيء ليلتها...ونسينا كل شيء من حولنا يتعبنا...لم نكن نهتم ابدا ان في الغد سيكون صباح العودة الى الكلية وبداية الدروس ...كان الأهم لدينا هو مزاجنا ... فرحنا ...سعادتنا ... حياتنا...التي ولاول مرة نعطيها الفرصة لتعاش بالطريقة الصحيحة بعيدا عن كل شيء ...كم كنت سعيدة معك وبك ...فمعك أنت لا غير كنت اشعر بأن الحب هو الذي يجعلك تنسى كل ما يمكن ان يؤذيك وتستمر في مواصلة حياتك بالطريقة التي تريد دون شعور بالخوف...أو احساس بالقلق مما تفعله ...اظن ان الكثيرين مثلنا كانوا يسعون لكسر روتينهم عبر السهر دون أن يهتموا الى الوقت الذي تأخر .... جبنا شوارع حلق الوادي كلها شارعا تلو الآخر حتى اغلقت المحلات وعاد الجميع الى بيوتهم...تناولنا السحور هناك ...لا اذكر أي ساعة عدنا الى البيت ...ولكنني أذكر جيدا أنني انتشيت وانتشي دوما كلما أكون برفقتك!

الفصل الثالث:ربيع الحب

"معه لا تبحث إلا عنه...

عن مزيد منه...

عن كثير منه..."

- ريما كركي-

-1-

في الصباح الباكر...
اشرقت الشمس في إحدى صباحات نيسان الربيعية... التيقت بك في المدينة الرياضية بعد أن جلست على إحدى الكراسي امام الملعب الرياضي بالمنزل واناظرت قدومك... وبعد أن جئت ذهبنا الى إحدى المقاهي قبالة محطة "الحي الرياضي" كان أسم المقهى:
جلسنا سويا مبتهجين باللقاء تبادلنا كلمات معتادة خالية من الشوق ...أخذت تسألني:
كيف كان صيفك؟ هل اشتقت الي؟
انني بانتظار لقائك مذ تركت الحمامات في الصيف.
وأنا كذلك... قولي لي هل انت جاهزة للسنة الأخيرة لك في الكلية؟
اجل أنا على اتم الاستعداد لا تقلق!انني جاهزة نفسيا لطول هذا العام وصعولته ومستعدة لكل شيء...تعودنا على التعايش مع الظروف الاستثنائية التي تطرأ علينا خلال السنة.
قولي لي هل ستقطنين في البيت نفسه الذي سكنته السنة الماضية؟
لا لقد انتهى عقد الكراء بيني وبين صاحب البيت واكتراه لاناس غيري لذا ساقيم هذه السنة في البيت الذي ستكتريه ملاك لقد اصبحت سنة اولى ماجستير.
لا تقلقي سننجح ونلحق بها السنة القادمة باذن الله.
لا يهمني المستقبل الآن أريد ان اعيش كل لحظة دون أن افكر في شيء...هيا قم لنركض.

-2-

وقف امام المبيت الجامعي للفتيات منتظرا اياها ...فلم تأت ثم اتصل بها فاجابت :اهلا اين انت؟ لماذا لم تأت الى الان؟

انني انتظرك

أين تنتظرني؟

امام المبيت كالعادة لكنك لم تنزلي الم تجهزي بعد؟

غير معقول ! امام المبيت؟ هل انت جاد أم انك تمزح؟

لا لست امزح ولم سامزح؟

انسيت أنني قلت لك أنني اكتريت بيتا مع صديقتي ملاك هذه السنة وتركت المبيت .

يا ويلي نسيت انا اسف .

لا بأس عليك انا ايضا استغربت لماذا تأخرت الى الان؟ أين سأذهب لانتظارك اذا؟

أنا امام صيدلية القبي تعال ستجدني سأنتظرك اطمئن .

حسنا ها انا قادم .

التقيت بك وقتها ...كانت سحنتك متبدلة عن العادة فبادلتني المصافحة بيد باردة وابتسامة يألتك عن سبب وكنت صامتة طوال الوقت سألتك عن سبب ذلك فكنت وكأنك تنتظرين كلمة مني لتنفجري صارخة :

لماذا نسيت أنني اكتريت بيتا مع صديقتي وتركت السكن في المبيت؟ لماذا صرت تنسى كثيرا ؟ ألم تعد تهتم لتفاصيلي؟

لا لكنني مشغول بأشياء كثيرة هذه الفترة فنسيت ذلك انا اسف صدقيني

وبم أنت مشغول؟

بامور تخص اقامتي وعدني أبي ان يبعث الي بمال من الاردن لذا ذهبت إلى البريد قصد أخذ الاموال لكنني وجدت تعطيلات بصراحة الخدمات في تونس تعيسة جدا .

وهل هذا ما جعلك تنسى؟

نسيت دون قصد صدقيني ثم أننا تحدثنا منذ فترة طويلة لا أتذكر انك قلت لي انك اكتريت بيتا برفقة ملاك .

فعلت ذلك لأنني كرهت السكن الجامعي ومشاكله ...ثم أنني راسبة ولن يعطونني غرفة في المبيت العمومي وسيقترحون علي اللجوء الى المبيت الخاص .

جيد هيدا لنذهب .

لقد رأيت جدول اوقات مجموعتك انه مختلف جدا عن جدوى اوقات مجموعتي أظن أننا لن نلتقي هذه السنة ألا صدفة .

لا يهم سنجد طريقة لنلتقي بها .

انا بصراحة ارغب في تقليل لقاءاتنا لا أريد مشاكل هذه السنة ...انها سنة التخرج وعلينا ان ندرس جيدا كي ننجح بدون تعب أو تأجيل للدورة التكميلية .

اطمئني سندرس جيدا هذه السنة ولن نتعرض لشيء كهذا مجددا .

جيد علينا ان نقلل من الفسحة والتنزه والخروج سويا... وايضا من الجلوس سويا في حديقة الكلية .

ولم كل هذا؟هل حصل شيء من ناحيتي ازعجك؟

لا ليس من ناحيتك...لكني بصراحة اصبحت انزعج من العيون المتربصة بنا ومن الطلبة اللذين يأخذون في مشاهدتها ومراقبتنا بعيون لا تتقن فعل شيء عدا التجسس على علاقتنا واحاديثنا ...لا أريد أن اقلل من قيمتي مجددا مع تافهات كهؤلاء عليك ان تفهمني ...أنت كذلك عليك ان تجتهد وتدرس جيدا ولا تفكر في شيء آخر عدا التخرج انها السنة الأهم لكلينا...علينا ان نبتعد قليلا هذه السنة ارجوك....أنني لا اريدك ان تفتعل مشاكل معهن من اجلي ثانية .

ألم نتحدث سويا بخصوص هذا الموضوع وفصلنا الامر؟ لا لم نفصل الأمر ما يزالوان يتحدثون بشأننا ماتزال عيونهم التي تمتلأ حقدا وغيرة ترمقني بنظرات قاسية لا تحتمل .

حسنا كما تشائين في النهاية معك حق علينا ان ندرس جيدا ونجتهد كي ننجح

أرأيت ما أجملك حين تفهمني....ارجوك اجتهد هذه السنة اريدك ان تنجح وتفرح عائلتك في الاردن وفي فلسطين لا تغضب مني ارجوك....هيا ها قد وصلنا الى البناية اعرفت مقى سكناي الجديد الان؟ الطريق الى هنا ليس بعيدا عن الكلية هيا اصعد معي الى البيت ألا تريد ان ترى رانيا وتسلم عليها؟

لا لا أريد ذلك

لماذا صديقتي ملاك تبلغك السلام .

بلغيها سلامي لقد اشتقت اليها والى احاديثها الشيقة لكنني اريد ان أعود ادراجي...الشباب في انتظاري...سنذهب في مشوار

لماذا لا نشرب شيئا سويا قبل ان تذهب يا عزيزي؟

لا انغام

حسنا دعني أحضر لك قهوة نحتسيها سويا في البيت.

لا ليس لدي مزاج دعيني اعود ادراجي .

الهذه الدرجة ازعجك كلامي؟ !

لا صدقيني أنا اريدك ان تكوني مرتاحة ...افعلي ما يحلو لك...بالتوفيق.

ذهب وتركها واقفة مكانها تنتظر إليه يمشي مسرعا ثم رفع يده واوقف سيارة اجرة للذهاب إلى بيت رفاقه اللذين كانوا بانتظاره.

-3-

اتجهت نحو المشرب واشترت كأس شاي وسيجارة ووقفت الى الطاولة امام الباب وأخذت تترشف الشاي وتنفث دخانها في الهواء...كان الطلبة يتوافدون غدوا ورواحا على المشرب دون أن يكلمها أحد أو تكلم احدا ...كانت تنظر اليهم جميعا وتتأملهم عن بعد مسترقة السمع الى احاديثهم التي كلما سمعتها اصابها شعور بالغثيان...دخل هو فجأة فنادته دون تردد بصوت مرتفع: صلاح .

التفت إليها ولكنه لم يأبه وواصل التحدث مع صديقه الذي دخل الكلية برفقته ...بعدها أتى إليها بكل برود وبوجه ثابت لم تتغير تقاسيمه قالت بغضب: اهلا صلاح .اجابها ببرودة متصنع اهلا قالت بغرابة: ما بك؟ اظنك سمعتني اناديك . قال : اجل. قالت: اذا مابك؟ ماذا اصابك؟

ماذا اصابني؟ لا شيء! ها قد أتيت!

ثم نادى مشيرا بيده: بلال cappucin يا عيشك! فاجابه: حاضر صلاح .أخذ من جيبه سيجارة وبدأ بتدخينها وهو يتأمل اصابعه مشيحا بنظره عنها متجنبا التقاء عينيه بمقلتيها .قالت:صلاح ...صلاح ارفع رأسك وانظر الي !قال بلال : صلاح ايجا خوذ قهوتك !أخذ الكوب ووضع السكر بينما نفثت هي نفسا طويلا من سيجارتها وهي ترمقه بعيون غاضبة ولا تكاد تطيق بروده. جاء إليها متثاقلا.... قالت له وقد امسكت ذقنه :قل لي هل مازلت غاضبا مني بسبب ما قلته لك المرة الماضية؟

ما هو؟

صلاح متهبلنيش !

انسي الأمر لم اغضب منك... أنا سأذهب إلى القاعة سيبدأ الدرس بعد عشر دقائق.

حسنا انتظر سآتي برفقتك.

-4-

كنا جالسين على كرسي في حديقة الكلية...
كان شهر تشرين الثاني الجميل قد حل علينا في في يومه الأول...انه يوم افتتاح مهرجان قرطاج السينمائي.... قلت لك:اتحبذ السينما؟
اجل أحب السينما جدا واحبذه على المسرح.
وأنا كذلك...اتعلم ان حفلة افتتاح ايام قرطاج السينمائية ستتم مساء اليوم؟
اجل اعرف ذلك.
ما رأيك ان نذهب لتشاهد الفنانين أحب مشاهدة ازياء الفنانات في مناسبات كهذه.
متى سنذهب؟
الساعة السادسة بعد انتهاء الدوام نذهب الى شارع بورقيبة بالمترو ثم نقف امام المسرح البلدي لنشاهد الحفلة.
لكننا لا نستطيع الدخول
اعرف ذلك...سنقف وسط الناس وراء الحواجز ونشاهد السجاد الاحمر والنجوم يمشون فوقه والكاميراوات التقط لهم صورا..كل عام أرى هذا في التلفاز واتمنى لو اني معهم.
حسنا موافق....سنذهب لكن علينا ألا نتأخر
ولم؟ غدا السبت لا نأتي الى الكلية في العادة ...لكن اطمئن لن نتأخر....يااه يالها من امسية جميلة ستكون ! احلم بلقاء الممثلة المبدعة هند صبري...انها المفضلة لدي.
اهي تونسية؟
اجل ألا تعرفها؟
بلى أظن ذلك لقد مثلت في مصر كذلك.
اجل صحيح ساحرص في هذا الاسبوع على ان احضر فيلما على أقل تقدير لكن لا ادري هل سأذهب لفيلم تونسي أم اجنبي ! اتمنى ان تكون البرمجة جميلة.
أنا سأبحث عن فيلم فلسطيني جيد يستحق المتابعة اتساءل عن الحضور الفلسطيني في المهرجان.
مؤكد ان هنالك أفلام من بلادك أطمئن.
لكن ماذا اذا اخترت أنت فيلما اجنبيا واخترت أنا فيلما فلسطينيا لن ندخل للقاعة سويا.
ماذا تقصد؟
اقصد انني أردت أن نشاهد فيلما سويا ان ندخل الى القاعة سويا ونجلس على المقاعد الحمراء سويا بجانب بعضنا البعض ...شيء جميل أن تجمعنا لحظة حميمية تحت سقف قاعة السينما المظلمة ونتشارك مشاهدة فيلم.
حين تصبح زوجي سنشاهد كل ليلة فيلما سويا قبل النوم وستجمعنا لحظات حميمية.

لا أريد الانتظار أربع سنوات حتى تصبحي زوجتي يا غبية.
حسنا سأحاول اختيار الفيلم نفسه الذي ستشاهده.
جميل.
في المساء...وبعد انتهاء الدوام ركبنا المترو رقم 2 واتجهنا الى المدينة نزلنا في الباساج واتجهنا سيرا الى المسرح البلدي لنشاهد الافتتاحية..
كان الناس مجتمعون بالعشرات على طول الشارع ينتظرون بداية قدوم الفنانين الى المسرح...بينما كانت اضواء الكاميرات التي تلتقط المشهد تملا المكان...
كانت السابعة مساء حين وصلت السيارات الفاخرة متتالية لينزل منها مجموعة من الفنانين التونسيين والعرب والاجانب...كنا نشاهدهم ينزلون من السيارات الى السجاد الاحمر الطويل ليمشوا عليه خطوة خطوة وسط تصفيق الجمهور وتعالي اصواتهم ووسط اضواء الكاميراوات العديدة التي تلتقط صورهم... كم تبدو الشهرة مثيرة !

بقينا نمشي طويلا في شوارع العاصمة بعد ان انتهى العرض ودخل الفنانون جميعا الى المسرح ولم يبقى الا قلة امامه يأخذون صورا او ينتظرون مغادرة فنانهم المفضل ليأخذوا واياه صورة ...

عدنا في ساعة متأخرة من الليل...بعد ان نال منا التعب...كانت اخر مرة نخرج فيها سويا الى الفسحة قبل ان تبدأ فترة الفحوص ...ثم دخلنا في عطلة...كم كان الوقت يمضي سريعا !

-5-

كنت كعادتي متربصا بها....استفاقت صباحا وتناولت فطورها بمفردها ثم وقفت امام المرآة لتتجمل بعد أن لبست فستانا رماديا من الصوف وجوارب قطنية شفافة طويلة ومعطفا اسود وقبعة رأس صوفية سوداء وحذاء شتائي اسود طويل يغطي ركبتيها ...أخذت حقيبة يدها بعد أن وضعت الكحل وحمرة الشفاه حمراء اللون ...نهضت اختها حين فتحت انغام الباب قائلة : بسم الله الرحمان الرحيم انغام؟ ماذا تفعلين؟ الى أين أنت ذاهبة؟ سأنزل الى العاصمة !ماذا؟ الان؟ وهل أخبرت والديك؟ اجل انهما على علم عودي الى النوم انها السادسة ما يزال الوقت مبكرا!باي .انتبهي الى نفسك .غادرت انغام البيت واوقفت تاكسي متجهة الى محطة قطار نابل أين اقتطفن تذكرة وأخذت كرسيا بجانب النافذة منتظرا انطلاقة القطار وهي أتأمل السماء التي أخذت تنقشع عنها خيوط الظلمة رويدا لتظهر الشمس على مهل عند السابعة تماما لحظة أنطلق القطار وابتدأ طريقه نحو العاصمة اتصل بها صلاح بعد دقائق قالت بسعادة غامرة :مرحبا يا عزيزي اين انت الان؟ أنا من اتصلت بك لاسألك هذا السؤال ابن انت؟ اننب في القطار سيدخل الى احواز العاصمة قريبا .اذا لا داعي لأركب الآن واذهب الى السنتر قيل .لا بإمكانك ان تفعل بعد حوالي عشرين دقيقة أو نصف ساعة هكذا أفضل كي لا يطول انتظارك لي امام البريد خلاص اتفقنا . حين وصولها بعد دقائق عديدة نزلت من القطار وغادرت ساحة برشلونة وأخذت تمشي عابرة حديقة الساحة ومن ثم نهج اليونان ثم شارع بورقيبة ثم شارع الحبيب ثامر وحين وصولها الى البريد جلست لتنتظره ولم أمر ثوان قليلة حتى أتى ... استقبلتني بابتسامتك المشرقة كالعادة واناقتك الباهرة كالعادة.....كانت رؤيتك ككل مرة تبعث على في طاقة واقداما وكنت كلما رأيتني تنبعث على شفتيك ابتسامة عريضة دون أن تشعري ... ربما حاولت مرارا اخفاء ذلك أو التحكم في نسبة سعادتك عند رؤيتي لكنك لم تنجحي في ذلك ابدا ...ارتميت بحضني ...فقلت لك : فرحت برؤيتك كثيرا يا عزيزتي! أنا بخير كيف حالك؟ أنا بخير برؤيتك! صباح الخير والفل والورد والياسمين صباح النور والسرور . شكرا...انه صباح نور وجهك الجميل .الى أين سنذهب الان؟ لا ادري هل تناولت الفطور؟ لا لم أفعل غادرت البيت مسرعة ولم أشرب قهوة .هيا لنذهب الى كافتيريا قريبة .سنذهب الى كافتيريا في نهج فأنا اسمها موزاييك .كانت انغام مبتهجة جدا امام حضوره ذهبا الى الكافتيريا ليشربا قهوة ويأكلا قطعتي كرواسون ويتبادلا اطراف الحديث ...سألته مبتسمة :ماذا فعلت في العطلة؟ هل جهزت نفسك لفحوص شهر يناير انني أحاول ان اجعل كل يوم يمر في هذه العطلة يوما مفيدا كي لا اخسره ...انني اقيم مع رفاقي في العمران الاعلى ونحن نقضي اليوم بين السهر والدراسة والاكل ومشاهدة التلفاز واعي ال video gamesمعهم أو قضاء الوقت على مواقع التواصل الاجتماعي ووسط كل هذا أحاول خلق بعض الوقت للدراسة ...وماذا تشاهدون على التلفاز؟ القنوات الفلسطينية؟ نشاهد أفلاما على ال2 mbcو mbc maxحتى ساعة متأخرة من الليل...لكن هذا لا يمنع أننا نشاهد اخبارا كي نعرف ماذا يجري هناك ....كل واحد منا يعيش حياته على جدة ولكننا اخوة وعباؤة عن عائلة مصغرة هنا كلما كان احدنا بحاجة الآخر يجده حتما .اعرف ذلك اتعلم اصدقائك مهذبون وخلوقين حافظ عليهم انهم عائلتك في بلادي ليس لك فيه عائلة انتبه ان اتخلى عنهم لا أحد سيسندك الا هم حافظ عليهم .وانت؟ الست عائلتي هنا؟ بلى أنا كذلك أنت من لحمي ودمي ومن عائلتي أنت اخي الذي لم يهبه الله لي .اخاك؟ أخي وصديقي وحبيبي....ياكبدي ومكابدتي وياولدي ووالدي كما قالت احلام مستغانمي .شكرا شكرا واحمرت خداك ...كم كنت جميلا ...ولطيفا ...وجميل الخدين...حين يحمران فيزيدانك سحرا كنت فلسطينيا بطابع

غزاوي جميل....شربنا القهوة وغادرنا الكافتيريا بعد قرابة الساعة التي قضيناها في الضحك والحديث دون أن نشعر بمضي الوقت.....استغربت حين نظرت الى ساعة يدي ووجدت ان ساعة كاملة وبضع دقائق مرت وأنا أتحدث اليك دون أن اشعر....كم كان وقتي معك يمضي سريعا ويبدو قصيرا...ربما لأن المسافة بين قلبي وقلبك قصيرة جدا...كم كنت مبتهجة برفقتك عكس هذا الجو الحزين الذي تصنعه صباحات ديسمبر ...وحده حضورك الذي يصنع بهجتي ...حملت حقيبتي بيدي وقلت لك : هيا أسرع لنغادر سيطردوننا قريبا من الكافتيريا لعبة ضحكاتنا .فأطفات سيجارتك ورفعت بنطالك قليلا وامسكت بيدي وغادرنا ...كنا كأخوين صغيرين كلما مشينا في الشارع أمسك كل منا بيد الآخر....عبرنا شارع باريس ...له كم عبرنا ذلك الشارع حتى ان حجارته قد حفظت اسماءنا ...دخلنا الى شارع مختار هدية واكلنا بيتزا ثم عبرنا شارع الحبيب ثامر واشتريت مجلة زهرة الخليج من احد الاكشاك قبالة متحف المالية سألتني وقتها :منذ متى اصبحت تحبذين المجلات على الروايات؟ !فأجبت بضحكة عريضة :انها لوالدتي ليست لي هي من تحب مجلة زهرة الخليج وتواظب على قراءتها منذ طفولتي ...ان كل اعداد هذه المجلة لدينا في البيت...لدينا منها مجموعة كاملة من النسخ القديمة والجديدة في البيت ربما هي الشيء الوحيد الذي جلبته والدتي برفقتها من سوريا .عبرنا الدباغين وكنت أتأمل الكتب المرصوفة على الأرض يمينا ويسارا بشغف بينما لم تكن تهتم أنت بفعل ذلك .كنت اشعر ان تصرفي ذلك يشعرك بالملل فأمسكت بك واسرعنا الخطى نحو نهج المنجي سليم وذهبنا الى المدينة العتيقة بعد أن عبرنا باب بحر جلسنا على درج جامع الزيتونة نأكل جواجموبعد أن شعرنا بالجوع مرة أخرى ذهبنا الى محل قريب واشترينا (كسكروت كفتاجي) بعد أن عدنا للجلوس على درج الجامع فأتى بائع الشاي اخذنا كأسين احتسيناهما على مهل ... وبعد فترة غادرنا المدينة العتيقة واخذنا نمشي على طول شارع الحبيب بورقيبة ونحن نتحدث عن ايامنا وحياتنا كيف تمضي ....نصمت حينا ونتكلم حينا آخر ونأخذ في الضحك بصوت عال حتى يلتفت الينا الجميع حينا آخر حتى وصلنا الى ال TGMكنت سآخذ المترو واذهب الى باب عليوة لأخذ اللواج الى الحمامات ولكنك اقترحت علي ركوب القطار والذهاب الى المرسى . كان الوقت ما يزال مبكرا...بعد آذان الظهر بقليل فلم امانع وركبنا واخذنا اتجاه المرسى ...كنت تتأمل الطريق والمياه الزرقاء من النافذة بشرود وحزن كنت حاضرا غائب !كنت تفكر في اشياء كثيرة عجز لسانك عن قولها لكنك كنت في كل مرة تلتفت إلي مبتسما...شعرت ببهجتك لوجودك بجانبك...كنت كالاطفال تحدثني عن وقتك كيف يمضي...كان بك شوق كبير لعائلتك ورؤية والديك في الاردن! وبك شوق الى غزة تماما كشوقي لدمشق .أحبك لأنك تشبهني كقول المشاعر "أحبك حبين حب لك وحب لأنك أهل لذاك..... "وأنا أحبك حبين حب لك وحب لشبه جمعني بك....كم كنت أحب تشابهنا ذلك...في النهاية دمشق والقدس متشابهتان فالجرح واحد والالم واحد والقضية واحدة لذلك ربما أنا اشبهك أو انت تشبهني لا ادري بالضبط . وضعت يدي على فخذيك وقلت :لا تفكر بشيء وأنت تجلس بجانبي اتفهم؟ !نزلنا بعد طول الطريق في محطة المرسى الأخيرة للقطار واخذنا نمشي....اقترحت عليك ان ننعطف يمينا نحو الكورنيش ...ترجلنا نحو نهج أبو القاسم الشابي ونحن نازلين في الدرج قلت لك : انظر قاعة سينما الزفير انها تضج بالناس أكل هؤلاء ذاهبون الى فيلم؟ جميل عشق السينما .اجل أنا اشاركهم هذا العشق...ما رأيك ان نأتي الى هنا ونشاهد فيلما ذات مرة؟ !كما فعلت في نوفمبر الماضي في قاعة الكوليزيه؟ اجل وهذه القاعة لها رونق آخر .لا امانع يا عزيزتي انني أحب أن اكرر كل ما فعلته معك سابقا .وأنا اتمنى ان اكرر قصتي معك مرتين أو ثلاثة ان اكررها كلما انتهت كي لا تنتهي وكيف أبقى لاعيشها دوما حتى الموت .لو كنا نكرر قصصنا المنتهية منذ البداية في كل مرة ونعود لنعيشها بالطريقة التي نريد...لكنها سعيدين وأنا كنا في حاجة الى الانهيار ولا الى البحث عن أحد اخر يملأ شعور مكان من سبقه والفراغ الذي تركه في قلوبنا أثر رحيله .ربما نكون سعيدين .اخذنا نمشي وعبرنا نهج أبو القاسم الشابي مترجلين ثم دخلنا نهج أمريكا ثم نهج الروماني ثم الفارابي ثمنزلنا الى شاطئ الكورنيش واخذنا نمشي...قلت لك :هيا لنذهب امام الماء .اقتربت منه واخذنا نخطو رويدا على حافته والامواج تحاذينا ...كنا نمشي صامتين وننظر الى الموج مرة يأتينا ويقترب واخرى ينسحب ويبعتد .شعرنا براحة عميقة ثم قطعت صمتنا قائلة :اتعلم؟ الحمدلله انه قد خلق البحر على هذا الكوكب.. ربما الشيء الوحيد الذي بقي جميلا في كوكبنا هذا .اخذنا نمشي حتى وصلنا الى قبة الهواء ...تجاوزناها وواصلنا الى ان بلغنا المرسى Cube ثم اجتلسنا الرمال استلقيت على ظهري وقلت :اتعلم ماذا قال

جبران؟ السماء نظيفة الآن الناس لا يسكنونها .انه محق فكل الفساد في الأرض لم يصنعه أحد عدا البشر .حين هممنا بالعودة قلت لك تعال لنصعد من هذا الطريق انه الطريق الى بيت عمتي انها تسكن هنا ساريك البيت.

صعدا في الطريق تجاه البيت...
وبينما اقتربا منه أخذت بيده وجعلته يقترب من الباب الأبيض العريض قالت له : ارأيت هذه القيلا الجميلة؟ انها مكان عيش عمتي اولادها ذكور لم تنجب ابنة انهم ثلاثة وكلهم يدرسون في كندا ويعيشون هناك سويا...هي بقيت بمفردها بعد وفاة زوجها منذ سنتين وقد جعلت معها خادمة في البيت كي تساعدها وتؤنسها في نفس الوقت...انها تعشق تربية القطط والكلاب . حسنا لقد رأيته هيا لنذهب والا سيرانا احدهم ويظن أننا نراقب البيت لسرقته .ماذا تقول؟ لا تخف اعرف كل جيرانها هنا .يا سلام !أرأيت الحديقة كم هي انيقة؟ !اجل انها جميلة خيل لنبتعد انغام هناك سيارة قادمة .يااي أي صدفة جميلة انها عمتي .ماذا؟! لا لا أريد أن التقي بها لماذا لا تخجل .لست خجلا لكن ان رأتنا سويا ستذهب لتخبر والدك وستصلح مشكلة .معك حق انك لا تعرفها...قلت لك انها انتيمتي وصديقتي المقربة وكل اسرارها عندي . يعني هناك تعرفني؟ لا لم أخبرها بعد بصداقتنا .نزلت المرأة من السيارة بعد أن اوقفتها امام باب البيت وأخذت الخبز وهمت بدخول البيت بينما راتهما واقفين ونادتها انغام قائلة :عمتي نادرة !من؟ انغام؟ عزيزتي ؟ لست أصدق انت هنا؟ اجل ماذا تفعلين؟ لقد أتيت مع زميلي للدراسة هنا على شاطئ البحر كعادتي تعرفين أنني أحب الدراسة والمذاكرة على الشاطئ .جميل. لم اعرفك عمتي صلاح...صلاح عمتي .اهلا بكما ادخلا. لا لا داعي يا خالة هيا انغام .صلاح لا يجوز رد طلب عمتي عيب هيا لندخل ونفطر عندها ثم نعود ادراجنا .هيا يا عزيزاي ادخلا ستأكلان فطورا لذيذا لقد طبخت "برغل" حارا وساخنا مع ترشي وصحن تونسي هيا .جميل كعادتك يا عزيزتي رائحة اكلك تشتم من امام باب منزلك.كيف هو اخي وزوجة اخي؟
انهما بخير الحمدلله
هيا ادخلا
ياه كم اشتقت الى هذا البيت والى ايامنا وسهراتنا فيه...اتذكرين كنا نذهب الى البحر بعد اذان الفجر ثم نعود عند الظهر فنفطر وننام الى ان تغرب الشمس ويأتي الليل.
جلسوا جميعا حول الطاولة في المطبخ الفحم الذي أخذ يتامله صلاح بدهشة .سكبت لهما نادرة الطعام في الصحون وقالت :هيا ذق يا ابني طعامي واعطني رأيك في طبخي ولا تخجل ماذا كان اسمك؟ صلاح صلاح الدين يا خالة !انه من فلسطين يا نادرة وتحديدا من غزة .جميل ...ومن فلسطين ايضا تشرفنا هل قلت له انك من دمشق؟ اجل هو علم بذلك . انكما ابناء وطن واحد...طبعا ان كنت على علم بأن سوريا هي فلسطين الجنوبية وفلسطين هي قطعة من سوريا الكبرى...انهما لا ينفصلان اذا انتما زميلين في الكلية. اجل يا خالة .جيد انتبه على ابنتي جيدا هاه واحرسها بعينيك .اطمئني يا خالة انغام في عيوني لماذا يا خالة قل لي نادرة دون مقدمات لست اكبركم كثيرا.

اجل كلام عمتي صحيح انها دوما صبية وجميلة...انها رياضية وتهتم بأناقتها كثيرا وتعيش حياة صحية هادئة بعيدا عن كل الموبقات كالتي نفعلها(ضاحكة) ...كنت امزح عمتي...انني لست جادة..كما تعرفينني....احيانا اشعر ان عمتي اصغر مني خصوصا في طريقة حياتها وتفكيرها...كما تعرفين عمتي ابي ليس شبيها بك..فنحن هناك محافظون قليلا...ولسنا متحررين كالناس هنا في هذه المدينة.... انا اتممت فطوري كان طبخك لذيذا عزيزتي...الان اريد شايا.
اطمئني الشاي جاهز كالعادة !
غادرنا بيت عمتي عصرا وعدت الى الحمامات...كانت ليلتي مليئة بك...نمت وانت تسكن في وتعانقني...وتأخذ روحي لعالم بعيد عن هذا العالم...عالم يشبهني ويشبهك...لا يتعبنا ولا نشقى به... كم نحتاج حقا الى الابتعاد عن كل هذا الشقاء الذي نحياه يوميا...فلم تكن مهمة سهلة ابدا...ان نصحو كل يوم لمقاومة هذا العالم.

-6-

بعد انتهاء الفروض...اخذنا عطلة قصيرة بايام قبل بداية السداسي الثاني من هذا العام...

عدنا مجددا بعد غياب قصير ما اطوله! ...
أنا وأنت ومطر وشتاء ومحادثة ليلية غير مبالية بالوقت المتأخر من هذا الليل...
اظننا قد كسرنا قوانين الشتاء هذه المرة يا صديقي...فقد اصبحنا نسهر الليل بطوله نتبادل الأحاديث الطويلة ...كان شعرت قاسيا...شديد البرودة لذا كنا نتجنب صباحاته الباردة وننهض في لياليه الدافئة محاولين تناسي صقيعه وجموده....كم يشبهنا هذا الشهر في ثباته...في صبره وتجلده وتحمله وبقائه...انه الرمق الأخير من السنة ...
ستدخل بعد ايام السنة الجديدة التي ستشهد تخرجنا بعد عناء طويل وصبر شديد

اخذا كوبين ورقيين من القهوة واتجها نحو الطاولة الحمراء في الزاوية اليسرى من المشرب تحت النافذة الصغيرة...جلست على الطاولة واضعة قدميها على الكرسي بينما جاي هو على الكرسي المحاذي ووضع ثلاث قطع من السكر المكعب وأخذ يحرك القهوة بينما هي تتقلب وقد بدت التعب جليا في عينيها الذابلتين الحمراوين قال لها: مابك؟ يبدو عليك التعب الم تنامي؟

سهرت كثيرا ليلة البارحة لادرس.

أمسك بذقنها ورفع رأسها وقال: ربما ذبلت عيناك من كثرة الدراسة وقلة النوم ولكن اطصفرار وجهك وشحوبه هذا ليس بسبب قلة النوم...ما بك ؟ هل انت مريضة؟ كان الاجدر بك أن تبقي في بيتك وتنامي قليلا أما عن الدرس فصديقك في الجامعة لا تفكري من هذه الناحية.

لا لا اريد ان افوت الدروس على نفسي اريد الحضور لكي استوعب الدرس وافهمه جيدا لا يمكنني ذلك لوحدي المواد صعبة.

سأساعدك على فهمها اطمئني.

لا شكرا صلاح...انا اشعر بدوخة اريد ان اذهب الى قاعة الدرس لارتاح في صمت صوت الراديو العالي يزعجني.

سأذهب معك انتظري قليلا.

حسنا هيا.

ما بك انغام ألن تقولي لي ما امر رأسك الذي يؤلمك على الدوام ...اذا كنت مريضة فعليك زيارة الطبيب للاطمئنان على صحتك او ربما تكونين قد اكثرت من الدراسة والسهر فأثر الارهاق والتعب على صحتك.

بصراحة لا ادري...اشعر بارهاق دائم وتعب مزمن.... انه ألم يجعلني اشعر ان رأسي على وشك الانفجار...اريد ان انام لا غير.

عودي الى بيتك وارتاحي...لا تفعلي بنفسك هكذا ارجوك.

لا لا اريد ...سأكمل المحاضرة.

بعد انتهاء المحاضرة التي دامت طوال ساعة ونصف الساعة غادرت احلام القاعة لتشتري كوب قهوة اخر يسمح لها بالبقاء مستيقظة كي تتمكن من مواصلة حضور الدرس...وبينما هي في طريق المشرب تمشي الهوينى في الحديقة ...وقعت منبطحة أرضا على بطنها وكأن احدهم قد دفعها من ظهرها... تجمع الجميع حولها متسائلين عن وضعها...نزل صلاح ليراها على ذلك الحال...فأسرع راكضا اليها... صارخا بخوف: انغام...انغام ما بك؟ هل انت بخير؟ استيقظي انغام ارجوك...انغام اسمعيني جيدا ارجوك...انغام؟

اخذ الجميع يسأله: ما بها؟ ما الذي حرى لها؟ الم تخبرك شيئا؟ انت صديقها المقرب الا تعرف ما بها؟ لعلها مريضة؟

ضاق ذرعا بأسئلتهم التي اثارت غضبه فحملها وذهب الى الكرسي ليضعها عليه...بدت غائبة عن الوعي تماما وهي مستلقية وكأنها ميتة...اتصل بالاسعاف التي اتت متأخرة نوعا ما ولكن الاهم انها اتت لتنقذها...لا تنكر انغام شيئا مما حصل لها عدا عن انها كانت تذهب الى المشرب لتشتري قهوة واذا بها ترى الدنيا سوادا امام عينيها ...سألتها الممرضة ان كانت حالة الدوخة والام الرأس تتكرر بصفة دائمة ام لا...وان كانت تكثر من السهر وتجهد نفسها بالدراسة ام لا...فكان جوابها لا ...ثم غادرت بعد ان نصحتها الممرضة بزيارة الدكتور المختص بأمراض الراس والدماغ...لم تعر انغام الامر اهمية املة الا يتكرر ما حصل معها في ذلك اليوم...ولكن المرض كان قدرها دون ان تدري...كنت اكتب لها اياما عصيبة اكثر من تلك التي عاشتها...ولكنها كانت في غفلة من امرها عني... كنت لا اعنيها اكثر من النجاح...كانت فتاة قوية صامدة...لا تنكسر ولا تستسلم...حتى ان صمودها يستفزني وقوتها تجعلني ارغب في تعذيبها اكثر علها تعرتف بضعفها امامي...

هكذا هم البشر على الدوام...عنيدون...ولكنني قدرهم ولا يقدرون على الهرب مني...

-7-

كان الجو ماطرا..

وكنا في الشواشين الواحدة ظهرا ...شهر يناير ...مطر وقهوة وكثير من الدفئ وضعت رأسها على كتفه وغنت:يا جبل البعيد خلفك حبايبنا بتموج متل العيد وعمك متعبنا يا جبل البعيد فقال لها:خير انشاء الله اين ترين الجبل؟ اننا في قلب المدينة العتيقة.فضحكت بشدة: أراه من حيث لا تراه...اتعلم كم يخطر ببالي السفر حول العالم تستهويني الفكرة بشدة أريد ان أشتري عطرا من باريس وفستانا من لندن وساعة من سويسرا وشكولاطة من ألمانيا وأريد أن اركب قاربا واتنزه في شوارع البندقية وأريد أن أخذ صورة وسط مدينة برشلونة وهي مضيئة ليلا وأريد أن العب بثلج روسيا واشتري العرائس الخزفية من الصين وان أشتري ثيابا من تركيا واخذ صورة امام ناطحة الشيخ زايد في دبي وان آكل الشاورما في الشام واسهر على شاطئ بيروت واكل فول وطعمية في القاهرة وازور مكتبة الاسكندرية واشتري قفطانا مغربيا وارى المعالم الأثرية في الرباط واصلي في الاموي واكل في مطعم الشيف بوراك في تركيا واشاهد الفرات في بغداد وان أسبح في المالديف وأجرب التزلج على الثلج في مرتفعات الالب.

أوف يا ويلي اكل هذا بخطر ببالك لن تفعليه في هذه اللحظة وأنت تجلسين امام كأس الشاي في الشواشين؟ اجل وقبل ان افعل كل هذا يخطر ببالي ان أذهب في رحلة حول تونس كاملة شمالا وجنوبا...يخطر ببالي ان أركب الطائرة واذهب الى جربة ان أشتري حنة قابس وان أرى بيوت الدين تحت الارض في تطاوين وان انام تحت ظل النخيل في واحات وزر وان أرى جبال القصرين واسبح في عيون المياه الساخنة في سليانة وان العب الڤولف في طبرقة وان اعرف بنزرت شارعا شارعا حتى احفظ جدرانها وبيوتها... واسبح في شطآنها شاطئا شاطئا وان أتسوق من سوقها الاسبوعي انني اعشق المدينة العتيقة في بنزرت ويخطر ببالي ان اتفرج على آثار الحضارة الفاطمية في المهدية وان أتناول الغداء في القنطاوي وان انام ليلة واحدة في حياتي على إحدى صخور الهوارية بين السماء والبحر . وماذا ايضا اكملي حديثك .أريد ان ارى مطار النفيضة لأنني لا اعرفه وان أصلي في جامع عقبة وان أشاهد فسقية الاغالبة واركض في حقول باجة واكل من رمان تستور واشتري جبنا باديا من مجاز الباب واركب في البطاح الذي يأخذني من صفاقس الى قرقنة وأتناول السمك هناك .وماذا ايضا؟ يكفي هذا لا غير...اريد كذلك ان اضلب في مقام سيدي بوسعيد وجامع قرطاج وأتناول عشاء فخما في ڤيلا ديدون اتعلم لم ادخل ذلك المطعم في حياتي .ومتى ستقررين فعل كل هذا؟ ومتى برأيك سأقدر على فعله وأنا كل وقتي يمضي بين الكلية والمبيت وبين المكتبة والمشرب وقاعات الدرس واقصى سعادتي أن اخذ القطار واذهب الحمامات لا الى نزل أو مطعم بل الى البيت...اخ يا ويلي أي عمر هذا؟ الى متسيستمر هذا؟ متى سنعيش؟اعلم يا حبيبي أنني اذا لم أفعل هذا قبل موتي فانني أكون قد كنت دون ان اعيش بعد .

وضع يده على كتفه مبتسما قائلا :اتمنى من كل قلبي ان تفعلي كل هذا وان تجربي كل شيء ترغبين به...فليمنحك الله عمرا مديدا! تعجبني طموحاتك تخيلي لو أننا نقوم بكل هذا سويا .انها أمنية ...صدقني ارغب بذلك بشدة...ما أجمل ان تدور حول العالم برفقة من تحب...اتمنى ان نبقى سويا دوما كلوز وسكر....أنا لوز وأنت سكر .لا بل أنا اللوز..اتعلمين لماذا؟ لم ؟ لأنك تشبه اريحا؟ لا بل لأن حياتي تشبه مرارة اللوز .ماهذا الذي تقوله؟ سلامتك يا عزيزي...أتذكر قولة لكاتب شهير غاب عني اسمه(هناك العديد من الناس موجودين لكن لا يعيشون) اننا إن لم نجد من نحبه ويحبنا ونجرب برفقته السهر سويا آخر الليل...واكل أطيب الأطباق على طاولات فاخرة مزينة بالورود في أشهر المطاعم في العالم ومشاهدة الشروق سويا والسهر على السرير لمشاهدة أفلام الكرتون أو فيلم رومانسي ونشاركه سماع صوت اذان الفجر والصلاة في المدينة العتيقة.... السباحة أثناء بزوغ الشمس وطلوع الشروق واللعب بالماء وتناول فطور الصباح الشهي على الشاطئ والسهر خارج البيت حتى وقت متأخر من الليل... الخروج بعد الزوال للجلوس في مقهى وتشارك الاركيلة نفسها وتأمل الغروب واياه وقضاء قيلوله ساخنة في الصيف نلعب"الشدة" والمشي مسافات طويلة ولعب الرياضة في الصباح الباكر معه...وتبادل الأحاديث سويا في كل المواضيع والتخييم سويا في الجبل أو النوم فوق سطح البيت وقراءة رواية سويا في البانيو أثناء أخذ حمام والذهاب الى المهرجانات والرقص على اغانينا المفضلة سويا وغيره من الاشياء .اجل واصلي . اذا لم نعش كل هذا قبل الموت نكون قد متنا بلا حياة.محقة كل منا بحلم بهذا صدقيني لكن من اين لنا الاموال التي ستسمح لنا بعيش كل هذه اللحظات الجميلة؟ البعض خلق للحياة والبعض الاخر خلق للشقاء...البعض خلق للمتعة والرفاه والبعض الاخر خلق للكدح والعمل والحزم دون نتيجة مجدية....يا ويلي الى متى سيتواصل كل هذا اللاعدل وكل هذه الفوارق ...كل هذا الفقر...كل هذه التعاسة...وكل هذا الشقاء؟

لا بأس عليك يا عزيزتي لا تفكري ستمنحنا الحياة فرصتنا صدقيني.

اننا بانتظارها الى حيم تفعل هيا لقد تأخرنا.

عدنا سيرا على الاقدام الى الباساج والمطر تغمرنا ونحن نحتمي من المياه التي تقذفنا بمطرية واحدة نتشاركها...كم هو رائع قربك.

-8-

كان الربيع..
اسمع دعنا من الدراسة أين ستتناول فطورك اليوم؟
لا ادري بصراحة لا أحبذ سندويتشات المشرب ربما سأذهب إلى مغازة مونوبري واشتري وجبة سريعة من هناك.
دعك من هذا....أنا جلبت فطورا معي ما رأيك أم تشاركني فيه؟
هل طبخته انت؟
لا لم أفعل!
اذا جلبت أكلت معلبا من إحدى المحلات؟!
لا لم أفعل
اذا ماذا جلبت تكلمي.
معي(سفرطاس) وقليل من الخبز السوري أشتريته من المغازة العامة.
وماذا فيه؟
مكدوسات ومناقيش ومعاجيق وقليل مما تبقى من المقلوبة التي اكلناها البارحة.
انت ومن؟
أنا وامي انها عندي في البيت منذ يومين هي من طبخ.
جميل ...وهل المقلوبة بالباذنجان أم بالطماطم فقط؟ هل باللحم أم بالدجاج؟
مقلوبة بالباذنجان والطماطم والدجاج والمكسرات...هيا لنذهب ونجلس على أحد المقاعد ونأكل.
خيار لنفعل اشعر بجوع شديد.
جلسا على المقعد واخذا يأكلان ويفتحان العلب الواحدة تلو الاخرى.
مارأيك؟
انه لذيذ جدا...امك بارعة...هل تعلمت ان تطبخي اكلات لذيذة مثلها؟!
لا ليس بعد لكنني تعلمت تحضير النارجيلة بطريقة أفضل منها؟!
اهذه هي موهبتك؟! اسمعي أنا لا أتزوج فتاة لا تتقن الطبخ.
أطمئن الجيد طبخ المحاشي وعدة اطباق أخرى..هيا كل.. في دمشق مثل يقول" الاكل على قد المحبة" اذا كنت تحبني يجب ان تكمل الاكل كله.
انه لا يفوت...يا الاهي...انه لذيذ جدا.
طبعا لأن امي طبخته ...صحة وهنا يا اسمر غزة.

-9-

الايام الاخيرة قبل عطلة المراجعة...

أريد أن اذهب الى الشاطئ واجلس على حافة الماء.
حسنا هيا سنأخذ حافلة الTCV بإتجاه المرسى.
قولي لي في البداية اتذهبين برفقتي الى غزة؟!
لماذا تبحث عن الجحيم في كل خطوة من حياتك؟اين يكون الوطن يكون النعيم وأنا نعيمي هو وجودي في غزة....ارجوك يا انغام!
ارجوني ماذا؟وهل انت مجبر على اختياري؟ بامكانك ان تختار فلسطينية غزاوبة أليس هذا أفضل لتحقق حلمك بالاستقرار في غزة ؟!
طيب أريد ان اعرف ما الذي يمنعك من ان تكوني معي هناك؟
اخاف الحرب يا صلاح! اتريد لاولادي ان يموتوا؟! لماذا لا تريدهم ان يتمتعوا يجقهم في الحياة ككل أطفال العالم؟! لماذا تأخذهم الى رحى الحرب والموت لماذا تريد لهم الجحيم بينما بيدنا خيار الافلات منها.
وهل اولادنا أفضل من أطفال غزة؟
لا ليسوا أفضل لكن لماذا ننجب اولادا في غزة؟ كي يقتلهم المحتل؟ لماذا تريد مني ان اقبل العيش عمرا بأكمله وأنا اخشى فقد أولادي كل لحظة وأنا أتوقع في كل لحظة موتهم أو اعتقالهم خلف اسوار السجن كي يحرموا من التعليم ويتعرضوا الى التعذيب؟
لأن غزة وطنهم.
لا ليست وطنهم لماذا نحتاج الجحيم اذا كان الخيار الآخر بأيدينا لدينا البديل ما بها تونس ؟! لم لا نعيش هنا اذا كنت تريد مني ان تسافر واياك الى غزة فلن اقبل الا بالسفر المؤقت والعودة سريعا.
طيب تعالي لنعيش في الاردن أين تعيش عائلتي المصغرة. أبي وامي واختي الصغيرة هناك سيكونون قريبين منا ألست تريدين الامان؟ عمان مكان آمن.
امسكت بيدي وتأملت عيناي ملياً وقلت:
تعال لنذهب الى الشام! ما رأيك ان نتزوج ونحيا سويا بقية العمر في دمشق انها غير بعيدة عن فلسطين وتشبهها في كل شيء ثم أنني اعرفها جيدا ...كان لنا جيران هناك واصدقاء...وعائلتي من امي كلها هناك ...لن يتخلوا عنا... لن نشعر أننا مغتربين صدقني!

لا لكن سيأتي يوم لتنتهي الحرب ويعود الامان وترجع لسلامها جميلة كما كانت...لكن غزة لا أظن....أنا اسفة صلاح لم اقصد ...لكن انفكاك الحضار عنها شيء تشبه المستحيل. دمشق ستعود يوما أما غزة فلسنا ندرك متى سيكتب لها ان تكون حرة افي زمن اولادنا أم احفادنا أو ربما أحفاد احفادنا...انسى موضوع الزواج نهائيا صلاح ...في الحقيقة أنا تعودت على وجودي في تونس ولا اريد مغادرتها....انظر الاستاذ في طريقه الى القاعة هيا لنذهب اذا أغلق الباب فلن يقبل دخولنا متأخرين.

-10-

مر الربيع...ومر معه السداسي الثاني من العام الاخير من الاجازة...

كنا نكمل ايامنا التي مضت سريعا على مضض وخوف...

كان النجاح يقترب الينا شيئا فشيئا...الى ان كان اليوم المنتظر طويلا من الجميع...

يوم النتيجة...

تخرجنا...كان يوما جميلا جدا...وكانت لحظات لا تنسى ابدا....كم شعرت بالارتياح بعد عناء طويل.. وكأنني قد اجتزت مرحلة بأكملها من العناء...وجنيت ثمار صبر طويل...وازحت عن ظهري غيمة رمادية من الذعر...

كان صيفا جميلا...يمكنني القول هذه المرة انه كان صيفا رائعا ومختلفا بكل المقاييس...لم نلتقي منذ حفل التخرج في الكلية ولكنني كنت سعيدة جدا في الحمامات وكنت في راحة لم اعرفها من قبل...

كنا على تواصل دائم...لولا ان ذلك لم يدم طويلا...

فصحتي قد زادت تدهورا دون ان ادري ما السبب الى ان جاء ذلك اليوم الذي لم اعد احتمل فيه وجع رأسي المزمن ودوختي الدائمة...فزرت الطبيب دون ان اخبر اهلي بذلك...ادعيت انني اريد مالا للسهر مع رفاقي وهم لم يبخلوا علي...فتوجهت فورا الى العيادة لافحص نفسي...كان بي رغبة شديدة لمعرفة سبب الامي...ولكن القدر يواصل كتابة قصتي دوما...

كانت امام الدكتور جامدة ...صامتة...باردة الاطراف....لم تصدق ما قاله لها...كانت ترغب في ان تبكي...ان تصرخ ان تجهش حزنا على نفسها وحظها وما فعلته بها ولكنها لم تفعل...لم تقدرعلى ذلك ربما من هول الخبر ووقع الصدمة ..

كانت فتاة... عنيدة لا تنصاع لاحد...حتى لاقدارها...كانت لا ترضى بسهولة ولا تقبل بشيء ...جلست بمفردها تبكي لما فعلته بها...كنت أشعر بما تعانيه كنت أأسف لها...لكن لم يكن بيدي سلطة لتغيير اي شيء ما مما يجري لها...يظن الناس دوما انني لا أشعر بهم وبآلامهم جراء ما فعلته يدي بهم....لكني

قدرهم ولا احد له الاعتراض على قدره... يظنون انني قاس إلى هذه الدرجة...ويجهلون انني انا نفسي لا املك القدرة على اختيار ما أفعله...

كانت فتاة بحدس قوي وبديهة سريعة وشعور يقظ دوما باقتراب كل ما يحصل من حولها...كانت تشتمّ رائحتي ببراعة وتشعر بقربي منها كلما اتيت حاملا لها فقدا او مصابا او خسارة جديدة بحوزتي...كنت ابتليها باستمرار...وكانت تبكي دوما لشعورها بضعفها قبالتي لكني لم أكن اكرهها رغم قسوتي... هكذا هم البشر على الدوام...دائما يسيؤون الظن بي ولكن كل ما أفعله بهم ليس كرها ولا قسوة صدقوني...فقط هذه وظيفتي لا غير...انا نفسي أشعر بالحاجة لبعض الراحة احيانا وأشعر بالرغبة في إجازة ابتعد فيها عن لبشر وحيواتهم واكف عن رسم احداثهم وتغيير كل ما يحصل من حولهم بشكل يومي...احتاج للابتعاد عنهم قليلا وان تكف عن الاحتكاك بهم لنيل بعض الراحة...لكني لا اقدر...

قالت في نفسها:

كم أضحى هذا المكان خاليا من كل طعم وذوق...خاليا من كل ما يمت بصلة للحياة والحب...

أضحى باردا كالصقيع لا دفئ فيه... كم أضحى فارغا كاللحد الذي مازال ينتظر صاحبه...كم اضحى هذا العالم لا يسعني رغم اتساعه...اشعر بروحي في ضيق لا تقدر على تحمله...في وحدة قاتلة وفراغ مرعب لا يطاق...اي قدر هذا؟ اي حظ هذا؟ لماذا انا؟ لماذا انا دون غيري؟... ماذا فعلت كي اكسب كل هذا؟ اي ذنب اذنبته كي اجني هذا؟

أي عالم هذا؟ انه ليس لي...لا يليق بي...كرهت وجودي هنا...اريد مغادرة هذا العالم لعالم افضل... لعالم بلا شقاء.

كان عندي مرض سرطان الدماغ ولم ادر...كان يعيش معي كل هذا الوقت ولم ادر...كان يرافقني... يذهب معي الى كل مكان وفي كل لحظة...ولم ادر..

كم كنت بحاجة اليك في تلك الفترة...كم كنت بحاجة اليك في تلك اللحظة...لحظة عرفت الامر ولم تحملني قدماي للعودة الى المنزل...حتى اني لم ادر كيف عدت وفتحت الباب بتثاقل وذهبت فورا الى غرفتي للارتماء على سريري والهروب من هذا العالم...كم كنت بحاجة لرؤيتك...لسماع صوتك.. وللارتماء بأحضانك...كم كنت بحاجة الى ان اخبرك ماذا فعل هذا القدر بي...ولكنني ابدا لن افعل...

لن اخبرك ولن اخبر عائلتي...انني فقط ارغب في الالتقاء بك...لأسعد بإبتسامتك الساحرة...وانتشي بنظرتك اللامعة...

التقينا ...واخيرا كنا قد التقينا لاول مرة في تلك الصائفة بعد التخرج ...

اتيت الى الحمامات من اجلي وجلسنا سويا في احدى المقاهي على الشاطئ الساحر في الحمامات...
أخذ العلبة الحمراء الصغيرة وفتحها ليريها خاتما ابيض فضي على شكل نجمة بحر ...كادت ان تضع اللقمة الصغيرة في فمها لحظة رفعت رأسها لتراه يعرض عليها هذا الخاتم الجميل...وضعت الشوكة من يدها واخذته قائلة:
ياااه ما أجمل هذا الخاتم هل هو لك؟!
اجل أنا من اشتراه.
يال جمال ذوقك حقا انه رائع....يال حظ التي سيكون لها.

انت!
ماذا؟!
انه لك أنت! هل تقبلين مجيئي الى الحمامات ل...
صلاح ! ماذا تقول؟!
أريد المجيء الى بيتكم لخطبتك.
وماذا عن اقامتنا؟اين سنقجن بعد الزواج ؟في غزة!
سنقيم أينما أردت ...ارجوك وافقي أنني اريدك لي وحدي.
ليس الوقت مناسبا صلاح.

ولم.

لا ادري انه ليس مناسبا فقط لا تسأل لماذا.

الم تقولي لي ان والدك لن يوافق على خطوبتك ألا بعد التخرج ها قد تخرجنا سويا ... ما المطلوب منا بعد الان؟!

مطلوب منك ان تنسى هذا الأمر.

لا مستحيل لن أفعل....لا يمكن ذلك.

وما المانع؟ لماذا لا تريدنني؟

لست ارفضك أنت لكن...أنني لا أرغب في الارتباط ...لست أنت السبب.

لماذا لا ترغبين في الزواج ؟ الا تريدين مساكنة؟

ابتسمت ابتسامة مستفزة وقالت: اسمعني جيدا...المساكنة حلم كل شاب وشابة لم يقبلوا على الزواج بعد...لا يمكن لاحد انكار هذا...لكن لا احد يمتلك القدرة على الاعتراف بذلك..والمشكلة في مجتمعاتنا ليست المساكنة في حد ذاتها انما اختلاف الاراء بشأن المسألة فبينما هناك من يرى ضرورة ممارستها بالحلال فقط...هناك من يرى امكان فعل ذلك بطريقة شرعية وقانونية فقط واخرون يرون امكانية ذلك بكل الطرق...

وانت ماذا ترين؟

قل لي انت ما رأيك؟ اذا مارسنا شلك بشكل عشوائي ودون ضوابط او قوانين...فلماذا كان الله قد ميزنا عن الدواب بالعقول؟!

اعلم ذلك...وانا من رأيك ! لذا طلبت الزواج منك لانني اريد ان اتقاسم هذه الحياة معك...صدقيني سأصونك كما فعلت طوال هذه الفترة...اشعر بقربك من روحي...لا يمكنني ان اقرر مصيري بعيدا عنك..

لكنني سأتعبك وانا لا اريد لك هذا..ارجوك لا تجبرني على القبول...لا اقدر على هذا...ولا ارغب في رؤيتك غاضبا لاجل هذا.

طيب صارحيني على الاقل...اخبريني ما هو السبب؟

لا لشيء لست ارغب في الزواج...ثم ان اهلي لن يوافقوا فأنا مازلت ادرس وهم اخبروني انهم لن يسمحوا بارتباطي قبل ان ابدأ بالعمل واجد شغلا اقتات منه لاعيش.

ضحكت مصفقة بيديك وقلت:

في النهاية الاستقلالية المالية اهم من كل شيء تخيل مثلا ان اتزوج رجلا يصرف علي او يشتري لي ما ارغب به لا يمكنني ذلك.

هل انت جادة؟!

اجل طبعا.

لا ليس هذا السبب ....انت تخفين عني شيئا لا ترغبين بقوله ما الذي يمنعك من ان اتقدم لخطبتك؟ لم تكدي عملا بعد؟ انا كذلك... بامكاني ايجاد عمل غدا صباحا اذا كان اهلك لا يقبلون خطبتك من رجل بلا عمل...اما ما ثلتك فلم يقنعني قط...انت تكذبين.

لكن صلاح!

لاول مرة ارى عينيك خاليين مني ...واشتم الكذب ينبعث من كلماتك...واشعر بالبرود في ضحكتك...لست عل ما يرام... لا ادري ماذا اصابك...لكنني على يقين ان شيئا ما قد جعلك تتبدلسن هكذا فجأة...لا تشبهين فب شيء انغام التي اعرفها...انظري الى نفسك...دوختك...نسيانك... شحوبك المتواصل...عيونك الغائرة...شرودك الدائم... وبرودك اثناء الكلام...ما كل هذا الجمود؟ اي انغام انت؟ اانت انغام التي اعرفها؟ هل انا حبيبك وصديقك حقا؟ ان كنت كذلك لن تخبئين عني ما تكتمينه؟

ارجوك صلاح لم يعد بامكاني التحمل اكثر...اصمت ارجوك.

لن افعل اتكذبين علي؟ هل هذا هو قربنا؟ وهل هكذا اضحت علاقتنا؟

هيا لنذهب لم اعد اقدر على البقاء اكثر...ستغرب الشمس وعلي العودة الى الحمامات ...لا اقدر على السياقة ليلا لان التركيز يؤلم رأسي....هيا سأوصلك.

لا شكرا لا توصليني...سآخذ تاكسي...انت ارجعي الى الحمامات وارتاحي ومتى قررت ان تصارحيني بما يختلج في سريرتك اخبريني.

عن ماذا؟

عن السر الذي تخبئينه في صدرك وتأبين قوله.

اكتفيت بالصمت ...ورحلت...غادر كل منا المكان...وقبل ذلك...غادر كل منا روحا قديمةكانت بين جنبيه ...وفرحا جميلا كان يحمله بين اضلعه...مات تحت الصمت.

الفصل الرابع:

"إنك لا تعرف معنى الموت إلا حين تعرف الحب"

- كاثرين هثواي-

-1-

صباح اليوم الاول من شهر تشرين الاول/اكتوبر كان صباحا مشرقا...ظننته كان صباحا سعيدا...مليئا بالحب...عطرا بالتفاؤل...باعثا على بدايات جديدة...ظننتها مفرحة...لكن ظني هذا سرعانما خاب... خاب فجأة وقتل بداخلي السرور الذي كان يملأ قلبي قبل دخولي الى الكلية...

الساعة العاشرة صباحا...غادرت البيت الذي كنت قد اكتريته للبقاء فيه طوال هذا العام.."السنة الاولى من الماجستير"...والذي تعبت كثيرا للحصول عليه..ولم اوافق على سعر اجاره...لكن ابي حثني على السكن محاولا اقناعي ان ارتفاع سعر الكراء ليس اهم من الدراسة ومن الحصول على الشهادة الثانية"الماجستير"...فكرت في ان اجد زميلة او صديقة تشاركني السكن في هذا البيت وتقتسم معي دفع ثمن الاقامة كل شهر...لكنني لم اجد بعد..علمت ان ملاك قد تدبرت امر السكنى ووجدت بيتا مناسبا مع فتاتين اخريين...لذا كان علي البحث عن غيرها...

هذا ما كان يملأ رأسي ويشغل تفكيري قبل ان اذهب في صباح ذلك اليوم الى الكلية...

ذهبت لمعرفة المجموعة التي تم تسجيل اسمي ضمنها ولمعرفة أي مجموعة كان اسمك فيها...للاطلاع على جدول الاوقات ولطباعة المحاضرات التي قد فاتتني والتي كانت قد بدأت منذ يوم 12 ايلول/سبتمبر...ككل عام...

دخلت الى الكلية فرحة برؤية كل الزملاء والزميلات والاصدقاء والصديقات اللذين حالفهم الحظ بالتخرج في السنة الماضية ونيل الاجازة والانتقال الى مرحلة الماجستير...وأخذت بسؤال كل واحد منهم عن التخصص الذي اختاره...

لم يكن غريبا انني لم أرك...فقد تعودت انك لا تأتي عادة في هذا اليوم...وتكتفي بمعرفة الاخبار عبر موقع التواصل الاجتماعي"فيسبوك"..او على الاقل هذا ما ظننته...بينما لم يمنعني عدم قدومك من البحث عن اسمك وعن التخصص الذي اخترته وعن مجموعتك وزملائك اللذين في نفس المجموعة...كنت انظر الى القائمات بتمعن...كنت ابحث عن اسمك بشغف كبير...لكنني لم اجده في أي قائمة من قائمات الماجستير بكل تخصصاته..حتى اني شككت في نجاحك وتخرجك...شككت انني يومها سمعت اسمك في قائمة الناجحين...شككت في أننا احتفلنا سويا بالتخرج..خطر بذهني لوهلة انك غادرت البلاد وعدت الى فلسطين للدراسة هناك...كان قلبي يدق بقوة من وهل الصدمة...أين انت؟ اين اسمك؟ هل تراني اتوهم؟

ما سبب ذلك؟ ان كنت قد غادرت تونس وعدت الى بلادك فما الذي منعك ان تخبرني؟

....علمت فيما بعد انك قد غادرت الكلية...

كنت قد سحبت ملفك من كليتنا وقدمت التسجيل في كلية الحقوق بالمنار...نزل علي الخبر نزول الصاعقة...كان وكأنه خبر اعلان الحرب...شعرت بفراغ شديد من حولي...شعرت بالارض تندثر من تحت قدماي...شعرت بالكون يستفرغ من حولي من كل شيء جميل...وكأن الزمن قد انتهى...وكأن الحياة قد ولت....شعرت بهذا القلب قد انطفأ...وبهذا الجسم يبرد برودة الموت...فيتحول في وهلة قصيرة الى جثة واقفة...تركتها الحياة ونضبت عنها الدنيا...

أين انت؟...اين ريحك؟ اين صوتك؟ اين قامتك؟ اين وقفتك؟ اين حضورك؟ اين ابتسامتك التي تملأ ارجاء هذا الكون بإشراقها؟اين عيناك اللتان تشرقان الكون بلمعانها؟ اين ظلك؟...

اين انت من كل ما كان بيننا؟

اين كل ما كان بيننا؟

اين الايام التي جمعتنا؟

والاحاديث التي تبادلناها؟

والرسائل التي خبأنها في حقائب بعضنا البعض؟

وكلمات الحب التي تبادلناها في الخفاء بين اوراق الدفاتر؟

اين دفئ وجودك؟

اين بهجة حضورك هنا؟

اين كل ما كنت تفعله بي حين اراك؟

وكل ما كان يحدث لي حين القاك؟

اين انا منك؟

اتراني مازلت فيك؟ وبداخلك؟ هل ما يزال اسمي في اعماقك؟

هل ما زال وجودي يعنيك؟

اصدقني القول ارجوك...ولا تدعني اغرق في وهمي هذا الذي يملأني حد الغرق.

لم فعلت بي هذا؟ ولم فعل قدري بي كل هذا؟ لماذا اصابني بك وقد كنت الشيء الوحيد الذي تبقى من الاشياء الجميلة من حولي.

أي قدر هذا تراه الذي يستمتع بتعذيبي بالاشياء التي احبها والناس اللذين اضعف لفقدانهم؟

أي قدر!

قررت الخروج عن صمتي...

اتجهت الى كلية الحقوق في المنار...كنت اسير على عجل في ارجاء الكلية جميعها وابحث عنك كمن يبحث عن ضالته...كنت اخاف الا اجدك..ولكن شيئا اسوأ من ذلك كان قد حصل..كنت وسط مجموعة من الفتيات تتحدث اليهم وتبادلهم الضحكات بانسجام...بقيت اتأملك عن بعد...واقفة قبالتك ولم أكد اصدق كل هذه اللامبالاة التي رأيتها في عينيك...فجأة وبعد دقائق طويلة....التفتت الي ولاحظت وجودي...كنت ما ازال انظر اليك بالدهشة نفسها...وبالحقد نفسه بينما ودعت تللك الفتيات اللاتي كن متحلقات حولك بادرت بمغادرة الكلية...بينما اخذت بملاحقتي بسرعة...ثم ناديتني وكنت اهرب منك...لم ارغب في الوقوف والامتثال الى مناداتك...

لاول مرة شعرت ان صوتك كاذب ...وان اسمي لا يخرج من جوارحك كما العادة...

مسكت بي من ذراعي بقوة وسحبتني خطوة الى الوراء...قلت لك بصوت عال:اتركني...من تظن نفسك؟ ما هذا الذي فهلته؟ من تظن نفسك؟ من انت؟ أي غرور هذا؟

وبدأت أضرب كتفيك وصدرك بقضبتي الرقيقة الضعيفة...لا اظنك تألمت اما عني فلم اتمالك نفسي كي انهار بكاء امامك لأول مرة...ضممتني الى صدرك وقلت لي وقد اشفقت لحالي:

- مابك يا انغام ما الذي فعلته لك؟ ماذا جرى لك ؟ لماذا تفعلين بنفسك هذا؟

- لماذا تركت الكلية؟ لماذا اتيت للدراسة هنا وتخليت عني؟ لماذا لم تخبرني بالامر؟ كم مرة التقينا خلال الصائفة الماضية؟ هل سيسبب شقائك اعلامي بالامر؟لماذا اكتشفت الامر من الزملاء؟ لماذا عرفت حين لم ارى اسمك في القائمة؟

- ارجوك اهدئي يا انغام تعالي معي لنذهب الى كافيتيريا قريبة ونشرب قهوة ونتحدث سويا ستفهمين كل شيء

- ارجوك اتركني لا اريد شيئا...لا اريد شرب القهوة...اريد سببا واحدا لا غير يقنعني بكل ما فعلت...لماذا تغيرت تصرفاتك معي خلال الفترة الاخيرة؟ لماذا لا ترد على اتصالاتي؟ الم ترها؟ ام انك تتجاهلني؟ هل احببت فتاة غيري؟

- ما هذا الكلام التافه الذي تقولينه يا انغام؟ ألأنني تركت الكلية واتيت للدراسة هنا اكون قد تخليت عنك...انغام ارجوك تعالي معي وستفهمين كل شيء.هيا !

-2-

لقد كنت في كل مرة انهب منها ماتحب...وكان عليها فقط ان تصلح اخطائي...ربما خلق البشر فقط ليصلحوا اخطائي التي ارتكبها بحقهم كل مرة...

لكنني لست من يدمر حياتهم في النهاية...بل ان لهم دور كبير في ذلك...فقط لو انهم كانوا يتقنون ردات فعلهم تجاهي...ولو انهم يحسنون التصرف معي...لكانت النتائج افضل بكثير مما يكونون عليه دائما...لست وحدي من يحطم مصيرهم...فالبشر كذلك يحطمون مصائرهم بأيديهم احيانا دون ان يدركوا فداحة ما فعلوه بحق انفسهم...احاول ان اقنعهم دوما انني لست من اغير مسار حيواتهم وان لهم دور كبير في ذلك...لكن لا فائدة...فهم يتلذذون دوما برمي خساراتهم وحماقاتهم وذنوبهم على الاخرين...غبائهم يجعلهم عاجزين عن التغيير...وضعفهم يحثهم دوما على الالقاء باللوم علي..على قدرهم...مدعين اني السبب في كل ما يحصل لهم...

كنت في كل مرة احاول ان اعلمهم ان يتقنوا ممارسة الحياة بشكل صحيح...لكنهم كانوا في كل مرة يخفقون...

التقيا...لكن لقائهم هذا لم يكن كالمعتاد...كانا يسيران على حافة الرصيف..في احدى شوارع المنزه الاول غير بعيد عن الكلية...قالت له:

- اريد فقط ان افهم لماذا لا تريد القدوم الى الكلية لماذا تريد مني ان اركب المترو (رقم5) واخاطر بحياتي من اجلك لاجل المجيء اليك والالتقاء بك..كليتي اقرب اليك وبامكانك القدوم اليها من بيتك خلال عشر دقائق لا غير...اسمع لست وحدك من تكره تلك الكلية واناسها انا ايضا اكرههم ولست مرتاحة معهم مع ذلك لم اغادرها.
- وهل كنت امنا السبب؟
- لا لكنك كنت جزءا كبيرا منه...لانني لاجلك مستعدة لفعل أي شيء وكل شيء...وماذا فعلت انت في المقابل؟
- لماذا تقولين هذا؟
- ولم لا تضحي وتأتي من اجلي...هل كرهت اصدقائك القدامى ولم تعد تطيق رؤيتهم؟ أنسيت ان لديك هناك اصدقاء تماما كأصدقائك في كلية الحقوق بالمنار؟ أجبني ما الذي يمنعك من المجيء؟

تدهورت في وقفتها وترنحت امامه فجأة واقعة أرضا وقد امسكت برأسها بينما امسك بها محاولا إيقافها قائلا:

- انغام؟ ما بك؟ هل انت بخير؟

- اسفة لم اعد ارى شيئا امامي اشعر ان رأسي يؤلمني بشدة لم اعد اطيق الامر ان الالم نفسه يتكرر كل يوم.

- لماذا لا تزورين دكتورا؟

- لا اريد ذلك ثم انسيت انني اخاف الاطباء والدكاترة؟

- لكن هذا امر ضروري من اجل صحتك.

- لا لا اريد ان اخبر اهلي واخيفهم ثم يبدو انك اصبحت تنسى كل شيء عني اخاف ان يأتي يوم ما اتصل بك فلا تعرف صوتي وتسألني من معي.

- وهل اصبحنا غرباء الى هذه الدرجة؟

- لا ادري...وضعت يدها على قلبه وقالت:اريد ان ابقى هنا صلاح !الا اريد المغادرة !

- لماذا اصبحت تتحدثين بهذه الطريقة؟

- لانني شعرت انني غادرتك..لو انني لم افعل لما غادرت وتركتني بمفردي.

- صدقيني انا من اجلك انت فقط...تونس هي انت بالنسبة الي.

- اذا لم تركتني؟

- لم افعل.تركت الكلية لا غير

- غير صحيح الكلية هي من جمعنا...كل ايامنا كانت هناك..ولولاها لما التقينا ولا تعارفنا...هل لي ان افهم سهولة التخلي لديك؟
- لم تفعلين بي هذا يا انغام؟ هل تجبرينني على الندم؟ قلت لك ليس لمغادرتي الكلية أي علاقة بك لا تربطي بين الامرين...يكفي طفوليات يا انغام...لا ادري لماذا الكل يكبر ويعقل الا انت تكبرين وعقلك يصغر...اتركيني بحالي اذا سمحتي...هالاشي معادش بينطاق اف.

ذهب وتركها بنفسها تنظر اليه مستغربة....صامتة...بقيت مذهولة من تغيره المفاجئ...من تصرفاته... من كلماته...ظلت تنظر اليه عن بعد...تتأمل خطواته وهو يبتعد عنها شيئا فشيئا...شيء ما جعلها تصمت وهي تنظر اليه...شيء ما جعل لسانها يثقل عن مناداته....شيء ما دفعها الى الثبوت في مكانها دون حركة...فضلت ألا تذهب اليه...ألا ترجوه...ألا تتوسله...ألا تحادثه...ولا تلاحقه...

وماذا يفيد العتاب حين تبرد القلوب؟

"شعرت ببرود شديد في قلبي نحوك...

قتلت اللهفة بداخلي...

شيء ما في تغير نحوك...

شيء ما انطفأ بيننا...

هل هكذا يموت الحب؟

هل ينتهي الحب بانتهاء اللهفة والحماس تجاه الطرف الاخر؟

لم تعد الاسئلة تجدي نفعا...ولم يعد للوم معنى..كنت اتساءل لم تغيرت هكذا فجأة دون ان أسألك؟

وما الفائدة؟ ما دمت مقتنعا بكل ما تقوم به؟

-3-

كنت أشعر بأنك قد تغيرت وأنك تخفين عني شيئا ما تأبين قوله لي..كنت متغيرة تماما...منذ مدة لم تعودي كما كنت من قبل...

كنت قليلة الكلام...كثيرة الشرود...تتجنبين الاحاديث وتتخفين عن الاعين...وتهربين من الاهتمام...

كنت صامتة لا تريدين ان تحدثيني عن سرك لسبب اجهله..سألتك مرارا عما اصابك ولم تجيبي عدا بجملة واحدة:انا بخير.

بينما كل شيء فيك كان يدل على عكس ذلك تماما...اصبحت تحبذين الجلوس وسط الناس وسماع احاديثهم دون ان تباديلهم الكلام في معظم الاحيان...اصبحت تخافين الوحدة تحبذين الجلوس وسط السيل العارم من البشر....حتى اننا لم نتفرد بالجلوس سويا منذ بداية العام الدراسي....لم تقترحي علي الذهاب في فسحة او النزول الى العاصمة او الجولان في شوارع المدينة العتيقة منذ وقت ططويل لا اذكره...اصبح اغلب كلامك عن تركك لدمشق...عن طفولتك هناك...عن رغبتك في نيل الاجازة واسعاد بعائلتك...عن طموحات متعددة ترغبين في تحقيقها وعن شعورك بالتعب المتواصل...كنت شاحبة واخذت تنحفين رويدا رويدا...اصبحت على غير عادتك قليلة الاكل...بدوت غير مهتمة بشيء مما حولك حتى اهتمامك بي تقلص كثيرا عما كان عليهمن قبل...لم اكن اريد ان اخبرك عن كل ملاحظاتي هذه...اكتفيت فقط بمراقبتك وبإنتظار اعترافك لي بحقيقة امرك...كان صباحا جديدا في يوم من اخر ايام الاسبوع اظنه كان يوم الجمعة صباحا من شهر ديسمبر...

اتيت الى الكلية نزولا عند طلبك...وشعورا مني بالذنب تجاهك...كنت في البوفيت اشرب القهوة على مهل مع سيجارتي حين دخلت انت بخطى متثاقلة وقد بدا التعب واضحا على وجهك وابتسمت الي كعادتك ووضعت حقيبتك على الكرسي قبالتي لتجلبي القهوة وقطعة الكرواسون التي اعتدت على شرائها باللوز وجلست قبالتي بعينين ذابلتين وشعر مبعثر على غير العادة وقد حشوت رأسك وسط الوشاح الرمادي المصنوع من الصوف الخشن الذي كان يغطي جيدك...على غير عادتك اكتفيت بسؤالي:كيف انت؟؟ثم لم تفتحي مواضيع شتى ولم تثرثري معي ككل ضباح عند الفطور...بعد صمت طويل وانا اتأملك تحتسين القهوة بشرود...قطعت الصمت قائلة:ماذا فعلت في ما يخص المراجعة؟قلت لك وقد نفثت دخان السيارة في الهواء:الحمدلله لقد بدأت بالمراجعة منذ وقت طويل واشعر انني جاهز لكل المواد.

- جيد وفقك الله.

ثم عدت لصمتك.

تأكدت لحظتها انك تغيرت كثيرا عن المعتاد لأنك لم تنظري الي طوال جلوسك قبالتي...غابت عيناك اللامعتان...وغابت ابتسامتك العريضة التي كنت تبادرينني بها كلما رايتني...لم تبقي قبالتي

كثيرا...تركت الطاولة ولم تكملي قهوتك بعد...ذهبت الى الحديقة واخذت تتجولين بتأن...تمشين خطوة خطوة ببطئ شديد والقطة "بية" تتبعك تنتظر منك ان تعطينها المزيد من الطعام بعد أن وضعت لها القليل فوق المقعد وسط الحديقذهبت اليك وتحدثنا...لم اكن اريد ان اخبرك عمتا لاحظته...كنت أتأملك بصمت...بينما كنت تمشين بتثاقل...ثم رميت بكوب القهوة الفارغ في حاوية القمامة قلت لك:لماذا لا تعودين الى المبيت ان كنت متعبة؟

- لا لست متعبة.
- اذا لماذا كل هذا الشحوب الذي طغى على لونك وكل هذا الذبول في ملامحك؟
- لا شيء لم انم جيدا البارحة قضيت الليل في المراجعة والدراسة ولم انم عدا ساعات قليلة..اشعر ان مواد هذه السنة صعبة قليلا عن ذي قبل...وانا مصرة على النجاحخوالتخرج اريد ان التخصص في القانون الدولي في مرحلة الماجستير.
- لا تخافي يا عزيزتي ستحققين ما ترغبين به.الامر لا يحتاج كل هذا؟ انا انصحك بالعودة الى المبيت واخذ قسط من النوم علك ترتاحين اما عن الدروس لا يهم ساوصي منى لتعطيك كل المحاضرات التي غبت عنها وسنذاكر سويا في العطلة.
- لا لن اعود.
- انغام لا تفعلي بنفسك هكذا.
- ارجوك صلاح اتركني صديقتي في الغرفة عادت الى منطقتها وانا لا اريد ان ابقى بمفردي اليوم مساء أعود الى الحمامات وسآتي يوم الاثنين صباحا قبل الفحص.
- اتريدين ان اوصلك هذا المساء الى الباساج
- لا لن اذهب في المواصلات...سياتي سائق والدي ويرجعني الى بيتنا وسآخذ معي ملاك كي لا تضطر لركوب المترو.
- جيد.لكن انتبهي الى نفسك ولا تضغطي على نفسك كثيرا في المذاكرة.
- لا تقلق بشأني هيا لنذهب الى قاعة المحاضرات ستبدأ المحاضرة بعد دقائق قليلة.

اتجهنا سويا الى قاعة المحاضرات وكنت امسك على يدك بقوة جلسنا في الصفوف الاخيرة في القاعة...كنت لا تتكلمين او تمزحين كعادتك...كنت تكتبين ما يمليه عليكم الاستاذ بشرود وصمت...كنت اشعر كل لحظة بأنك تخفين عني شيئا ما يخصك ولم تقبل بإخبار احد بذلك حتى انا...

بعد المحاضرة...نزلت لتأخذي كوب قهوة ثان وبعد وقت قليل على انتهائك من احتسائه اتجهت نحو الدرج لتصعدي الى القاعة لحضور المحاضرة الموالية وبينما انت تتثاقلين في مشيتك وقعت ارضا بصفة مفاجئة....تحلق حولك الجميع مستغربين ومدهوشين عما جرى لك متسائلين عن سبب ذلك..اخذ الجميع يصرخون

"ماذا جرى لها؟

مابها؟

افعلوا لها شيئا

هل ان احدكم لديه عطر لنحاول ايقاظها؟

اتصلوا لها بالاسعاف"

بينما كنت انا في البوفيت برفقة كريم اشرب القهوة...

تركت كل سيء كما هو ودخلت بينهم لابعدهم عنك ورفعتك على ذراعي ووضعتك على الكرسي...

الاسمنتي وسط الحديقة...تمددت وكأنك ميتة..كنت ساكنة سكون الموتى...كنت باردة...شاحبة...لونك متغير...وعيناك غائرتين....كان جسدك باردا واطرافك متصلبة...حاولت ايقاظك برشك ببعض الماء وجعلتك تشتمين رائحة العطر لكن دون فائدة...بعد دقائق جاءت الاسعاف وحملتك الى المصحة...توسلتهم ان ارافقك في سيارة الاسعاف ولم يقبلوا...

اتصلت برقم اختك الذي اعطيتني اياه ذات مرة كي اتصل بك من خلاله في حال لم تردي علي من رقمك...قلت لها:

- احلام ما بها اختك؟ ألاحظت عنها شيئا في الفترة الاخيرة؟
- لا لا شيء لماذا ما بها اختي؟
- اختك غير طبيعية...انها مرهقة جدا ووجهها شاحب وكأنها ستموت في الحين...عيناها غائرتان وألم رأسها لا يفارقها وقد كثر اغمائها في اللمدة الاخيرة مرات كثيرة في الكلية والشارع.
- ما بها؟ ما الذي جرى لها؟..يا ويلي لماذا يحصل مع اختي كل هذا؟ اجبني سريعا الم تخبرك بشيء؟
- لا سألتها ولم تجبني عدا بأنها تدرس كثيرا ولا تنام الا ساعات قليلة وانات لست اصدقها لا اتوقع انها تجهد نفسها في الدراسة الى هذه الدرجة انا اعرفها جيدا واعرف طريقتها في الدراسة...اشعر بكذبها...حدسي يخبرني انها مريضة.
- بماذا مريضة يا ترى؟ ولم لم تخبرني او تخبر والدتي بالامر؟لماذا تخفي عنا كل هذا يا ترى؟
- لا اعلم هذا ما يدهشني انها لم تخبركم بشيء وانك لست على علم بكل ما يحصل معها الم يغمى عليها من قبل وهي في البيت؟
- بصراحة لا...لكنها تشكو دوما من الم في رأسها ثم تتعلل بالدراسة.
- يبدو وان في الامر سرا ما...والا لماذا كل هذا التكتم؟
- اين هي الان؟
- انها في المصحة اعطتها الممرضة ورقة وامرتها بزيارة طبيب الدماغ.
- ارجوك طمئني عنها واخبرني بكل ما يحصل لها.
- حسنا مع السلامة.
- صلاح انتظر لحظة ارجوك لا تقل لها انك اخبرتني
- اطمئني هذا سر بيني وبينك.
- اعتني بها جيدا
- بعيوني.

حين غادرت المصحة والتقينا اخذنا نسير مشيا على الاقدام في ملعب المنزه...كنت صامتة كالعادة وقد ازداد ذبولك ونحولك...قلت لك:

- اسمعي عليك الذهاب الى الدكتور...يجب ان تعرفي ما هو سبب هذا الاغماء المتواصل الذي تتعرضين له.
- سأفعل اطمئن.

مسكت بك من كتفيك واقتربت واقتربت منك اكثر فاكثر وتأملت ملامحك المكتعبة بتمعن..محاولا فهم ما يجري لك...محاولا سرقة اعتراف منك...قلت لك بصوت خافت:

"انغام ارجوك قولي لي ما بك ما الذي اصابك؟ ما هذا التغير المفاجئ الذي لا سبب له؟ ارجوك اخبريني ان كنتحقا من اقرب الناس اليك والا بامكانك ان تقولي لي بصراحة تامة انني لا دخل لي بكل هذا ولا علاقة لي بما يحصل لك وانتهى الامر كي لا اسألك مجددا صدقيني اصبح امرك يشغل كل تفكيري...صرت افكر في تحولك الغريب هذا كل لحظة ..أتخجلين ان تقولي انك مريضة؟أتمتنعين عن مصارحتي انا وانا اعرف الناس بك هنا لماذا؟"

لحظتها خرجت عن صمتك فكانت الصاعقة...

يا ليتك بقيت صامتة...أو يا ليتني لم اجبرك على الاعتراف...

يا ليتك كنت عنيدة اكثر...أو يا ليتني كنت مصرا أقل...

وإلا كان بالامكان تفادي الكارثة...

أخبرتني بما لم اتوقعه قط...بما لم يكن في الحسبان..بما لم يتبادر الى ذهني ولو للحظة...

قلت أنك مصابة بالسرطان...وتحديدا كان الورم قد اصاب دماغك...

بقيت مذهولا لدقائق ولم اقدر على اجابتك...فقدت القدرة على التكلم لوهلة...او ربما للحظات طويلة...وأنا اقف قبالتك اتفرس وجهك انتظر منك تفسيرا ما عن صحة ما تقولينه...اردت طوال تلك اللحظات القليلة ان تقولي انك كنت تمزحين لا اكثر...وانك كنت تختبرين شجاعتي وقوة قلبي او قدرتي على التحمل...لكنك لم تفعلي...بل اكدت لي الامر بأنك كنت قد علمت ذلك منذ صائفة تخرجك...وانه من اعراض هذا الورم الذي اصاب داغك نسيانك المتواصل واغمائك المتكرر...

- لماذا يا انغام؟لماذا كل هذا الصمت كل هذه الفترة؟لماذا كل هذه القسوة؟ لماذا كل هذا التجلد؟ لماذا كل هذا الجفاء؟ لمذا كل هذا الحزن؟ لماذا كل هذه التغيرات؟لماذا كل هذا التحول المفاجئ الذي طرأ عليك خلال كل هذه الفترة؟لماذا تسكتين على امر كهذالماذا لا تخبرينني وتدعين انني من المقربين اليك؟ أي المقربين اليك تراني كنت؟ ألعلهم المزيفين منهم ! لماذا لم تخبريبني؟ لماذا جعلتني اترك الكلية واذهب بهذه السهولة؟ لماذا جعلتني اتركك؟ لماذا كنت متساهلة معي؟ لماذا كنت صامتة؟ لماذا رضيت؟ ألأنك كنت مريضة ولم يعد امري يهمك؟ لماذا تسمحين لي بالابتعاد؟ لماذا ترضين بكل ما يحصل حوالك وتقابلينه بالصمت والقبول دون ادنى رد فعل؟ لماذا؟.

أمسكت بكتفيك وأخذت بخضك وضربك على وجهك وشعرك بشدة حتى تراجعت منهمكة وابتعدت عن يدي اللذين لم اعد اتحكم فيهما.قلت لي:

- ارجوك اتركني يكفي ما اقاسيه من الم منذ لحظة نهوضي الى حين نومي كل يوم...تكفيني معاناتي في محاولة التأقلم مع هذا الورم ومواصلة الحياة وهو داخل رأسي...يكفي ارجوك...لم يعد يهمني وجودك من عدمه.لست من اقرر عوضا عنك كي ادعوك للتمسك بي والبقاء في الكلية لاجلي اتريد ان تبقى في الكلية فقط من اجل الشفقة علي لاني مريضة ولان تورما قد اصاب رأسي؟ لا لا اريد ذلك...اذا كان هذا الداعي لبقائك في الكلية فذهابك افضل...لا اريد

شفقتك...انت اخترت الطريق الانسب لحياتك وانا اصابني الله بمرض لم اكن اتوقعه عن مستقبلك وتنازل عن قراراتك واترك احلامك من اجلي انا ساقاوم مرضي لوحدي لا اريد مساعدتك عوضا عن كل هذا فبقائك فيب الكلية لم يكن ليشفيني...لا تظن ان تدهور حالتي هو سبب ذهابك من الكلية...لا ليس كذلك انما هو بسبب اشتداد المرض مع الوقت...للاسف ان الورم يكبر كل يوم..واظنه سيقضي علي قريبا ان لم يستأصل.

امسكت برأسك وضممته الى صدري وقلت لك بعد ان غمرني شعور بالرغبة في استئصال الورم من دماغك بيدي...بالرغبة في اقتلاعه بأضافري...قلت لك وقد اخذت دموعك تنهمر على صدري:

- ان كان لا يهمك وجودي فأنا يهمني وجودك في حياتي وفي هذه الدنيا...انغام...انا هنا بك ولك ولست اريد حياة على هذه الارض وفي هذه البلاد من دونك انت.انغام اريدك ان تشفي ارجوك...انغام يجب ان تتعالجي...ارجوك قاومي لحيي...ارجوك اريدك ان تبقي من اجلي ان لم يكن من اجل نفسك أنسيت كل ما عشناه سويا بهذه السرعة وبكل هذه السهولة؟لا تفرطي في نفسك من اجلي ومن اجل كل من حولك ارجوك...عليك ان تصارحي عائلتك بالامر وان تتلقي العل اج...ارجوك لا تصمتي على امر كهذا يا انغام...لا تتخلي عن حياتك ونفسك بهذه السهولة.

- حسنا سأفعل لكن اخاف ان يؤثر ذلك عليهم سلبا ويتخوفون علي.لا اريد لهذا ان يؤثر على دراستي.
- لا تخشي شيئا...خوفهم عليك شيئ طبيعي...ولا تقلقي بشأن الدراسة...كل المحاضرات التي تغيبت عنها سأوصي النبات ليعطونك نسخة منها...ثم ان صحتك اهم من الدراسة.

عانقتك عناقا طويلا...كنت ترجفين خوفا....وانا اضمك بين ذراعي...شعرت وكأن كل شيء يتوقف ويموت من حولي...هل لي ان ا جد نفسي يوما وحيدا في هذا البلد مجددا كما كنت عندما جئت اليه...هل اجد نفسي من دونك انت التي كنت لي وطنا حين تركت الوطن...

كم تشبهين فلسطين !

مرهقة...متعبة من كل شيء...

قوية...صامدة...مكافحة..مكابرة...مقاومة...

جميلة...فاتنة حتى في لحظات ضعفك...

مخذولة من قدرك...

وقد خاب ظنك في كل شيء حولك...

بـأي شيء عساك تتشبثين حتى تنقذي نفسك من جحيم المرض وشبح الموت...هل يكفي الامل؟

كانت تنتابك حيرة شديدة وشرود مذهل...كنت تشعرين بالموت يحوم حولك ويتربص بك في كل حين...

تشعرين بالفناء...بالعدم...بالنهاية...

كنت تتبددين رويدا رويدا وكأنك ادركت ان الموت قد اعلن أن اسمك التالي في قائمة ضحاياه فسلمت له نفسك دون أي مقاومة.

لم أخل فيك كل هذا الضعف.

لكن بدا ذلك منطقيا وانت في وضع كذاك.

-4-

ازداد حنقها علي كثيرا بعد ان علمت بمرضها وبعد ان اضحت على ذلك الحال...كم اضحت تكرهني... وتكره نفسها بشدة...كانت تشتم رائحتي في كل مكان...في كل مرة كانت تريد ان تتحرر مني...وفي كل مرة كنت اقيدها اكثر واكثر...في كل مرة كانت تريد ان تهرب وفي كل مرة كنت الاحقها اكثر واكثر...في كل مرة تريد ان تحيا كنت ابعث فيها شبح الموت.....

كانت لا تطمئن الي...اما الان فهي تخافني...تقشعر من اقترابي...تكره وجودي في حياتها...لكنها تنسى انني لست من اختار لها كل هذا وانني اداة تنفيذ لا غير..

يزداد حقد البشر علي دوما كلما ازددت قسوة معهم...ولكنهم لا يدركون انني لا افعل بهم ذلك برغبة مني...فأنا كذلك اشعر مثلهم...بالسعادة...بالحزن...بالخوف...باللوعة...بالفقد...بالندم...وبوخز الضمير....شيء ما يجعلني اندم بعد كل مصيبة الحقها بهم...شيء ما يجعلني يجعلني احنو عليهم حين ارى دموعهم وحزنهم ولوعتهم....اشعر بالاسف حين ارى الالم يمزق قلوبهم ويسكن ضلوعهم...يزداد ضعفهم امامي في كل مرة...كلما تغلبت عليهم يستسلمون...وككل من سبقوها...

استسلمت انغام بعد كل هذه الممانعة..

زرتك في المستشفى الذي كنت تنامين فيه وتتلقين فيه حصص العلاج الكيمياوي ...كنت تغطين شعرك بحجاب اسود...يألتك لماذا تضعبن هذا السواد على رأسك فأجبتني أن لون السواد اصبح يشبه لون ايامك...لكن هذا الذي قلته لم يؤلمني كقولتك تلك حين سألتني:كيف فكرت في المجيء الي؟ لا أدري ما الذي جعلك تفكرين في سؤال كهذا يا انغام؟... لا ادري أي كره زرع فيك تجاهي فجأة حتنزلت في نظرك لمرتبة الاناس العاديين؟ "هل نسيت ماذا تعنين لي؟" هكذا اجبتك وقتها ..فضحكت بإنهاك شديد قائلة: إحمد الله أنني مازلت اذكرك حين أراك!انسيت أنني صرت انسى كثيرا؟ نسيت ماذا اعني لك .. كنت تسخرين مني كردة فعل منك على ما كان قد حدث بيننا مؤخرا يا انغام....شعرت انك غاضبة مني وربما بدأت تكرهينني لكن كنت خاطئة يا انغام ...كان كل ما فعلته بك هو ازدراء مني لتصرفاتك الطفولية وأسئلتك العربية التي كنت تسألينني اياها كلما رأيتني وكنت تكررينها على مسامعي وأنت تدركين جيدا كم تغضبني ...لكنك كنت على طبيعتك...كعادتك...طفولية دوما ..كم اعتب عليك يا انغام ولا ادري إن كان ذلك سيفيدنا أم لا ...كم اعتب على صمتك...لماذا لا تخبريني بمرضك هذا؟ لماذا فعلت هذا؟ اهذه قرابتنا؟ اهذه صداقتنا؟ لماذا هذا يا انغام؟ ! كنت ممسكا بيدك ألثمها بألم ووجع كبيرين وأنا أبحث في عينيك عن جواب كاف ومقنع لفعلك هذا؟ ! اكتفيت بالصمت...كان وجهك شاحبا وشفتيك مبيضتين وكنت مشبكة اصابعك وعيناك تنظران اليهم .... كنت لا تجبينني...وكنت أمسك بيديك محاولا ان افتكك من بين كفي الموت...من بين ذراعي هذا القدر الغاشم الذي عصف بك وبي ... أي قدر هذا الذي جمعنا؟ اي قضاء هذا الذي كتب لنا؟ ....

لقد كنت الاستثنائية التي مهما عشت من بعدها لن ألتقي بمثلها....كنت متفردة....كنت قوية...كنت فوق كل التوقعات...كنت إمرأة لا تقهر...لا تقع...لا تنسى...كنت متمردة..مدهشة...في صمودك وبقائك

واستمراريتك ....باتسماتك المستفزة للأشياء...القاتلة للقدر ...تحاولين قهر اقدارك التي حاولت الفتك بك....

كنت متمددة على الفراش في غرفة كان كل شيء فيها أبيض اللون...

لا ادري من الذي قال ان الأبيض هو لون الحياة...فما شعرت إلا بالموت حين رأيته يحيط بي واياك من كل جهة....

كنت صامتة وأنا بجانبك احاول جعلك تتكلمين.... تتفوهين بأي كلمة ...لكنك أخذت بالبكاء بشهقة وقلت لي بمرارة قاهرة: لا أريد الموت وأنا لن تذهب الى دمشق بعد ولم اشتم ياسمينها بعد.

ضممتك الى صدري وقلت لك بحنو: غدا يتفتح الياسمين ليزهر على أرض قدرك القاحلة...فقط تعطري بأملك وتأنقي بايمانك وتربعي على عرش القوة...كوني كما عرفتك إمرأة لا تقهر....لا تدعي المرض يقتلك...لا تدعي الموت يفتك بك ارجوك اصبري وصابري واصمدي كعادتك! لا تخيبي املي بك... لا أريد أن تضعفي وتستسلمي!

كوني بصمود جبل لا بقوة عليه أحد...كوني كعادتك أنثى لا تشبه أحد....كوني كالشمس وأشرقي بنورك اينما حللت ... ابتسمي وكأنك تملكين الكون... اضحكي كي تهتز الارض تحت قدمي واشعر بالنوم يغمرني...

ارجوك ابقي كما عرفتك ... تشبهين الياسمين الدمشقي الذي تحبينه تتركيني عطرا اينما حللت تتركين بسمة في قلب كل من عرفك...

اريدك كعادتك طفلة بقلبك....حلوة بحضورك...ساحرة بكلمتك.... لا أريد لهاذين الخدين الجميلين ان يأخذا لون الشحوب بدل المحمرة المعتادة التي تشبه ورد الخسلم الجوري....

ارجوك ابقي من اجلي....من اجل كل من يحبونك!

لم تجيبي بكلمة بل ازدادت حدة بكائك اكثر فأكثر واقتربت الى صدري اكثر وكأنك تريدين ان تغرسي نفسك بداخلي والا تغادريني...ان تحتمي بي من الموت... أن تختبئي في هاربة من قدرك الذي يلاحقك كالنمر الجامح والذي يتربص بك في كل مكان....

يا الاهي كم كنت رقيقة وقتها....

كم نحلت...كم كنت خائفة...ترتعشين بين ذراعي كعصفور جريح بجناح مكسور....

كنت اخاف ان تنكسري بين ذراعي لشدة ضعفك ونحولك...

تذكرت وقتها جميلة للكاتب الفلسطيني حسن سامي يوسف حين كان يصف حبيبته "هناء" المريضة بالسرطان في رواية عتبة الألم قائلا:

"يا الاهي كم تغيرت حال هذه المرأة"

ويا الاهي كم تغيرت حالك يا انغام! كنت اتساءل لماذا انت يا انغام؟! لماذا انت دون غيرك؟!

لماذا فعل بك قدرك كل هذا؟!

لماذا فعل بكلينا كل هذا؟!

لقد كان مقررا لدى مشيئة السماء ألا تكوني قدري يا انغام ...

كان اخر يوم من شهر ايار ذلك الذي سمعت فيه خبر سفرك بعد اسبوع لفرنسا كي تخضعي لعملية استئصال الورم الذي اصابك في الدماغ ....

إلتقينا على غير العادة هذه المرة ...

فلم يكن اللقاء في كليتي ولا في كليتك....

لا في مقهى ولا في المدينة العتيقة ولا في أحد شوارع العاصمة أو امام مبيت الفتيات ....

طلبت مني ان آتي اليك....الى الحمامات كي التقي بك لأن حالتك الصحية لا تسمح لك بالسفر والابتعاد عن بيتك بمفردك وهو ما جعلني اتأكد من حالتك الحرجة ....ووضعك الصحي الخطر الذي تمرين به ... وهو ما دفعني بالاسراع في الذهاب إلى الحمامات دون التواني ولو للحظة واحدة كي احظى برؤيتك .... كان لقاؤنا على الشاطئ غير بعيد مطلقا عن بيتك...قلت لك بعد ان ضممتك طويلا لدقائق دون أن نتبادل ولو كلمة واحدة: بماذا تشعرين يا عزيزتي؟ هل يراودك ألم ما؟

كان جوابك على كل ما اقوله: لا أعلم !

فأجبتك في محاولة مخفقة للتخفيف عنك:لا تخافي أنا معك ولن اتخلى عنك...فقط كوني قوية كما اعرف.

كانت صحتك متدهورة وقد بدأ ذلك بشكل واضح على وجهك الشاحب وبدنك النحيف...بدوت وكأنك لم تأكلي شيئا منذ اسابيع...كنت اخاف على عودك الرقيق ان ينكسر بين ذراعي...كنت اعانقك لعملية شديدة خوف ان يغمى عليك كالعادة ....كم كنت متعبة...متثاقلة...متبدلة... يائسة ....نحيلة وضعيفة ومستسلمة.....كانت كلماتك قليلة جدا....وعيناك مليئتين بالخوف...

يا الاهي كم تغير حالك يا انغام !

حتى اني لم اتصور يوما ان أراك على هذه الحال يا عزيزتي !

كنت خائفا عليك كثيرا...كنت خائفا علينا من الغد ...ذكرتني لحظتها بتلك المحبة لديك والتي كانت شارة لمسلسك السوري المفضل "الندم" بكلماتها القائلة"قلبي عليك....قلبي علينا "...كان قلبي علينا يا انغام !

كان قلبي علينا وعلى مستقبلنا وعلى غدي أنا وأنت .... وهل لي ان اتخيل غدي من دونك يا عزيزتي؟ أي غد هذا سيكون بلاك؟ سيكون خالياً منك...من صوتك...من ضحكاتك...من رائحة ثيابك ونعومة شعرك وسحر عينيك ...سيكون خالياً من السير معك معك في شوارع العاصمة ...حالياً من الكتب والروايات والنقاشات والصرخات والشجارات والضحكات المتعالية خاليا من كل الاماكن التي زرناها سويا ...خاليا من الرسائل الليلية المتأخرة والاتصالات الصباحية الكبيرة ...من تفاصيلك...من احاديثنا ....

كيف سيكون غدي خاليا منك يا انغام؟ اتراني بخير؟ لماذا اصبحت افكر في كل هذه الأشياء وبهذه الطريقة ....لماذا سارت الامور الى نهاية كهذه؟ كانت رؤيتك على ذلك الحال مرعبة ...لقد انتابني هاجس فقدانك منذ تلك اللحظة حتى شعرت لوهلة بالندم لموافقتي على القدوم اليوم في الحمامات ولقياك...تذكرت وقتها تلك القولة للكاتب الفلسطيني الأحب لديك"حسن سامي يوسف" حين قال "لقد انتهى زمن كل شيء ولم يبقى بحوزتنا عدا الندم... "يبدو انه سينتابني الندم على كل ما فعلت .. على ذهابي اليك...على مغادرتي لك...على رحياك من الكلية ...على تقديمي لطلب التسجيل للدراسة في المنار ...على حديثنا الأخير ذلك الذي كان بيننا في "حلق الوادي" حين اتهمتك بالطفولة والسطحية والسذاجة ...حين اغمي عليك أمامي لمرات ومرات ولم يخطر ببالي انه قد يكون مرض ما قد انتابك ... أي غباء بدر مني؟ طلبت مني ان نسير سوريا على الشاطئ فلم ارفض ...كنت مستعدا ان اقبل كل عروضك واقتراحاتك وقتها ...أن اذعن لكل شروطك يومها وكل يوم شريطة ألا تتركيني..

والا تتخلي عني كما فعلت بك أنا ....كنت اعانقك طوال سيرنا على الشاطئ وأضع رأسي على رأسك كنت اضغط عليك بقوة خوف ان يسرقك مني الوقت...الموت...او ربما القدر ...كنت مستعدا لكل شيء إلا ان اصحو ذات صباح فجأة فلا اجدك يا انغام ...كنت ارغب في البكاء في احضانك ....وبين كتفيك ...كنت اتمنى ان اقوم بخطفك من كل ما يمكنه سرقتك مني ... من كل ما يمكنه ان يغتال بهجتي التي كنت اشعر بانطفائها لحظة رأيت انطفاء بريق عينيك وخمود لهفتك تجاه كل ما حولك ...كنت نسير صامتين لم نتبادل الكثير من الكلمات ....كان كلينا يعلم أن الكلمات لم تعد تفي بالغرض ...فلا طائل منها طالما لم تعد تغير هما وصلت إليه الامور بيننا...هما عليه حالنا ...كنت متألمة ....كان بداخلك عتب شديد علي...لكن عتابك هذا كان في عينيك لم تتفوهي بشيء عنه....كنت تصرفين نظرك عني الى البحر....تتأملين موجاته بشغف وتستنشقين ريحه بعشقك المعتاد له....بينما كنت أنا اتأمل عينيك محاولا قراءة ما يدور في رأسك الذي يوجعك باستمرار ...كنت احمد الله أن نسيانك الذي اصاب ذاكرتك لم يطلني ...وانك مازلت تذكرينني وتذكرين كل ما كان بيننا من صداقة ومودة وحب.....قاومنا بهم كل هذه الايام العصيبة ....اتراه غدنا اصعب يا انغام؟ !حتما سيكون كذلك لو لم تكن سويا !كان اللقاء الأخير بيننا ...وكانت آخر الكلمات بعد أن قبلت جبينك وأنا امسكه باطراف اصابعي...تحت أشعة الشمس التي غمرتنا فشعرنا بقليل من الدفئ وسط هذه الغرفة البيضاء الباردة...قلت لي:لا تنساني ارجوك !فأجبتك: هل حقا تطلبين مني هذا؟سأنتظر اتصالك بفارغ الصبر كي تخبريني لأنك قد نزلت في باريس بخير...ومن ثم سأنتظر قيامك من العملية بصحة جيدة...طمئنيني عن وضعك هناك ارجوك

- حسنا سأفعل...كم سأشتاقك! لا صادق أنني سأترك تونس بعد كل هذه السنوات لاول مرة اشعر أنني تعلقت بهذا البلد أنا انها منذ الصغر... منذ الصغر السابع...يال الايام...كم هي مسرعة

- وكم ستبدو طويلة وباردة ومفرغة من كل معنى من دونك طوال الفترة القادمة

- ارجوك انتبه لنفسك ان كنت بخير سأكون كذلك وسأقاوم العملية !

- اطمئني سأكون بخير ان انتبهت لنفسك !

- ساخبر اختي ان تبعث اليوم وتخبرك عن وضعي بصفة مستمرة حتى ولو لم اتمكن أنا من القيام بذلك . وافترقنا بعد ذلك !

أخ كم كان فراقك موجعا وصاعقا ومفجعا يا انغام !

حتى قبل ان تخضعي الى العملية ....كانت المرة الأخيرة التي أراك فيها قبل ان تذهبي الى باريس أين بعثت الي برسالة تخبرينني فيها بوصولك هنالك مع عائلتي وبأن باريس جميلة وفيها اضواء ليلية شوارع اعجبتك طبعا ليس لأنها باريس بل لأنها تشبه إلى حد ما جمال شوارع تونس بعد المطر على حد قولك ...بعثت لي اختك برسالة اعلمتني فيها بيون خضوعك للعملية وان ذلك سيكون على الساعة الخامسة صباحا ثم كان ذلك آخر خير سمعته عنك...لم اتلقى اية رسالة منك فيما بعد لم تردي على أي من رسائلي واتصالاتي جعلتني كالمجنون الذي فقد كل ما يملك ...كطفل صغير فقد لعبته...ولاول مرة شعرت بمعنى القهر ...كان كل شيء بشعا مقفرا مفجعا حالياً من كل معنى من حولي دونك ...خلت لوهلة اني سأجن لو لم اسمع صوتك لأنو لو لم أعرف ماذا جرى لك ...اين انت يا انغام؟ أين صوتك؟ أين ضحكاتك ؟ أين وجهك الجميل؟ أين عيناك ؟ أين وقفتك؟ أين روحك؟ وهل لي ان أبقى في تونس من بعدك؟ قررت السفر .في طريقي الى المطار استحضر قولا لكاتبتك المفضلة التي أحببتها دوما **"احلام مستغانمي" (في كل مطار ينتصر الفراق وتنفرط مسبحة العشاق)**

فهل حقا في كل مرة يموت عشق ما مع كل اقلاع لطائرة؟

توقفت سيارة الاجرة أمام المطار ...نزلت لآخذ حقائبي فساعدني سائق الاجرة على انزالها من السيارة ووضعها أرضا طالبا نقوده متعللا بأنه على عجلة فقدمت له المال وذهب...وبقيت واقفا هناك أتأمل المطار ...بقيت افحص ملياً البناية بعيناي متسائلا بيني وبين نفسي ان كنت سأراها مجددا أم لا !

على ما يبدو انني لن أفعل ...كنت متثاقلا...أجر قدماي عنوة الى باب المطار حاملا الحقائب واحدة بيدي والاخرى اجرها أرضا...كنت أتأمل سماء تونس التي قضيت تحتها سنوات طوال ليال عدة تحت سمائه واياما لا تحصى ولا تعد على ترابه ...أتأمل سماء وطن كان وطنا لي قرابة الاربع سنوات ...وطن عرفت فيه اناسا جميلين ...وعشت فيه اجمل لحظات حياتي وأسوأها ...وطن حلمت فيه وكبرت فيه اياما ...كنت أتأمل كل ما يحيط بي في هذا الوطن الجميل وأشعر بنسماته تغمرني ...كنت لااقدر على تحمل قدماي وهما تزدادان ثقلا كل لحظة ...لم أصدق انه بإمكانك العودة الى تونس في تابوت كي يضمك ترابها ...أنت التي كان حلمك الدائم ان تموتي وتدفني في دمشق" ... السلم" كما تحبذين تسميتها ...لم اكن أصدق أنني على قدرة ان تواصل العيش في تونس يوما واحدة دونك...دون أن تموتي برفقتي هنا...أنت التي رافقتني طيلة أربع سنوات...لست أصدق حتى انك قد لا تكونين في هذه اللحظة على قيد الحياة....قد لا تكون انفاسك تتصاعد وتتنازل ...قد لا تكون نبضاتك تدق وقلبك يعمل في لحظتنا هذه.... قد لا يكون اسمك في قائمة الأحياء على هذه الأرض !ارجوك لا تفعلي هذا بي يا انغام !فوحدك الانغام الحقيقية التي تطربني في هذه الحياة !وحدك اللحن الجميل والاغنية الخالدة في ذاكرتي الصغيرة ! وحدك من لن تموتي بداخلي وستبقين على قيد الحياة... على الإطلاق ...وحدك من تصنعين بداخلي بهجة دائمة وحياة متواصلة ...لا يمكن ان يغيبك الموت بهذه الطريقة ...وحدك ستبقيني في صميم الروح جرسا يدق نواقيس الذاكرة كل يوم !وحتى لو فعل فإني لن أصدق هذا ...مازلت على انتظار اتصالك أو رسالتك حتى اللحظة .... لكنني لن أبقى هنا يا انغام .لن أبقى في تونس دونك...لقد غدت تونس من دونك بلادا لا اعرفها...غريبة عني...مخيفة...مقفرة...فارغة..وكأنها خالية ليس فيها أحد...فأين انت يا عزيزتي كي تعيدي لها الالوان والغبطة ... قدمت جواز سفري للعون وأخذت حقيبتي التي كانت قد خضعت للتفتيش من عون الديوانة ...واتجهت الى الطائرة التي كانت في اتجاه العاصمة الاردنية - عمان- (اين يقطن أبي)....كان الصوت يخرج عاليا من كامل ارجاء المطار ...طائرة تونس_عمان ستقلع بعد دقائق.... الرجاء من المسافرين التوجه الى الطائرة ...كنت اقترب منها شيئا فشيئا ونبضاتي تتسارع وخيبتي تزداد عمقا وأملي بأن أراك مجددا يزداد ابتعادا لحظة بلحظة ....بدوت حتى اللحظة

الأخيرة لم افقده تماما...بدوت حتى اللحظة الأخيرة لم افقده تماما ...صعدت درج الطائرة مع المسافرين بعد أن كانت حقيبتي قد صارت في المكان المخصص لها مع امتعة الجميع.

لاترك هذا التراب دون العودة إليه.. ولاغادر هذه البلاد دون أن أراها مجددا أو اجوب ارجاءها ثانية....أو اخطو في شوارعها بعد الآن !كنت أرى السماء تقترب والأرض تبتعد عن ناظري شيئا فشيئا سجلت هاتفي من جيب بنطالي كي أرى التوقيت واذا بعيناي تقعان على رقم هاتفك الذي كان قد اتصل بي منذ دقائق دون أن أراها !أتراك حقا انت؟ !

"اختر فقط ذاك الذي يصنع سعادتك في كل لحظة وفي كل خطوة وكل بقعة من الأرض من اجلك....من اجل ابتسامتك لا غير"

تمت